تقـــديم

يسعد مجلة « دراسات تاريخية » أن تخطو خطوة جديدة على طريق رسالتها في كتابة التاريخ العربي ، بانتهاجها أسلوب (الملف) ، الذي تطرح من خلاله موضوعا عاما تتعدد جوانبه ، ويقوم باحثون متخصصون بالكتابة في أي من هذه الجوانب ، بأمل أن تشكل أبحاثهم دراسة متكاملة لهذا الموضوع المطروح . وستنشر هذه الملفات مع باقي مواد المجلة الاخرى .

وحتى يؤتي هذا المشروع ثماره وينسجم مع خطة المجلة والهدف من انشائها ، كما حددته اللجنة المشرفة على مشروع (كتابة التاريخ العربي) ، والذي ينص على أن تكون هذه المجلة : « محكا للافكار وميدانا لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته » ، فان لجنة الاشراف تود أن تذكر ببعض المنطلقات التي ترجو ان يأخذها الباحثون الاكارم بعين الاعتبار حين اعداد بحوثهم :

١ ــ ان مجلة « دراسات تاريخية » ليست مجلة تاريخية بالمعنى المتعارف عليه في الدوريات العلميـة المتخصصـة ، بـل هـي خطوة اولى على درب استكمال مشروع كتابة التاريخ العربي ، المشروع الام ، تحاول طرح الجديد في ميادين البحث التاريخي العربي ، وتسليط الاضواء على التيارات العامة التي حركت تاريخ أمتنا . وما نجم عن ذلك من اتخاذ هذا التاريخ خط سير ، له مواصفاته النابعة من طبيعة الاحداث والبيئة المحلية والظروف التاريخية الدولية التي واكبت قيام الحادث ومسيرته .

٢ ــ الهدف من لجوء المجلة الى اسلوب الملف ، وتناول الموضوع الواحد من جوانبه المتعددة وبأقلام باحثين متخصصين ، كما أشرنا في المقدمة ، ليس تجميع المعروف والمتداول فحسب ، بل تصحيح ما شوّه منه وكشف الزيف ان وقع ، واستكمال ما لم يستكمل ، وايضاح ما كان يلفه الغموض أو لم ينل عناية الباحثين من قبل ، بالاضافة الى كل ما يمكن أن يثير جدلا علميا واعيا ، لابد وأن ينتهي بالتقاء

الاراء عند الحقائق العلمية الموضوعية التي تعرض على معايير النقد والمنهجية العلمية التاريخية . التي هي السبيل الامثل الوصول الى الحقيقة التاريخية الاصيلة .

٣ ـــ تظل المجلة في مشروعها هذا . وفي كل ما تقبله النشر . ملتزمة بمبادىء العمل التي اعلنتها في عددها التمهيدي . والتي نصت على أن كتابة التاريخ العربي يجب ان تتم من خلال منظورات ثلاثة . هي : **المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري التاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي .**

أيها القارىء الكريم :

بهذه التذكرة السريعة باهداف مجلتنا ومنطلقاتها في العمل التاريخي . نتوجه اليك راجين أن تلقى دعوتنا للاسهام في مشروعنا الجديد . ما تستحق من غيرتك القومية . وما عرف عنك من التزام جاد بالمنهجية العلمية . وما لك من مساهمات جادة ومشكورة في خدمة تاريخ أمتنا العربية الماجدة .

مَعَالِمُ الحَضَارَةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي إِفْرِيقِيَةَ

د . محي الدين صابر

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

١ ـ تمهيد : *

يستدير قرن من الزمان ، شهدت فيه الانسانية وقائع غير مسبوقة في تاريخ البشرية ، لا كما ولا كيفا ، فالتطور الاجتماعي والطفرة العلمية والتكنولوجية ، والآثار المترتبة على هذا كله في مختلف مجالات الحياة ، وما يترتب عليه من نتائج ، كلها امور هي فوق قدرة التنبؤ الانساني . وقد شهدت افريقيا ، في هذا القرن أحداثا ، افضت الى تغيير نوع الحياة فيها تغييرا اساسيا . فافريقيا شهدت في هذا القرن ، الاستعباد الكامل ، ثم عاشت الصراع والنضال وادركت الحرية ، وفقدت الكثير ، واكتسبت الكثير ، ولسنا هنا بصدد تقويم ما حدث ، فما الذي يمكن أن نفعل في هذه المناسبة اذن ؟ . . ان التاريخ من حيث هو عمل انساني ليس ظاهرة مجانية، وليس صدفة ولكنه واقع اجتماعي له منطقه ، ومهما يكن من أمر فان قيمة التاريخ هي في قدرته على توجيه صناعة التاريخ في المستقبل .

ومن هنا رايت انه خير من الخير ، ان نتجه في هذا العرض الى مناقشة بعض المفاهيم المتصلة بموضوع : « الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا » الى التاريخ المستقبلي لهذه الحضارة في افريقيا والى القضايا والمشكلات التي تحيط بالموضوع.

٢ ـ الحضارة العربية :

الحضارة العربية ، كانت ابدا حضارة متنوعة ، عضويا ، ومنفتحة على حضارات

---

* ألقي ملخص هذا البحث في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ـ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١ هـ/ ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

العالم وظيفيا متفاعلة معها ، مانحة ومتقبلة ، فقد عرف العرب في جنوب الجزيرة الحضارة الزراعية المتقدمة وحياة الاستقرار ، وفي الشمال مارسوا الرعي ، والفوا حياة البداوة . وتقاسمت حضارة العرب وسائل النقل ، فللعرب في البحر خبرة ، ولهم بالصحراء بصر ، فكانت سفنهم في البحر وقوافلهم في الصحراء تصلهم بمن حولهم ، وهكذا عادت الموانع الطبيعية بالنسبة اليهم وسائل اتصال ، فاحتكروا وسائل المواصلات ، وسيطروا على التجارة الدولية ، فكانوا على علاقة خارجية دائمة ،وكان لهم دورهم السياسي في ميزان القوتين الكبيرتين آنذاك ، الفرس والروم .

وقد ظلت اللغة العربية ، المظهر الحضاري المشترك بينهم . ولما كرمها الله ، فأنزل بها كتابه القديم ، القرآن الكريم اجتمعت به لهجاتهم وتوحدت به عقيدتهم فكان ذلك منعطفا تاريخيا في الحضارة العربية ، والانسانية معا ، ذلك أن اللغة العربية اصبحت وعاء الدين الاسلامي ، وتحمل العرب مسؤولية الدعوة اليه ، ومسؤولية الجهاد في سبيل نشره في الخافقين . وقد افضى هذا الى تبدل اساسي في الحضارة العربية ، في مضمونها الجديد ، مما ادى الى تغييرات جوهرية في البناء الاجتماعي العربي الجديد ، من حيث التوزيع السكاني ، وتقسيم العمل ، والعلاقات الاجتماعية وفي الدور والمكانة الاجتماعيين ، وبهذا لم تعد اللغة العربية ، هي لغة العرب وحدهم. بل اصبحت لغة المسلمين ، كل المسلمين ، فالاسلام انزل للناس كافة ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين ، وهكذا التقى المسلمون والعرب لقاء متكافئا ، فاتسع بذلك نطاق الحضارة العربية اجتماعيا اتساعا كبيرا ، واستقبلت روافد جديدة .

٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية :

وهكذا نشأت الحضارة العربية الاسلامية ، في صورتها الجديدة في ظل الاسلام الذي هو نظام حضاري متكامل وشامل ، انزله الله هدى للناس ورحمة ، وهو آخر الرسالات السماوية التي أتم بها الله نعمته على الانسان خليفته في الارض ، وحمله بها المسؤولية الانسانية ، وبلغ رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه الرسالة فأداها أمينا ، وانشأ مجتمعا انسانيا ، تسوده العدالة والمساواة ، وفي ظل الحضارة العربية الاسلامية انتقلت البشرية نقلة حضارية نوعيـة ، فتحت طريق التقدم البشري .

ومهما يكن من أمر . فان الحضارة العربية الاسلامية وان كانت هي سعي المجتمع الاسلامي ، من كل عرق، فانها حضارة يجمعها بالعروبة نسب عضوي ، من حيث أن اللغة العربية هي وعاء الفكر الاسلامي ، وبها تتم الواجبات الدينية الاسلامية

الفردية والجماعية ، وفي ظل الاسلام نمت الثقافة العربية واصبحت لغة العالم المتقدم في العصر الوسيط ، وعلى الرغم من الاوضاع السياسية للشعوب الاسلامية ، فان التراث العربي الاسلامي يعتبر تراثا لا مثيل له في امة من الامم التاريخية ولقد اغنى الثقافة العربية غنى لا فقر بعده .

٤ ـ الحضارة العربية الاسلامية والافريقية :

ظلت افريقيا ذات صلة قديمة بالحضارة العربية قبل الاسلام بقرون ، فهي جغرافيا ، موصولة برا وبحرا بالامة العربية، فكان البحر الاحمر ممرا دائما يصل بين جنوب الجزيرة وشرق افريقيا ، كما كانت الرياح الموسمية بين الخليج العربي وشرق افريقيا وسيلة طبيعية ومثالية لسيولة التعامل التجاري على ان العرب قد وجدوا طريقهم الى شمال افريقيا ، واستقروا في واحاتها وبواديها منذ وقت مبكر .

ان هجرة اوائل المسلمين من مكة نجاة من أذى مشركي قريش الى الحبشة ، تعبير عن التبادل الاجتماعي بين العرب والافارقة ، الذين كانوا قد اختلطوا من قبل تجاريا وسياسيا وفكريا ، وتعاونوا ، وتنافسوا وتصارعوا ، وتسالموا وتحالفوا ، فافريقيا ، كانت اكثر المناطق تعاملا مع المجتمعات العربية ، ولم تتصل افريقيا في كل أجزائها بالعالم الخارجي أكثر مما فعلت مع العرب، ولم تتوحد افريقيا في تاريخها الى اليوم حول عقيدة واحدة ولغة واحدة ، الا تحت الثقافة العربية الاسلامية .

فقد كان العرب سادة البحار حول افريقيا ، حتى ان المكتشف البرتغالي الشهير فاسكودى غاما ، اتخذ البحار العربي ، وعالم البحار احمد بن ماجد دليلا له ، فاعانه على الابحار في شواطىء افريقيا . وهكذا فان الافارقة لم يتأثروا في حياتهم ، كما تأثروا بالحضارة العربية الاسلامية ، ولقد كانت افريقيا حتى مطلع القرن العشرين ، تعتبر نفسها ، قطعة من العالم العربي الاسلامي ، سياسيا وثقافيا ، فقد ظلت مركزا هاما من مراكز الثقافة العربية الاسلامية . ففي تومبكتو وحدها ، فيما يعرف الان بجمهورية مالي ، كان في القرن السادس عشر ، اربع جامعات عربية اسلامية ، وخرجت العلماء الاجلاء الذين اغنوا الفكر الاسلامي ، واللغة العربية ، بمخلفاتهم التي تزخر بمخطوطاتها المكتبات العالمية. مثل أحمد باباالمعروف بعالم التكرور وصاحب كتاب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ومثل الحاج عثمان دان فوديو ، في كانو . وما يزال فيها الى اليوم علماء اجلاء ، في شمال نيجيريا بصفة خاصة ، في العلوم الاسلامية والعربية .

وقد ظلت الصلة الحميمة بين المؤسسات العلمية في أقصى القارة الافريقية وبين علمائها ، وبين المؤسسات العلمية والعلماء المسلمين في المغرب ، وفي مصروفي الحجاز ، متصلة وقوية ، فكانوا يتبادلون الرسائل والفتاوى والزيارات مع كثير من علمائها أمثال الامام الشيخ جلال الدين السيوطي والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المغربي .

كذلك ، فلقد تأثر فن العمارة في غرب افريقيا ، بالنمط العربي الاندلسي في بناء قصور الملوك والجوامع والمساجد ، وفي شرق افريقيا بالنمط الخليجي الذي جاء من عمان ، والذي يقوم دليلا حيا ، حتى الان ، في الصومال وتنزانيا ، وكينيا ، في الاثار الكثيرة القائمة هناك .

وعلى نفس المستوى من العلاقة فان اللغات الافريقية عرفت الكتابة لاول مرة عن طريق الحرف العربي ، وهناك نحو من ثلاثين لغة افريقية، لها تاريخ في هذاالحرف.

هذا وقد تأثر الافارقة في مذهبهم الديني بالمغرب والمشرق العربيين معا ، فهم جميعا يكادون يكونون سنيين ــ مالكيين الا عددا من الاباضيين في شمال افريقيا ، وفي غربها ، كذلك فان هناك بعض الذين يتبعون المذهب الشافعي في شرق افريقيا وهم في ذلك متأثرون ببعض جهات اليمن ، وكلهم سنيون . وقد تبنى الافارقة كذلك الطرق الصوفية المنتشرة في المشرق العربي مثل القادرية والاحمدية والشاذلية ،على ان بعض هذه الطرق نشأت في افريقيا ، مثل التيجانية والسنوسية والميرغنية . وكان لهذه الطرق ، دور كبير في نشر الاسلام ،وقد تصدى بعضها لمقاومة الاستعمارالاوروبي في القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وما يزال دورها كبيرا ، بين الجماهير الافريقية ، حتى اليوم ، فهي الرابطة الشعبية القومية بين المجتمعات الاسلامية هناك، فاتباع الطريق الواحد ، يعيشون في اخوة وثيقة ، ويكونون مجتمعا واحدا .

ولقد اهتم المؤرخون العرب منذ وقت مبكر بافريقيا ، وكتبوا عنها كتابات وثيقة، مثل المسعودي وابن حوقل ، وياقوت ، والبكري ، وابن بطوطة ، والحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي ، والقلقشندي ، وابن خلدون ، وعبد الرحمن السعدي ، وغيرهم كثيرون . ومنهم من تجول فيها وعاش بين مجتمعاتها ، فكانت معلوماتهم مباشرة ، وميدانية .

وهنا ينبغي ان نسجل ظاهرة بارزة ، وخصوصية حضارية ، هي انه لم تظهر في افريقيا منذ تلقت الرسالة الاسلامية والثقافة العربية ، اتجاهات عنصرية ، ولا

محلية ، بل كان هناك توحيد مطلق . وتكامل حقيقي ، وتفاعل عضوي بين الحضارة الاسلامية ، والحضارات الافريقية ، بل ان الافريقيين وحدوا بين الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، وكانوا يرون انه من تمام الاسلام ، الانتساب الى العروبة ولهذا فاننا نجد كثيرا من الجماعات والافراد منهم يصلون انسابهم بالعرب ، ونجد من كبار العلماء والقادة وبخاصة في نيجيريا . وفي غرب افريقيا من ينتسب الى السلالة النبوية ، وهذا يدل على الاعتزاز بهذهالحضارة التي وجدوا فيها حقيقتهم ، وانه من العسير ان يقوم مثل هذا الاتجاه ، بين المسيحيين الافريقيين . مهما بلغت درجة ثقافتهم الاوروبية ، او تدينهم . فليس بينهم . من يدعي انه جزء من التكوين البشري الاوروبي ، واذا فعل ، فلن يجد من يصدقه ،وانما يجد من يسخر منه ، فيقول : انكليزي اسود . أو فرنسي اسود . أما في ظل الاسلام ، فقد كان يقبل انتسابه الى العرب ، يقبله الافريقيون ويقبله العرب اجتماعيا ، وبصورة طبيعية . بل ما هو وضع الافريقي الذي يولد من ام افريقية واب اوروبي اليوم ، فهو وان كان يحمل الجنسية السياسية الاوروبية ، الا ان له اسما خاصا هو « الهجين » ، وهو لقب أقرب الى السخرية ، فهو فوق الافريقي قليلا ودون الاوروبي كثيرا ، فوضعه الاجتماعي غير محدد ، وقد تكونت من هؤلاء طبقة جديدة ، في مختلف القارات ، لا نكاد نجد لها انتماء اجتماعيا واضحا .

٥- افريقيا الاسلامية والعربية :

ان افريقيا . كانت تطلق في الكتابات العربية القديمة على تونس اما القارة الافريقية كما تعرف ، الان ، فانها أصبحت وطنا تاريخيا وجغرافيا للكثرة الكاثرة من شعوب الامة العربية دولة ، ودينا ولغة ، فهناك تسع دول من أعضاء جامعة الدول العربية في افريقيا ، ويناهز السكان العرب ثلث سكان القارة ، ففيها حوالي ٨٠٪ من سكان الوطن المغرب العربي ، واللغة العربية هي أكبر اللغات القومية فيالقارة التي تتكلم بها مجموعة ثقافية واحدة ، بما في ذلك اللغات الاوروبية . وقد جاء في ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، ان اللغات الرسمية للعمل في المنظمة هي اللغات الافريقية والانكليزية والفرنسية . وحين اقترح احد الزعماء الافارقة ، تخصيص اللغة العربية والنص عليها باعتبارها اكبر لغة قومية في افريقيا ، راى أحد الزعماء العرب الاكتفاء بالنص المقترح اصلا ، على اعتبار ان اللغة العربيةانماهي لغة افريقية

وهكذا كان .. فثبت بذلك حقيقة تاريخية وحضارية ، بوعي وادراك عميق لحقيقة العلاقات العربية الافريقية(١).

وافريقيا التي نتحدث عنها في هذا السياق ، انما هي الدول الوطنية التي تقوم في غرب ووسط وجنوب افريقيا من السكان الافريقيين ... والتي ينتشر الاسلام فيها انتشارا واسعا .

ان رابطة الدين بين الافارقة المسلمين ، وبين العرب ، رابطة عميقة وهي بطبيعتها رابطة تمتد الى العروبة ، فاللغة العربية هي اداة العبادة الدينية والقرآن الكريم هو كتابهم ، وما تزال مكاتب تحفيظه قائمة في كل القرى ، وفي كل المدن في المناطق الاسلامية ، يحفظونه ويكتبونه ، وان كانوا لا يفهمونه لتجهيلهم المخطط باللغة العربية .

هذا ،وقد ظل الافارقة ، وخاصة المسلمين منهم ، يقفون مع القضايا العربية دوليا وفي مقدمتها قضية فلسطين .

فهذه الرابطة الروحية لها على العرب حقوق ينبغي ان تؤدى ، والى جانب ذلك ينبغي ان تنمى عن طريق العون الثقافي والاقتصادي والتعاون السياسي ، وينبغي كذلك ان تدرس القضايا المتصلة بذلك ، دراسة موضوعية ، وان يتصدى لها ، بالحلول من خلال استراتيجية عربية اسلامية .

٦ ـ القضايا الافريقية :

اصبحت افريقيا اذن في ظل الاسلام امتدادا جغرافيا ، وتاريخيا ، وثقافيا للوجود العربي الاسلامي ، بصورة غير مسبوقة في حياتها ، لا حجما ولا نوعا ، وقامت في كل انحائها ، غربها وشرقها ، ووسطها ، وشمالها ، الدول الاسلامية والمدن التاريخية والجامعات والمراكز الثقافية العربية الاسلامية ، واصبحت اللغة العربية هي لغة السياسة والفكر والتجارة واصبح الدين الاسلامي هو الدين السائد ، وكان هناك ستة وثلاثون طريقا بريا عبر الصحراء الكبرى ، تربطها بالوطن العربي في انحائه

(١) الزعيم العربي هو : الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان الرئيس احمد سيكوتوري ، اقترح افراد اللغة العربية والنص عليها اشادة بالدور العربي في نضال الشعوب الافريقية ، وفي انشاء المنظمة. (محمد فائق) عبد الناصر وافريقيا .

المختلفة ، ولم تكن هناك مؤسسة تجارية كبرى في المغرب ولا من مدن الصحـــراء العربية ، الا وكان لها فروع في قلب افريقيا ، وذلك فوق الطرق البحرية على شاطىء البحر الاحمر والملاحة الموسمية عن طريق الخليج العربي والبحر الهندي من عمـــان والعراق على شواطىء شرق افريقيا ، وقامت المستقرات العربية الثقافية والتجارية في شرق افريقيا وفي وسطها .

وحين بدأ الاوربيون منذ القرن الخامس عشر يقتربون من الشواطىء الافريقية قاومهم العرب ، وصمد العمانيون بوصف خاص ، في وجههم ، قرونا ينازلونهم ، وقد أوقع الاسطول العربي بهم أكثر من هزيمة ، وطردهم من شرق افريقيا واجلاهم عن مواقعهم مرات ، وكان للعروبة والاسلام وجود افريقي قادر في كل بقعة من افريقيا ، حتى القرن التاسع عشر ، في سلسلة من الممالك التي أقامهـا الافريقيــون ، وكان للعمانيين وجود امتد من شواطىء كينيا وتنزانيا حتى قلب افريقيا ، وفي كل مكـان وصل اليــه الاوربيون آنذاك ، كانوا يجدون المستقرات العربية ، فالبلجيكيون حين وصلوا الى الكونغو وجدوا المستقرات العربية المنتشرة حول البحيرات الكبرى ، في صلة مع النظم العربية الافريقية في زنجبار ، ولم يتيسر لهم اخضاع المنطقة الا بعد الغدر بزعماء العرب وعلى راسهم الحاج البهبهاني ، وامتد النفوذ العربي الى الجزر الافريقية خارج القارة ، فكان للعرب المسلمين مستقرات في جزر القمر ، تستمد وجودها الشرعي من السلطان العربي في زنجبار ، وقد ظل النفوذ العربي هناك حتى الستينات من هذا القرن حتى تم الاتحاد بين هذه الجزيرة ، التي لعبت لقرون دورا هاما في مسيرة العلاقات العربية الاسلامية الافريقية ، وبين تنغانيقا بعد استقلالها ليقوم اتحاد جمهورية تنزانيا . فالتأثير العربي الاسلامي، شمل كل نظام الحياة الافريقية في العقيدة وفي الاقتصاد وفي نمط الحياة الاجتماعية وفي التقاليد والعادات ، وما يزال المسلمون حتى اليوم يعرفون بملابسهم العربية ، والقارىء لرحلة ابن بطوطــة ، في القرن الرابع عشر الميلادي يدرك في وضوح ان البيئة الافريقية ، تأثرت بالبيئة العربية الاسلامية وعاشت حضارة نمت نموا طبيعيا في مناخ ايجابي تلقاها برضى وتكامل معها .

ففي ظـل اللقـــاء العربي الاسلامـــي الشامــل ، حققت افريقيـــا وجودهـــا الحضاري الكامل والمتميز ، وحملت اضافتها الى الحضارة العالمية عن طريق اللغة العربية والفكر الاسلامي ، واقامت الاسس التاريخية للدول الافريقية ، بعد ان عاشت حضارة قبلية ضيقة ، ومعزولة قبل تلقي التأثير العربي الافريقي .

ومن الظواهر المعبرة أن الدول الافريقية الحديثة حين استقلت من الاستعمار الاوروبي عادت الى احياء اسماء الدول الاسلامية كغانا ، ومالي اعتزازا بالتراث

الافريقي ، ذلك التراث الذي يشكل وحده، الشخصية الافريقية، والحضارة الافريقية الشاملة التي صنعها الافريقيون على اساس انساني ، وفي صورة جماعية وفي صلة مع حضارة من اعظم الحضارات العالمية ، هي الحضارة الاسلامية العربية . وقد حدث هذا الاتجاه الى الاعتزاز بالماضي على اساس حضاري ، وليس على اساس ديني « فنكروما » الذي غير اسم ساحل الذهب ، الى غانا ، كان مسيحيا ، معتزا بالتراث الافريقي .

٧ ـ افريقيا والاستعمار والمقاومة :

وفي عهد الاكتشافات البحرية ، وعصر البارود الاوروبي وعصر التجارة الشرقية، ونمو الطبقة البرجوازية ، وامتداد الكنيسة الكاثوليكية ، كانت افريقيا الهدف القريب لاوروبا ، فاصابها من الاستغلال الاوروبي الكثير من النكبات ، فكان الاوربيون يطوفون حول شواطئها دون التجرؤ الى التوغل فيها ، وبدأ الاستنزاف البشري الذي لا مثيل له في التاريخ عن طريق الخطف والصيد البشري ، حين ابتدع الاوروبيون ونظموا تجارة الرقيق التي اصبحت التجارة الاوروبية الاولى ، خلال اكثر من قرنين من الزمان ، نقلوا في خلالهما من افريقيا الى مزارع القارة الجديدة في امريكا الشمالية والجنوبية ، ما يزيد عن مائة مليون افريقي في ظروف غير انسانية ، حتى ان بعض هؤلاء الضحايا كانوا يؤثرون الموت غرقا ، يقذفون بانفسهم في عرض المحيط ، نجاة من العذاب الذي كانوا يلقونه ، وهم مقيدون كالحيوانات في سفن القراصنة . وفي كتب الغربيين أنفسهم ، وبشهادتهم تقوم الادلة على هذه الجريمة الانسانية البشعة(١).

وحين كسدت هذه التجارة، ليس لاسباب انسانية كما يدعون ، وليس لان رجال الكنيسة أو السياسيين والمفكرين الاحرار في أوربا وامريكا ، كان لهم دور مؤثر في هذا كما يزعمون ، ولكن لاسباب متصلة بالتكوين الاقتصادي الاوربي نفسه ، وذلك بنشوء الصناعات في شمال امريكا ، واحتياج تلك الصناعات الى عمال لا يقاضونهم اجرا عاليا ، اتجهوا الى الرصيد البشري الذي يعمل في مزارع الجنوب من العبيد الضحايا فكانت معركة بين نظام الانتاج الزراعي ، والانتاج الصناعي .

حينئذ اتخذت عملية تحرير العبيد صورة سياسية عنيفة ، واحيطت باعتبارات انسانية ، وبقيم اخلاقية . لا ينكر احد فضلها واهميتها ، ولكن ينبغي ان يكون في اعتبار الدراسة الجادة لهذه الحركة ، ان هناك عاملا اقتصاديا ثابتا ، هو الصراع بين

---

(1) S. Mintz, **Esclave, facteur** de production, Bordas, Paris 1981

نوعين من الانتاج الاقتصادي ، الانتاج الزراعي ، والصناعي ، وان قضية اليد العاملة الرخيصة التي تتمثل في العبيد الافريقيين ، كانت من محاور ذلك الصراع .

وحين كسدت تجارة الرقيق فكر الاوروبيون في اقتحام القارة ، والاستيلاء على ثرواتها الطبيعية مباشرة ، بعد ان استنفدوا استغلال الثروة البشرية ، أو كادوا. وبدات المقاومة الافريقية منذ القرن الثامن عشر وبلغت مداها في القرن التاسع عشر وفي النصف الاخير منه واستمرت في مطالع القرن العشرين . وهنا يبرز دور الحضارة العربية الاسلامية في الصور الرائعة من النضال والجهاد ، فقد قاد الافريقيون الدفاع عن وجودهم الحضاري ، سياسة وعقيدة وثقافة . وقائمة المجاهدين والمقاتلين طويلة، ونكتفي هنا بنماذج معروفة عالميا فالامير عبد القادر في الجزائـر ، والحاج عمر تالي في غرب افريقيا والحاج عثمان دان فوديو ، في وسط افريقيا والشيـخ عبـد الله الحسن في شرق افريقيا الصومال ، كلهم نماذج من الفداء والعطاء ، تصدوا تحت رايـة الاسلام والعروبة لاسلحة الدمار الاوروبية الحديثة وكلفوا المعتدين ثمنا غاليا من الضحايا ، هذا الى جانب ما قامت به ثورة المهدي في سودان وادي النيل ،والتي وصلت الى اعماق افريقيا ، ونضال رابح الزبير ، ضد الاستعمار الفرنسي في الكمرون وتشاد دفاعا عن الاسلام والعروبة ، وما قامت به الحركات السنوسية التي كانت مراكزها الدينية ، وزواياها العربية الاسلامية تمتد على طول الصحراء الكبـرى ، والسودان الاوسط والتي كانت مراكز مقاومة للاستعمار حتى مطلع القرن العشرين ، والشهيد عمر المختار في ليبيا والامير عبد الكريم بطل الريف في المغرب الى آخـر القائمة المشرفة ..

فالدفاع عن الحقيقة الافريقية ، وعن الاصالة الافريقية تم تحت راية الاسلام والعروبة ، واصبـح السعي الافريقي جزءاً من الحضارة العربية الاسلامية ، ورافدا حيا من روافدها الكبيرة .

٨ ـ افريقيا واوروبـا :

تم تقسيم افريقيا ، في مؤتمر برلين الشهير عام ١٨٨٥ واصبحت كلها تحت النفوذ السياسي والحربي المباشر .

وهنا وجد الاستعمار نفسه وجها لوجه امام القوة العربية الاسلامية ، وهي القوة الاجتماعية المتقدمة التي قاومت الاستعمار الاوروبي في كل انحاء القارة ، وقادت الثورات ضد وجوده .وقد تمثلت المشكلة اولا في العقيدة الاسلامية التي

ظلت عقبة حقيقية في وجه النشاط التبشيري المسيحي ، وتمثلت ثانيا في الثقافة العربية التي حالت دون الانتشار الثقافي الاوروبي ، فقد كانت معاهد التعليم كلها عربية دون استثناء ، وذلك بعد ان حسم الاستعمار بالقوة الحربية مسألة السيادة الوطنية ، لكن السيادة الاجتماعية لم تكن ميسورة امام عقبتي العقيدة والثقافة ، وادرك الاستعمار ان القضية قضية أجيال ، ومع ان لكل نظام استعماري اسلوبه الخاص في التعامل مع الحضارات المغلوبة . فالطريقة اللاتينية هي افناء الشخصية الحضارية المغلوبة في الشخصية الحضارية الغالبة عن طريق الهضم والتمثيل والاحتواء والاستيعاب Assimilation والطريقة الانغلوسكسونية هي طريقة التعايش والتكيف والاسلوب غير المباشر Indirect rule مع هذا ، فلم يكن هناك وسيلة عملية امام الاصرار الجماعي الا اللجوء الى سياسة النفس الطويل والاعتماد على الاجيال القادمة.

وهكذا فعلوا ، فأقاموا المدارس لتكون مؤسسات للتجنيد الديني والثقافي ، حتى ان بعض النظم الاستعمارية كالنظام البلجيكي اسند امر التعليم كله ، الى الكنيسة الكاثوليكية تتولاه بعثات التبشير ، وبعضها قسم هذا التعليم بين الطوائف المسيحية ، واعطى لكل طائفة منطقة نفوذ كما فعل النظام الانكليزي ، وذلك لاحداث صراع بين هذه الطوائف ، يصرفها عن التدخل في الشؤون الادارية .

ومهما يكن من امر فان هذه المدارس كانت تقوم بتعليم لغة المستعمر ، التي هي نفسها لغة التعليم ، وفي الوقت نفسه تقوم بتنصيرهم ، وتعميدهم وتغيير اسمائهم باسماء مسيحية . وامسك المسلمون عن ارسال ابنائهم الى تلك المدارس خوفا على عقيدتهم . فعمدوا الى الفئات الضعيفة ، والمرتبطة مع النظام بصورة من صور النشاط ، وكان كل النشاط الاجتماعي في يد المستعمر . وكان من نتيجة ذلك انه غداة استقلال هذه البلاد ، لم تكد تكون هناك طبقة من المتعلمين تعليما مدنيا من بين المسلمين ، الا من تعلم في البلاد العربية او الاسلامية ، فكان معظم رجال السياسة والادارة والتعليم والاقتصاد والتنظيم والحرب كلهم من المسيحيين الافريقيين ، الذين تعلموا في المدارس الاوروبية ، ونتج عن هذا ان الحكومات الوطنية التي خلفت الاستعمار قامت في غالبيتها العظمى على هذه الفئة ، حتى أن بعض البلاد التي تبلغ نسبة السكان المسلمين فيها اكثر من ٩٠٪ يقوم عليها رؤساء مسيحيون ، ولم ينفتح المسلمون على هذه المدارس الا بعد الاستقلال .

وهنا ينبغي ان نلاحظ ان هذه المدارس نفسها تحمل في ذاتها مشكلة حضارية كبرى ، لانها أصبحت مصدر الاغتراب الثقافي والاستلاب الحضاري . والى جانب محاربة اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية ، واحلال اللغات الاوروبية والديانة

المسيحية مكانهما ، كانت هناك جهود موصولة لفصم عرى الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا ، فعكف الاوربيون على دراسة اللغات المحلية ،ووضع قواميس افريقية أوروبية وتم التخطيط لتغيير الحرف العربي ، الذي وعى كل النشاط الفكري العلمي والثقافي الافريقي خلال قرون طويلة ، واستبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وقد نجحوا في ذلك رسميا ، وواقعيا ، وقد تم ذلك في الثلاثينيات بالنسبة للغات الكبرى ذات التراث الثقافي الضخم في الحرف العربي مثل الهوسا في غرب افريقيا ، والسواحيلي في شرقها .

لقد نجح الاستعمار في احلال لغته محل العربية في افريقيا ، التي يقسمونها اليوم الى قسمين : المتحدثين بالفرنسية (الفرانكفونيين) من ناحية والمتحدثين بالانكليزية (انغلوفونيين) من ناحية اخرى ، وكأن المتحدثين باللغات الافريقية ليسوا أفارقة ، أو كأن تلك اللغات الافريقية ليست لغات وليس لها وجود ثقافي او اجتماعي عند الافارقة ، بحيث يعرفون بها ، وكأن المتحدثين باللغة العربية ، من العرب في افريقيا ، ليسوا افارقة ، وكأن اللغة العربية ليست اوسع انتشارا من أي لغة اوروبية منفردة ، وبخاصة على المستوى الجماهيري، وكأنها ليست حتى الان ، ما زالت في هذا المستوى ، فهي لغة التخاطب ، بين القبائل ، وبخاصة في غرب افريقيا.

وان الوضع الثقافي الخطير حقا في هذا الشأن هو أن اللغات الاوروبية التي شاعت في ظل الاستعمار ، هي اليوم اكثر انتشارا ، منها عشية خروج الاستعمار ، وانها تزداد انتشارا بين الاجيال الجديدة ، ذلك لان سبيل تعليم اللغة الاوروبية كانت هي المدرسة ، ولم تكن المدارس كثيرة العدد في ايام الاستعمار ، ولم يكن ذلك مرغوبا ، لان الاستعمار لا يريد بصفة عامة تأهيل المستعمرين ، وتسليحهم بالمهارات الا في حدود معينة ، ومستويات محددة ، كمساعدين له ، ثم لاحجام المسلمين عن تلك المدارس خوفا على عقيدة ابنائهم .

اما بعد الاستقلال فان التعليم أصبح حقا ، وصار الطلب عليه ، كما هو الحال في كل البلاد النامية ، عاليا ، لانه طريق الحراك الاجتماعي من ناحية ، ثم لارتفاع الحرج الذي كان يلاقيه المسلمون من التعليم المرتبط بالكنائس من ناحية اخرى ، اما لغة التعليم فقد ظلت هي اللغات الاوروبية في كل المستويات ، اذا استثنينا ، بلدا كتنزانيا ، حيث تقوم السواحلية بدور ملحوظ في التعليم العام ، في المواد الاجتماعية، اما التعليم العالي فانه يكاد يكون وقفا على اللغات الاوروبية ، ومعنى هذا ان الافريقيين هم الذين ينفقون من مواردهم القليلة ، على نشر اللغات الاجنبية ، وتأصيلها

في افريقيا ، على حساب اللغات الافريقية ، وبهذا يسهمون ايجابيا في عمليات الاستلاب الثقافي .

وارضاء لدعوات بعض الافارقة المستنيرين للعودة الى الاصالة الافريقية ،بدات فكرة « اعـادة » كتابة اللغات بالحرف اللاتيني ، واستعمال تلك اللغات في المراحل الاولى من التعليم العام ، ويتم تعليم اللغة الاجنبية الاولى جنبا الى جنب مع اللغات الافريقية التي تتوقف عند مستوى معين ، ليستمر التعليم بعد ذلك في مراحل التكوين الاساسية باللغات الاجنبية .

هذا ، وقد ظلت المناهج التعليمية في اطارها العام ، وخاصة فيما يتعلق بافكار الثقافة الاسلامية والعربية ومحاربتها ، وبالنظرة العدوانية للعلاقات الافريقية كما هي. وهي مناهج مضللة وبخاصـة المناهج الاجتماعية وهي تقوم في كل النظم التعليمية في افريقيا ، على الاتفاق في مهاجمة الحضارة العربية الافريقية ، وتشويه الصلات العربيـة الافريقية وتصويرها على انها صلة قائمـة على الاستغلال ، وان العرب لم تكن لهم رسالة في افريقيا ، الا بيع الافارقة والمتاجرة فيهم . بحيث اصبحت هذه الاساطير احـدى حقائق التاريخ الافريقي عند المثقفين الافريقيين ، ذلك الى جانب التهجم المفضوح والكاذب على الاسلام ، وعلى تعاليمه السمحة ، والتعرض لسيرة الرسول العظيم بالافتراء المشين ، وذلك امعانا في توهين الصلات الافريقية العربية الاسلامية ، لانهم يعلمون انه ليس هناك بديل مجذر واصيل ، في افريقيا ، لثقافتهم الا الثقافة العربية الاسلامية ، التي يجعلون همهم الاكبر ، النيـل منهـا ، وصرف الافارقة عنها ، وتكوين اتجاه معاد لها ، ثم تنمية ذلك الاتجاه بكل الوسائل . ولقد وجد الاوروبيون انه لا يمكن ان يدعوا، اذا ارادوا ذلك وهم لا يريدونه، عزة وكبرا ، انهم والافريقيين سواء ، حضارتهم افريقية ، أو ان الحضارة الافريقية هي حضارة اوروبية متقدمة ، والا فلماذا جاؤوا لتمدينهم وتحضيرهم ؟ فعمدوا حينئذ الى خلق اسطورة الزنوجة Megritude .وهي فكرة بـدات في نطاق الادب وسـطا بين الرومانتيكية والسيريالية وانتشرت في أعقاب الحرب العالمية الاولى مستمدة اصولها البعيدة من كتابات الادباء الامريكيين السود ذات الجذور الاجتماعية والسياسية ، وهي تقوم على الدعوة الى تقديس الماضي الذهبي الافريقي المتمثل في الفنون وبخاصة الفن التشكيلي والنغمي وفي الفولكلور والمواريث الشعبية ، وقـد استفاد منهـا في ذلك الوقت بعض المناضلين الافريقيين على اساس ان ذلك يبرز التناقض بين الثقافة الافريقية كيفما فهمت ، او افهمت ، وبين الحضارة الاوربية . ولكن سرعان ما انجرفت الفكرة وبدا الامر وكأن مفهوم الحضارة الافريقية منحصر ،في الراي العام العالمي، في التماثيل

الخشبية ، في الاقنعة،وقبعات الشعر ، والموسيقى الصاخبة، وقلائد الخرزوالنحاس، وهي ابداع انساني ، وتعبير فني ما في ذلك شك ، ولكن ليست هي وحدهاافريقيا.

افريقيا فيها فكر وفيها تنظيم اجتماعي وفيها قيم رفيعة وفيها حكم وتجارب . ومما يثير الريبة ان الاستعمار وبعض المثقفين الافريقيين المغتربين حضاريا ، والذين يماثلونهم بدأوا يستعملون الاصالة الافريقية ، التي يدعونها ، في اتجاه واحد ، حجة ضد الفكر العربي الاسلامي الافريقي ، جاهلين ومتجاهلين كل هذا التراث الافريقي ، الرفيع في مستواه ، والضخم في حجمه وتنوعه ، منكرين انه انتاج افريقي صميم ، معبر عن الحضارة التي شارك في صنعها الافريقيون انفسهم مشاركة الاصيل المبدع ، لا مشاركة التابع أو المقلد ، سواء فيما اضافوه الى الفكر العربي الاسلامي ، أو فيما كتبوه في لغاتهم بالحرف العربي ، وهي مخطوطات تعتبر مفخرة لمكتبات العالم الكبرى، وان ظلت محجوبة عن اعين المثقفين الافريقيين ، الذين احكم المستعمرون قطع الصلة بينهم وبينها ، بصرفهم عن الكتابة العربية .

٩ ــ معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا اليوم :

بعد هذه الاشارات الموجزة ، الى بعض الحقائق ، عبر اتصال تاريخي وجغرافي ممدود بين افريقيا وبين العروبة والاسلام ، تعرض في مسيرته الطويلة ، لاحداث جسام صنعها الاستعمار ، فخلفت وقائع جديده ، نتساءل بحق ما الذي بقي من معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا ، وقد اهتزت القيم وتبدل الفكر وتغير اللسان واختلفت الحياة ونشأت مصالح واستحدثت علاقات ؟.

وهذا السؤال المشروع والمنطقي ، لا يرد على افريقيا وحدها ، بل يكاد يرد في بعض جوانبه على الامة العربية الاسلامية ، في كل مكان ، لان التغيير في حقيقته جزء من الطبيعة العضوية للحضارة البشرية التي تستمر وتعيش في الجدلية الدائمة. فحتمية التغير هي قانونها الاول، ولكن الحضارة المعاصرة مع ذلك تتميز عن الحضارات التاريخية بسرعة هذا التغيير وبكثافته كذلك .

ومع هــذا فان الاجابة ليست سلبية ، ففيها جوانب ايجابية كثيرة ، ونقاط بدايات صلبة ومتعددة ، لو سلك الناس في اعادة بناء الجسور بين الوطن العربي ، وبين العالم الافريقي . المنهجية السليمة القائمــة على الفهم الموضوعــي للقضايا والمشكلات الافريقية في اطار الواقع الجديد ، واستعانوا على ذلك بالتخطيط المرن والصبر المشترك ، في صورة مؤسسية دائمة وقادرة ، على أن يكون التعاون الثنائي

والجهود الفردية ، وهي أساسية وجوهرية ، روافد لتلك الخطة المؤسسية الشاملة .

وفي هذا الاطار من وضع الوقائع في سياقها ، يمكن القول انه بقي من معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا الكثير ..

بقي الدين في القلوب ، وبقي القرآن في الصدور . مكاتب حفظه في كل مكان تمتلىء بمتعلميه وقارئيه ، بقي نسيج الحياة المتصل بالعقيدة في السلوك الاجتماعي الروحي ، بقي الانتماء العرقي الذي تمازجت فيه الدماء العربية ، بقي التراث الضخم من الانتاج الفكري والعلمي والثقافي الذي انتجته العقول والمواهب الافريقية المكتوب في الحرف العربي . ينتظر البحث والبعث ، والنشر والاعلام .

بقيت الفنون العربية الاسلامية قائمة في المساجد ، والجوامع ، ومعاهد العلم والقصور .. بقي الحرف العربي ، وعاء خالدا ، في ظل القرآن ، للفكر الافريقي . بقي كل ذلك بجهد الافريقيين انفسهم وبايمانهم ، وباصرارهم وبانتمائهم على الرغم مما تعرضوا له من قهر واكراه ، ومن تأثير غلاب ، يمس وجودهم وحياتهم اليومية .

وهنا ينبغي أن نذكر أن كل شيء في الحياة الاجتماعية جمع بين العرب والافارقة ، في وجودهم المشترك فالاسلام لم يدخل افريقيا غازيا الى جانب انه لم تكن هناك فوارق عرقية واضحة بين العرب والافارقة في اللون ، فالعرب سمر ، والخضرة الوان العرب ، كما يقولون ، هذا الى جانب تقارب نمط الحياة والمضمون الاخلاقي بين العرب والافارقة الذين تلاقوا سالمين حول نشاط اجتماعي مشترك يتبادلون المنافع ، يأخذون ويعطون ، فأنتشر الاسلام بين الافارقة بسماحة مبادئه وبالقدوة الحسنة للمسلمين .

وهناك موضوع اساسي في هذا التلاقي الروحي والفكري والاجتماعي ، وهو المشاركة الايجابية للمسلمين والافارقة في المجتمع الاسلامي العربي في تكافؤ ومساواة وسماحة مكنتهم من السيولة في التعامل الاجتماعي ولم يلبث الافريقيون أن اصبحوا هم انفسهم مصدر اشعاع عربي وثقافي ، واصحاب قضية وحملة رسالة . في القارة وفي خارج القارة .

كل هذه جوانب ايجابية ومنطلق صلب لاستعادة هذه الصلة الروحية والثقافية ، وهما الاساس الذي تعتمد عليه سائر العلاقات الاخرى وتقوم عليهما .

من أين نستأنف المسيرة الحضارية المشتركة ؟

انه من الموضوعية ، ومن الحزم ، وحسن الرأي ، ان يبدأ ذلك من فهم الواقع الافريقي فهما عادلا بقضاياه ومشكلاته ، ثم تقدير المداخل المنهجية ، وطرح البدائل الايجابية في رسم سياسة التعاون المشترك لمواجهة تلك القضايا والمشكلات وحلها .

١٠ ــ الواقع الافريقي الجديد :

الواقع الافريقي لدول افريقيا حديثة الاستقلال يحمل كل اعراض واقع البلاد النامية ومظاهره وكل آثار المعاناة في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية قياما بوظائف الدولة الحديثة نحو مواطنيها ، ويحمل كل ضغوط السياسة العالمية وايديولوجياتها المتصارعة ، حفاظا على سيادتها ، واسهاما في سلام العالم . ولقد بدأت الدول الافريقية ، من نقطة الصفر ، حتى ان بعض تلك الدول لم تكن لديها غداة الاستقلال شيء من المقومات الاساسية لتنظيم الدولة وخاصة بعد ان سحبت بعض الدول الاستعمارية الغاصبة ، العناصر البشرية الاوربية التي كانت تقوم على كل الاجزة الفنية ، في الوقت الذي لم تؤهل فيه طوال فترة استعمارها افريقيين . ثم ان هناك بلادا افريقية ، تقع في منطقة بعيدة عن البحر ، وعن طرق النقل الاقتصادي، وبعضها تقع في منطقة يهددها الجفاف لسنوات متتالية ، تتعرض فيها الثروة القومية الزراعية والحيوانية لاخطار محققة مثل دول الساحل ، وذلك الى جانب الحاجة القصوى الى البنى الاساسية كالطرق والمواصلات ، واكثريتها الساحقة تعاني مشكلة الطاقة ونقص السيولة المالية داخليا وشح العملات وعجز موازنات المدفوعات وعدم الاستثمار في مجالات الصناعة والزراعة .الخ. .

وفي الجانب الاجتماعي هناك الطلب المتزايد على التعليم كحق ديمقراطي ، مع قصور الموارد الوطنية عن الوفاء به،وازمة السكان وتفاقم الهجرة الى المدن ، ومشكلة البطالة بانواعها ونقص الخدمات الضرورية في مجال الاسكان والكهرباء ، والمياه النقية والخدمات الصحية في جانبيها الوقائي والصحي ، الى جانب تخلف المجتمعات القروية وتدهور الانتاج الزراعي .

والى جانب هذا يعاني الافريقيون، قضية قومية خاصة، هي شخصيتهم الافريقية وهويتهم الخاصة ، فهم لم يبق لهم من افريقيا الا اللون ، فلغاتهم سلبت وتراثهم الفكري احتجب ، وكأنهم ظهروا الى الوجود مع دخول الحضارة الاوربية الى افريقيا دون تاريخ حضاري .

واصبحت مشكلة اللغات الوطنية احدى المشكلات الكبرى امام الدول الافريقية، كيف يمكن أن تكون لهم لغة رسمية ، ولغة تعليم وثقافة .؟. ولما كانت اللغات الاوروبية اصبحت حقيقة مجذرة كان لابـد من وجود مكان لهذه اللغات الافريقية متواضع الى جانب تلك اللغات المتحضرة .. فكان الحل هو ان تكتب اللغات المحلية وبعبارة اخرى تعاد كتابتها بالحروف اللاتينية ، ومهما كانت الاسباب الفنية والمبررات التي ذكرت في هذا المجال ، فان السبب الحقيقي هو هدم الجسور الثقافية العربية المرتبطة بالدين الاسلامي . ثم تصبح لغة تعليم في المراحـل الابتدائية ، الى جانب اللغـات الاوروبية ، ويتم التدرج في ذلك حتى تتمكن من ان تقوم بكفاية للتدريس بها فيالمواد الادبية والاجتماعية ، في مراحل معينة دون العلوم والرياضيات . أما اللغات الاجنبية فتحتفظ بمستواها في مجال التعليم ، في كل المراحل ، ثم هي تصبح اللغة الرسمية للدولة . وذلك تحت شعار ان اللغات المحلية هي لغة الوحدة الوطنية ، واللغات الاوربية هي لغة التفتح الثقافي على العالم ، اللغات الافريقية هي اذن أداة الوحدة ، واللغة الاوربية هي أداة التفتح ، بهذه الصبغة حل الخبراء موضوع اللغات الافريقية، وبدات الهيئات الدولية العالمية ، تعين على تأليفالكتب على هذا النمط الجديد . اما اللغة العربية ، فانها غير واردة في مناهج التعليم الحكومي الا في بعض البلاد ذات الكثرة الاسلامية ، وهي هناك تبدأ لغة اختيارية في المرحلة الثانوية ، بمستوى متواضع جدا في المادة ، والاستعداد التربوي ، معلما ومادة تعليمية ، وهي تنافس اللغـات الحية ، ففي بلد اسلامي كبير،مثل نيجيريا يخير الطلبة بين اللغة الفرنسية او العربية، في المرحلةالثانوية الى جانب الانجليزية التي هي لغة التعليم . وتدل الدراسات التي اجريت في هذا الصدد أن الطلبة يختارون الفرنسية ، للتفوق الفني في دراستهابطريقة تربوية حديثة عن طريق الوسائل السمعية البصريـة المتقدمة ، والمـواد التعليمية المدروسة والمدرسين المؤهلين ، بينما انعدمت كل هذه الامكانات بالنسبة للغة العربية. وفي بلاد اخرى ، مثل السنغال مثلا ، يخير الطالب فيالمرحلة الثانوية، الى جانب اللغة الفرنسية التي هي لغة التعليم ، بين العربية واللاتينية !! فضلا عـــن قلة الوقت المرصود لها في الخطة التعليمية ، فان ذلك الوقت الى جانب هامشيته ، يختار عادة ، في اخر اليوم الدراسي ، وفي أواخر الاسبوع ، حتى يكون الملل قد بلغ من الطلبة غايته ، مما يحملهم على الانصراف عن تلقي أي مادة مهما بلغت رغبتهم فيها .

والواقع ان هذا الطرح لا يحل مشكلة بل يخلق مشكلات لانها تزيد الفرقـة بدل الوحدة ذلك انه لا نكاد نجد بلدا افريقيا واحدا يتكلم اهله جميعا لغة وطنية واحدة اذا استثنينا بلدا كالصومال . ومن هنا فان مقولة ان اللغة الافريقية هي لغة الوحدة الوطنية مقولة غير صحيحة ومحرفة تماما .

اما لغة التفتح فسوف تظل وقفا على الذين يتكلمونها في المدارس ، وستظل القاعدة الشعبية لا تعرف عنها شيئا ذا بال ، على انه اذا لم يتم تعليم الناس بالقدر الكافي ، فان اللغات الاوروبية ستكون هي وحدها لغة التفتح ولغة الوحدة ايضا ، وهي تكسب في الحالين ، وتخسر اللغات الافريقية والثقافة الافريقية في الحالتين .

وهنالك مسألة هامة جدا في هذا المجال ذلك ان المثقفين الافريقيين لم ينتجوا في لغاتهم الاصلية شيئا بل ان كل الذي كتبوه ، هو باللغات الاوروبية ، وهو محسوب في رصيد ادب تلك اللغات التي كتبت بها وليس في رصيد الثقافات الافريقية .

١١ ـ التعاون العربي الافريقي :

حاجات المجتمع الافريقي الجديد ، هي مثل حاجات غيرها من الامم النامية ، كثيرة ، وتعجز مواردها ان تقوم لها بالاشباع ، وهذه الحاجات : هي اما حاجات متصلة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واما حاجات متصلة بتحقيق الذاتية وتحديد الهوية الحضـــارية .

وافريقيا ، وهي تسعى الى تحقيق اهدافها دولا وشعوبا ، تتعاون كغيرها على المستوى الدولي والقاري والاقليمي ، والثنائي ، ومع ارتباطها بالدول الاوربيــة المستعمرة لها قديما ، اقتصاديا ، وثقافيا ، فان الدول العربية تبقى ادنى الـــدول اليها رحما ، واقربها اليها موقعا ، وهذه الدول في مجموعها اكثر تجردا في عونهـــا لافريقيا على المستوى الجماعي والثنائي .

وانطلاقا من معطيات العلائق التاريخية ، والمستقبلية . اعطت الدول العربية اهمية قصوى للتعاون العربي الافريقي الذي اصبح جزءا من صلب السياسة القومية الرسمية وهكذا تقرر في اجتماع القمة العربي الافريقي المشترك الاول عام ١٩٧٧ في القاهرة ، تقديم معونات كبيرة ومتنوعة الى الدول الافريقية ، تقاسمتها الدول القادرة ، وصناديق التنمية العربية والمؤسسات المالية العربية ، ويبدأ التعاون من خلال المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ، ومن خلال الصناديق الوطنية العربية ، وهذا التعاون الجماعي يأتي ليدعم التعاون الثنائي ، وهو تعاون نشيـــط ونافع من الدول العربية والدول الافريقية ، ويؤدي دورا كبيرا مـــن الناحيتين السياسية والاقتصادية ، فهو من ناحية مثل مشرق لتعاون الدول النامية بينها وبين بعضها بعضا ، وهو ايضا تعاون غير مشروط لا يحمل وراءه تبعية ولا نفوذا وانمـــا هو تأكيد للصلات التاريخية ونتيجة للعلاقات الحضارية المشتركة . على ان هذا ،

من ناحية اخرى وعلى المدى الطويل ، خاصة في مجال الامن الغذائي العربي ، وفي المجال الصناعي والتعديني، يمثل مجالا واسعا للاستثمارات العربية في كل المستويات.

وعلى صعيد اخر في المجال الثقافي يقوم التعاون بين العرب وافريقيا ، على المستويين الجماعي والثنائي . والجامعة العربية ومنظماتها المتخصصة تمد جسورا ثقافية مع افريقيا ، وتتعامل مع المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية ، سواء مع اتحاد الجامعات الافريقية ، او مع مراكز البحوث التربوية ، او مراكز الدراسات الثقافية ، وبخاصة مع المؤسسات العاملة في ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، كما تعمل منظمة المؤتمر الاسلامي ، والهيئات الاسلامية العربية في هذا النطاق .

والى جانت هذا فان لبعض الدول العربية نشاطا واسعا في مجال هذا التعاون الثقافي ، وهي تقدم العون الكريم للمؤسسات القائمة ، وتنشىء المؤسسات التي تطلبها الحكومات والهيئات الثقافية العامة . وتزود المكتبات العامة ، ومكتبات الجامعات والمدارس بالمصادر والمراجع والكتب العربية .

ويأتي هذا التعاون كله مكملا للدعم السياسي الذي قدمته وتقدمه الدول العربية ، في تحرير افريقيا من الاستعمار ، والوقوف الى جانب قضاياها ، ولا سيما في قضايا التعصب العنصري . وفي الواقع ان هذا الدعم السياسي متبادل ، فللدول الافريقية أيضا مواقف ايجابية وثابتة ، في دعم القضايا العربية ، وفي مقدمتها قضية العرب المركزية ، وهي قضية فلسطين ، والاستعمار الصهيوني العنصري فيها ، الى جانب تعاونها ثنائيا ، وعلى نطاق الهيئات الدولية في قضايا العالم الثالث ، فيما يتصل بالتنمية ، واقرار نظام عالمي جديد للاقتصاد وللاعلام ، مع الدول العربية ، على انه اذا كانت الحاجات التنموية ، هي في الواقع ، حاجات عامة ومتقاسمة بين كل الدول النامية ، فان تبادل العون على مواجهتها مدخل موضوعي ، ومرتكز عملي في أوجه التعاون الاخرى ، وفي النظام العالمي القائم يتم هذا التبادل من خلال قنوات كثيرة في المجتمع الدولي وتتلقى افريقيا منها عونا كبيرا من المنظمات الدولية ومن الدول الاوربية وغير الاوربية ، ومع هذا سوف يظل التعاون العربي الافريقي محتفظا بخصوصيته ، وبأولويته بالنسبة الى العرب ، وبالنسبة الى افريقيا ، ولهذا فانه ينبغي ان يتوسع من خلال استراتيجية مدروسة ومحددة في مختلف المجالات ، خدمة للمصالح التاريخية والمصيرية المشتركة .

وعلى الرغم من تعدد وسائل العون على الحاجات الافريقية ، فان الحاجة الافريقية التي لا يستطيع أحد العون المباشر عليها ، الا العرب وحدهم ، هي الحاجة

الى تأكيد الذاتية الثقافية ، وابراز الهوية الحضارية . ذلك ان اتصال الافارقة بتراثهم الاسلامي ، وهو راس مالهم الفكري في التاريخ ، ومستودع اضافتهم المبدعة الى الحضارة الانسانية ، رهن بتعلم اللغة العربية وبمعرفة الثقافة العربية ، وباعادة الحرف العربي الى مكانه التاريخي والثقافي ، في اللغات الافريقية ، مساعدة للافريقيين على الاتصال بانتاجهم الفكري ، وفي مصادره الافريقية العربية والتعريف بها ، ثم تصحيح العلاقات التاريخية العربية الافريقية التي شوهها المغرضون وتنقيتها من البهتان ، الذي لقن باصرار لاجيال المتعلمين في المدارس التبشيرية من اتهام العرب بتجارة الرقيق ، ومن التهجم الظالم على الاسلام وتعاليمه السمحة . وما تزال هذه الافكار المسمومة باقية في المناهج المدرسية الافريقية حتى يوم الناس هذا ..

والى جانب ذلك فانه يجب ابراز دور الجامعات الافريقية ، وجهود العلماء والادباء والمؤرخين والشعراء الافارقة ، وتوضيح اوجه التكامل والتعاون بين الدول العربية الافريقية الاسلامية على مدى التاريخ المشترك .

١٢ ـ سياسة التعاون العربي الافريقي الاسلامي :

في الاشارات ، التي سبقت ، عرض لمجالات هذا التعاون المعاصر الذي يقوم على ركيزتين : ركيزة مادية وركيزة فكرية .

وهنا ينبغي ان نقرر ان التعاون في مجالات التنمية الاقتصادية ،تعاون عالمي يمكن ان يكون له بديل من اي مصدر خارجي آخر غير عربي ، في اطار التعاون الدولي الثنائي والجماعي .

اما التعاون الثقافي العربي فليس له بالضرورة ، بديل خارج النطاق العربي بالنسبة الى الافارقة ، فهو لابد ان يجيء العون فيه من الامة العربية الاسلامية .

ومن هنا ، فانالتعاون ينبغي ان تحكمه معايير ، ويقوم على اسبقيات ، فحين نتحدث عن العون المادي لمتطلبات التنمة ، فاننا نعتقد انه جوهري واساسي لبناء قاعدة من المصالح المشتركة مع الشعوب الافريقية ، ومع هذا فينبغي أن يكون من شأن ذلك العون ان يساعد على تنمية الشخصية الثقافية الافريقية ، فيكون نافعا للافريقيين في حاجاتهم الموجبة ، وهذا يعني ان يدعم المال العربي ، كلما امكن

ذلك ، بالخبرة العربية وذلك ليتحقق التفاعل الاجتماعي ، ويتم التبادل الثقافي . فالمال اي مال هو قوة مطلقة لا هوية لها ، ويمكن ان يكون من اي جهة ، ولكن الثقافة هي على عكس ذلك تماما وان كان خلق العلاقات الانسانية ورعايتها بين العرب والافارقة هدفا اساسيا لكل تعاون بينهما مهما كان شكله أو ميدانه فان العون الثقافي يأخذ اسبقية عالية ، لانه العون الذي يحمل الهوية العربية الاسلامية ، والذي يزداد عطاؤه مع مرور الزمن اكثر من الاستثمار في المصانع ، فالالة تستهلك كلما مر عليها الوقت ، اما الانسان فان عطاءه يزيد كلما امتد به العمر ، وعن طريق الانسان تنشأ العلاقات ، ويسود التفاهم وينتشر السلام ، وتقوى روح الاخاء بين الشعوب .

صحيح ان الحاجة الى المال ، والى العون المادي حاجة ملحة ، وهي التي تعطيها الدول الافريقية وكل الدول ، وبحق ، الاولوية في مشروعات التنمية . وعلى التعاون العربي الاسلامي ، ان يستجيب لهذا المنطق الذي تدعو اليه الالتزامات الدستورية والسياسية والاجتماعية لهذه الدول نحو مواطنيها سدا لمتطلباتهم الحيوية وايفاء لحقوقهم الاجتماعية ، فالعون الفكري والثقافي ، ليس بديلا عن العون المادي ، ولكنه مؤسس ، وداعم .

وفي هذا الاطار فان العون الثقافي ، بقدر ما هو مطلوب من الدول الافريقية في بناء تنميتها الشاملة ، وتأصيل شخصيتها الحضارية فانه يمثل بالنسبة الى العرب واجبا مستحق الاداء ، باعتباره جزءا من التزاماتهم المعنوية ، ذلك ان على المسلمين العرب مسؤولية انسانية في ان يمكنوا اخوانهم في العقيدة من تفهم دينهم على الوجه السليم وتلقيه من مصادره الشرعية ، وذلك بعونهم على تعلم لغة القرآن ، ولغة الشريعة الاسلامية .

وهكذا نجد ان العون الثقافي يستمد اولويته من جانب طرفي التعاون : العرب من ناحية ، والافارقة المسلمين من ناحية اخرى .

وانه من الامور الاساسية في هذا المجال ان يكون هدف هذا العون واضحا وهو تمكين الافارقة من تحقيق ذاتيتهم الثقافية ، وتثبيت هويتهم الحضارية ، وذلك انما يتم عن طريق وصلهم بتراثهم الفكري وبانتاجهم العلمي ، وهو انتاج قائم في الذي كتبه العلماء الافارقة ، في اللغة العربية وفيما اضافه المثقفون وابدعه الشعراء منهم في الجامعات الافريقية ، ومعاهد العلم ، وعلى الاجيال الافريقية المعاصرة ان تتعرف على تراثها الافريقي العربي هذا ، ويكون ذلك بالتعريف بهذا التراث العظيم

وبنشره ، وترجمته ، وتقريبه الى المثقفين الافريقيين ، فهو صلب تاريخهم الثقافي الذي ظل مجهولا لديهم ، بما اسدل حوله من ستار كثيف ، وبما جبل بينه وبينهم بالتجهيل والتغريـب .

وهذا يعني ان منطلق هذا التعاون هو ان يكون هناك سعي في اتجاهين : اتجاه يرمي الى انشاء ودعم المؤسسات التي تقوم على تنمية اللغة العربية وتعليمها في المدارس والمعاهد والجامعات بما في ذلك الثقافة الاسلامية والعربية بالضرورة ، مع العناية بالمؤسسات المستقرة والدائمة والموصولة ، وهي مكاتب تحفيظ القـرآن الكريم ، في البلاد الاسلامية .

أما الاتجاه الثاني ، وهو لا يقل اهمية عن الاتجاه الاول . وهو ما اشرنا اليه من ضرورة ابراز الاسهامات الافريقية في الثقافة العربية وفي الفكر الاسلامي ودراستها وتحليلها ونشرها .

وفي الواقع ان هذا التراث الافريقي الذي انتجه وكتبه العلماء الافارقة ، هو المصدر الفكري التاريخي للتعبير الفكري المكتوب عن الثقافة الافريقية ، وحيـن يتحدث المثقفون الافارقة عن الذاتية الثقافية ، فيجب ان يكون هذا المصدر ، احد المرتكزات الاساسية لتلك الذاتية الثقافية ، وهي امور مرتبطة تاريخيا بنشأتهـا العاطفية والاجتماعية والنفسية الشديدة التعقيد ، التي كانت احدى التعبيرات الادبية للكتاب الامريكيين مـن اصول افريقية ، تحـت وطأة التمييز العنصري والاضطهاد الاجتماعي ، ثم اختلاطها بالادباء الافريقيين الناطقين بالفرنسية بصفة خاصة في اوربا ، بعد الحرب العالمية الثانية واتخاذها الغرابة الرومانسية لـدى الاوربيين ، وادخالهـا في بعض الجوانب في مقاومة الاستعمار بصورة غامضة مـن بعض العناصر ، واتخاذها في بعض الجوانب للتفـرد الادبي من عناصر اخـرى ، واستغلالها في كل حال ، من مخططي السياسة الاستعمارية ، الرامية الى عـزل افريقيا من جذورها الحقيقية ، لاستيعابها في الحضارة الاوربية ، بمعاونة بعـض علماء الاجناس والمؤرخين والاداريين ، مما يطول معه القول ، في هذه الزنوجة .

اما فكرة الزنوجة كما مورست فيما بعد على غموضها وصعوبة تحديدها ، فليس فيما وراء الذي عرضنا من ظروف ، من الجوانب الفكرية الجادة شيء كثير ، الا الروايات الشفوية عن الخبرات البشرية والاداب الشعبية المتنوعة التـي تختلف من مجتمع افريقي الى مجتمع آخر ، بحيث لا توجد فيها فكرة جوهرية واحدة تمثل

افريقيا فكريا ، في نسق معرفي ، وبنيان علمي ، وفلسفية متكاملة . بل انها محليات ثقافية .

أما الفكر الاسلامي العربي وما انتجه الافارقة فيه باسهامهم الفعال وبعطائهم المنجز ، فهو قدر مشترك بين الافارقة جميعا ، وهو محدد بخصائصه ومقوماته ، في اطار الفكر العربي الاسلامي نفسه ، بما اضافته العبقرية الافريقية وبخاصة في مجال الفنون القولية ، وفي مجال العلوم الاجتماعية .

فهو انتاج متميز يمثل التراث الافريقي الاسلامي ، الذي يتخذ طابعه الخاص ، في نطاق التراث الاسلامي العربي الذي انتج في مناطق اخرى من البلاد الاسلامية . ومن هنا ينبغي ان يكون هنا حوار موصول بين المثقفين الافريقيين والعرب حول هذه القضايا حتى يتحدد الموقف من هذا التراث بصورة اكثر وضوحا ، والسعي لرسم خطة مشتركة لاستئناف مسيرة التعاون الثقافي الافريقي العربي .

١٣ ـ مجالات التعاون الثقافي العربي الافريقي :

ان المجالات التي يمكن ان تتحقق فيها سياسة التعاون الثقافي العربي الافريقي الاسلامي كثيرة ، ويأتي في مقدمة هذه المجالات التي تهدف الى تحقيق الهوية الحضارية والذاتية الثقافية ، اعطاء اسبقية للمخطوطات العربية وهي مقسمة على المكتبات العالمية ، وبعضها في ملكية الافراد وكثير منها معرض للضياع وللتلف .

ومن هنا ، فان العناية بجمعها وتصويرها وفهرستها والتعرف بها على نطاق عالمي ، وتحقيق بعض المخطوطات ، ونشرها وترجمتها الى اللغات الافريقية الكبرى ، والى اللغات الاجنبية السائدة في افريقيا ، تأخذ اولوية قصوى .

كذلك فان العناية بالحرف العربي وتطويره توسيعا لوعائه لاستيعاب كل الاصوات وتحسين رموزه وتبسيطها ليتمكن من مواصلة دوره في تسجيل العطاء الثقافي الافريقي ، وذلك ربطا للماضي بالمستقبل ، وتوظيفا لذلك التراث في بناء الشخصية الافريقية ، أمر له اهميته التاريخية والثقافية ، حتى لا يغترب ذلك التراث الضخم عن الافريقيين ، ويضيع من تاريخهم ومن التاريخ العربي ومن التاريخ العالمي .

وفي هذا الاطار فان وضع القواميس العربية الافريقية والافريقية العربية وبالحرف العربي وبالمداخل العربية من الوسائل الجوهرية والضرورية .

ويدخل في هذا الباب تقويم المناهج الدراسية في المدارس العربية والافريقية معا ووضعها على اسس موضوعية تبرز الصلات بين العرب والافارقة وتوضح مقومات تلك الصلات وطبيعتها واهميتها .

كذلك فانه من الامور الاساسية في هذا المقام ، اصدار موسوعات عربية افريقية تعالج في عملية موضوعية مختلف المجالات المشتركة ، وتعين بحق على تصحيح التاريخ العربي الافريقي . ومن ذلك انشاء اقسام للدراسات الافريقية في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العربية تقوم على دراسة اللغات الافريقية والحضارة الافريقية العربية الاسلامية ، وتشجيع انشاء أقسام للدراسات العربية في الجامعات والمعاهد ، ومراكز البحوث الافريقية ، لتقوم على الاهداف نفسها ، الى جانب اجراء بحوث ودراسات مشتركة ، حول القضايا الافريقية العربية .

ومن البرامج الاساسية المطلوبة تخصيص المنح الدراسية السخية ، والبعثات العلمية المتنوعة للدراسات الافريقية وللدراسات العربية على السواء، وتبادل الاساتذة والبحوث وتشجيع النشر المشترك ، والعمل على تزويد الدول الافريقية بالمطابع العربية ، والعمل على اعانة المدارس والمعاهد التي تقوم على تعليم اللغة العربية، وتزويد المكتبات العامة والمكتبات الجامعية والمدرسية بالمراجع والمصادر والكتب العربية والمواد التعليمية المختلفة ، بما في ذلك المسجلات الثقافية والتعليمية .

ذلك الى ان هناك عشرات من الموضوعات المحددة التي يمكن ان تتم في هذا المجال ، وليس من همنا ان نعدد ذلك حصرا ، ولكنا نشير بصفة خاصة الى المجالات الكبرى الممكنة ، وانه هناك كما سبق القول ، نشاط عربي مستمر وقائم ، في كل هذه المجالات ، سواء عن طريق المنظمات القومية او عن طريق التعاون الثنائي ، ولكن المدعو اليه هنا هو التكثيف والتسريع في اطار خطة عامة تقوم على تنسيق الجهود المختلفة . وفي هذا المقام ، فان بعض الخطوات الجادة ، قد بدأ ، في أطار الجامعة العربية ، ومنظمة الوحدة الافريقية ، وهناك مشروعات كبيرة في طريقها الى التنفيذ ، ومنها ، المعهد العربي الافريقي ، الذي تقرر انشاؤه بتمويل مشترك في نطاق المنظمتين العربية والافريقية ليقوم على تنمية العلاقات العربية الافريقية في مجالات التربية والتعليم ، وفي مجالات الثقافة ، وفي أهدافه متسع لانشطة متنوعة ومتجددة ، وقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باعداد الدراسات المتصلة بهذا الامر ، بتكليف من لجنة التنسيق بين المنظمتين ، الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية. وقيام هذا المركز سيكون خطوة متقدمة في هذا المجال ومنطلقا لمؤسسات وبرامج مشتركة .

خلاصـــة :

الصلة بين العرب والافارقة قديمة ، قدم المنابت العربية في الجزيرة ومـا حولها ، وقدم القارة الافريقية نفسها ، فكانت هناك طرائق اتصالات طبيعيـة . البحر والصحراء اللذان تملك العرب وسائلهما منذ القديم ، فلم تعد هناك عوائق في الاتصال البشري المباشر ، والاختلاط المبكر بين الافارقة والعرب . فالاختلاط البشري بينهما سبق ظهور الاسلام بكثير من الزمن في تعامل تجاري وفكري وسياسي.

وجاء الاسلام ، فتغير مضمون هذا اللقاء ، واتخذ طابعا عالميا ، ودخل الاسلام الى افريقيا سالما ، وتلقاه الافريقيون ، واسهموا فيه اسهاما واسعا ، فعملوا على نشره ، والدفاع عنه ، واشتركوا في الانتاج الفكري الاسلامي في جامعاتهم ومؤسساتهم العلمية ، عن طريق علمائهم ومفكريهم ، وتبنوا كل مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في فنونهم ، وفي نمط حياتهم الاجتماعية ، وفي نظمهم السياسية . وظل هذا الوجود الاسلامي ، هو الوجود الحضاري السائد الذي اعطى لافريقيا طابعها الحضاري المميز ، فلم يحدث لها مثل هذا التأثير الجماعي الذي تعرضت له من الحضارة العربية الاسلامية من قبل ، على امتداد تاريخها الطويل . وقد ظلـت المستقرات العربية منتشرة في افريقيا وفي الجزر المتصلة بها ، حتى جاء الاستعمار الاوربي ، الذي قاومه العرب على شواطىء افريقيا الشرقية بصفة خاصة قرونا ، وحين طمع الاوربيون ، في استغلال الموارد الطبيعية في داخل افريقيا ، بعد ان ادى استغـلال الموارد البشرية عن طريق تجارة الرقيق الذي مارسوه بوحشية ، دوره الاقتصادي ، تعرضت القارة لهجمة حربية كبيرة ، بلغت ذروتها في النصف الاخير من القـرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، كانت القوة التي وقفت في وجه الغزو الاجنبي، هي القوة العربية الاسلامية ، وبرزت اسماء ثوار من العلماء ، في غرب افريقيا ، مثل الحاج عمر تالي ، وفي وسطها مثل عثمان دان فوديو ، وفي شرقها مثل الشيخ عبد الله الحسن في القرن الافريقي ، والمهدي ورابح الزبير في السودان الشرقـي والسنوسية في الصحراء الكبرى ، وفي السودان الاوسط والامير عبد القادر وعمر المختار والامير عبد الكريم في شمال افريقيا ...

وظل الوجود العربي قائما في افريقيا حتى الستينات من هذا القرن ، الـى ان ضمت جزيرة زنجبار التي كان على رأس الدولة فيها حاكم عربي مسلم ، بطريقة مأسوية ، نتيجة لما بثه الاستعمار الغربي من سموم في العلاقات العربية الافريقية الى تنجانيقا وتكونت منهما جمهورية تنزانيا الحالية التي يشكل السكان المسلمون فيها رغم كل شيء اغلبية صامتة .

وفي كل هذه الفترة ، كان العرب جزءا من المجتمع الافريقي المسلم . ولم يكونوا ليمثلوا عنصرا دخيلا ، وكان الافريقيون كذلك جزءا عضويا في النسيج العربي الاسلامي . ولم يكن أمام الاستعمار من قوة حقيقية لمقاومة نفوذه الفكري والاجتماعي بعد مقاومته العسكرية ، الا القوة العربية الاسلامية . واعتمد الاستعمار على فرض لغته وثقافته ودينه ، على حساب الفكر الاسلامي والثقافة العربية . واتخذ لذلك مؤسسات المدارس التبشيرية ، التي كانت تعلم اللغات الاوربية ، وتتعهد الاطفال الافارقة فتنصرهم ، وتغير اسماءهم باسماء مسيحية ، وكان لابد للاستعمار من الانتظار فترة طويلة حتى تتكون اجيال جديدة وهكذا فعل .

هذا وقد حجب معظم المسلمين ابناءهم عن تلك المدارس ، خوفا على عقيدتهم ، فلما جاء الاستقلال في الستينات ، وجد المسلمون انفسهم متخلفين . وكان ان جاء على رأس تلك الحكومات الوطنية ، في البلاد الاسلامية ، حكام من الافارقة المسيحيين الذين تعلموا في المدارس الاوربية والذين كانوا يعاونون المستعمرين في الادارة الحديثة ، وفي التنظيم الفني والتقني للمجتمع على النمط الاوربي .

هـــذا وقد ظل الهم الاكبر للاستعمار ، هو ، العمل المنتظم المدروس ، عـلى قطع صلة الاجيال الافريقية بالتراث العربي الاسلامي ، فغير كتابة اللغات الافريقية من الحرف العربي ، الذي كتبت به ، من قبل ، ثلاثون لغة افريقية لمدة قرون ، الى الحروف اللاتينية وهذا يعني القطيعة مع التراث الافريقي الذي تراكم خلال قرون طويلة من انتاج العلماء الافارقة ، واهمال ذلك التراث وحجبه عن الافريقيين .

وانه من حق الافريقيين اليوم ان تعاد الصلة الفكرية والثقافية بيـــن العرب والافارقة ، ليتعرفوا على تراثهم وانتاجهم الفكري ، ومسؤولية العرب في هـــذا كبيـــرة .

وامتدادا للتضامن بين قوى التحرر العربية والافريقية من اجل الاستقلال نشأ تعاون وثيق بين العرب والافارقة ، في المجالات الاقتصادية والسياسية في اطـــار المنظمات الاقليمية والدولية وفي النطاق الثنائي وهو تعاون ينمو يوما بعد يوم ، ومع هذا فان العون الثقافي وهو الذي يزيد مع الزمن ، لانه الاستثمار في الانسان ، وينبغي ان يعطى اولوية خاصة في نطاق خطة التعاون العربي الافريقي ذلك ان العون الثقافي هو عون له هوية وشخصية وتعبير انساني ، اما العون المادي فمع اهميته فانه يمكن أن يأتي من أي مصدر عالمي ، آخر . وحتى في مجال العون المادي العربي الافريقي ينبغي ان يكون هناك مجال للتفاعل الاجتماعي والانساني ، وذلك بجعـــل الخبرة

العربية الفنية والمعونة الثقافية موصولتين ، بقدر الامكان ، بوجوه التعاون المادي أو جزء من ذلك التعـاون .

كذلك فانه ينبغي ان تكون هناك توعية للافارقة وللعرب معا ، بالدور الايجابي وبالاضافة التي قدمها العلماء والافارقة الى الفكر العربي الاسلامي .

ومن وسائل ذلك ، نشر المخطوطات الافريقية العربية والمكتوبة في اللغـات الافريقية بالحرف العربي ، ووضع القواميس ، واجراء البحوث حـول العلاقات الافريقية العربية وتصحيح التاريخ المشترك الذي شوهه الاجانب واعادة النظر في المناهج الدراسية ، وتوسيع المنح الدراسية والبعثات العلمية المشتركة ، وانشاء اقسام للدراسات الافريقية في الجامعات ، وفي الجامعات الافريقية للدراسـات العربية وانشاء مركز افريقي عربي ، للقيام على هذه المجالات .

وبهذا نكون قد بدانا خطوة صالحة في مطلع القرن الخامس عشر لتحرك اسلامي في تجديد العلاقات مع رقعة هي جزء غال على الامة العربية الاسلامية .

* * *

بعض مصادر الدراسة

ابن بطوطة : تحفة النظار في عجائب الاسفار وغرائب الامصار . فرنسا (أربعة أجزاء).

ابن فودى ، محمد بن عثمان : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، تحقيق وترجمة فتحي المصري، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٩ .

ادم عبد الله الالوري : الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ الى ١٩٦٠ ، بيروت ١٩٧٩ .

الجمل ، يحيى : الصلة بين الانظمة القانونية الافريقية والانظمة القانونية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

القلقشندي ، أحمد : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ..

حريز ، سيد حامد : خواطر حول تطوير العلاقات العربية الافريقية في المجال الثقافي ،القاهرة ، ١٩٧٧ .

حسن ، يوسف فضل : انتشار الاسلام وافريقيا ، الخرطوم ، ١٩٧٩ .

خلف الله ، محمد احمد : الجذور التاريخية للعلاقات الثقافية بين العرب والافارقة ، المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

خليفة الشاطر : الروابط الثقافية بين الوطن العربي وشعوب القارة الافريقية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

سعودي ، محمد عبد الغني : مشكلة اللغة في افريقيا ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . القاهرة ، ١٩٧٧ .

قضايا افريقية (سلسلة عالم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت .

قاسم ، جمال زكريا : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، ١٩٧٧ .

علي ، أبو بكر : الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ الى ١٩٦٠ ، بيروت ١٩٧٢ .

محمد بلو : اتفاق الميسور في بلاد التكرور .

محمد فائق : عبد الناصر وافريقيا .

الذخيرة السنية ، الرباط ، ١٩٧٢ .

مساهمة المغرب العربي
في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية

د . عبد الحميد حاجيات

معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

لا يوجد ، من بين الباحثين المنصفين ، من لا يعترف بالمكانة السامية التي تحتلها الحضارة الاسلامية ضمن الحضارة الانسانية ، والدور الحاسم الذي لعبه المسلمون ، في عصر عزهم ، من أجل تقدم الانسانية ورقيها . وليس هناك من ينكر فضل العلماء المسلمين ومنزلتهم العليا بين قادة الفكر الانساني ، واثرهم العميق في تطور الانسانية الفكري والاجتماعي والاقتصادي ، وغير ذلك .

ولقد انكب كثير من الباحثين ، من مسلمين ومستشرقين ، على دراسة الحضارة الاسلامية ، من نشأتها الى نموها ونضجها ، ثم الى ركودها وانحطاطها ، واخيرا الى عهد انبعاثها من جديد خلال القرن الرابع عشر الهجري ، فاوضحوا كثيرا من الغموض الذي كان سائدا في الاذهان ، وبددوا العديد من الاتهامات الباطلة ، وفندوا الاكاذيب والاحكام المسبقة التي كانت تحط من شان المسلمين وحضارتهم ، وتنقص من قيمتهم ، ومن مدى الاثر الذي كان لهم في ازدهار الحضارة الانسانية .

غير أن أغلب هؤلاء الباحثين لم يولوا اهتماما كبيرا لبلاد المغرب العربي ، التي لم تحظ ، في جل الدراسات حول الحضارة الاسلامية ، الا بنصيب ضئيل ، لا يتناسب في شيء مع الدور الهام الذي لعبه هذا القطر في ازدهار الفكر والحضارة الاسلاميين .

على أن جهودا صادقة بدأت ، منذ عهد قريب ، تبذل من أجل ازاحة الستار

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

المسدول على تراثنا الثقافي . فكانت نتائجها مشجعة ، اذ أنهـا ادت الى اثـراء المكتبة العربية الاسلامية ، وابراز بعض النفائس ، التي تبرهن بوضوح وجلاء على أهمية المساهمة التي قدمها المغرب العربي من أجل ازدهار الحضارة الاسلامية .

* * *

لا شك ان اهم عامل في نشأة ونمو حضارة عربية اسلامية في بلاد المغرب يكمن في الصلات الوثيقة التي كانت تربطها بالمشرق العربي ، وتأثرها العميق بمقوماته الحضاريـة .

ومما يفسر اهمية هذه العلاقات واستمرارها ، ما كان يوجد بين أهالي المغرب والمشرق من تقارب وتجانس في مختلف المجالات . من عادات وتقاليد وغير ذلك . كما يمكن تفسير ضآلة تأثير الرومان والوندال والبيزنطيين في بلاد المغرب باختلافهم عن الاهالي في مجال الانتماء الحضاري والتقاليد وغير ذلك ، بالاضافة الى ما امتازت به سياستهم من استغلال للثروات وازدراء للسكان ، واحتقار لكل مالم يكن نابعا من حضارتهم .

ويؤيد هذا التفسير ما حدث ايام الفتح الاسلامي من انحصار المقاومة فـي الجيش البيزنطي وحلفائه من البربر في منطقة افريقية ، بينما جنح معظم الاهالي الى مسالمة الفاتحين المسلمين ، والاقبال على دينهم الداعي الى العدل والمساواة .

واهم نتيجة للفتح الاسلامي ، في المجال الحضاري ، أنه فصل بلاد المغرب عن العالم المسيحي لمدة قرون عديدة ، وجعل هذا القطر يستمد مقوماته الفكرية من المشرق العربي ، ويعول عليه في كل مظاهر حياته الحضارية .

والجدير بالملاحظة أن الارتباط الوثيق الذي نشأ واستمر بين المغرب والمشرق العربيين ، كان يرتكز على دعائم قوية ، أهمها :

آ ــ **الدين** ، وذلك أن أهالي المغرب اعتنقوا الاسلام بسرعة منقطعة النظير ، الا اقلية لا يعتد بها ، بقيت على دين النصرانية أو اليهودية . وأصبح مسلمو المغرب يتوجهون الى الحجاز لقضاء فريضة الحج ، فيتأثرون بما يجدونه هناك من حضارة وعلوم . وكان تعلق المغاربة الشديد بالاسلام يبعثهم الى طلب العلم ، والتفقه فـي المسائل الدينية ، كما كان الكثير من طلبة العلم يرحلون الى المشرق ويدرسون عـلى

كبار العلماء ، ثم ينقلون كتبهم المشهورة ويدخلونها الى المغرب ، فتحصل لهم شهرة كبرى ، ويقبل الناس عليهم ويستقون العلم منهم ، ويطلعون على التآليف الجديدة .

ب ـ **اللغة** ، لقد حظيت اللغة العربية باقبال كبير من طرف سكان المغرب . ومما ساعد على ذلك انها لغة القرآن ــ ولذا كان انتشار الاسلام عاملا أساسيا لانتشار اللغة العربية ــ وانها كانت لغة الادارة ، منذ أواخر القرن الاول الهجري . الامر الذي حث الاهالي ، ممن كانوا يعاملون الحكام ومختلف الموظفين العرب ، على تعلمها واستعمالها في اتصالاتهم بهؤلاء . ثم ان استيطان عدد كبير من العرب لبلاد المغرب من أجل الخدمة في الجند ، أو نشر العلم والدين ، قد سهل الاحتكاك بين الاهالي وبين العرب ، وساعد على تغلغل اللغة العربية في مختلف الاوساط .

ج ـ **الاوضاع السياسية** ، لقد كان للاختلاف الذي وقع بين المسلمين حول الخلافة ، وما أدى اليه من نشأة مذاهب سياسية ، اثر عميق في تطور المغرب السياسي والمذهبي . فكان من نتائج الصراع العنيف الذي قام مدة طويلة بين مختلف الفرق الاسلامية ، من سنيين وشيعة وخوارج ، أن حاول بعض هؤلاء نشر دعوتهم في أطراف العالم الاسلامي ، لتكون لهم مأوى وقاعدة عسكرية تؤازر دعوتهم وتدعم حركتهم . فقام الخوارج بنشاط كبير في أوائل القرن الثاني الهجري ، في سائر اقطار المغرب فنشروا بها دعوتهم وتمكنوا من تأسيس امارات صفرية واباضية . أشهرها امارة تيهرت الرستمية . كما قام الشيعة الزيدية بنشر دعوتهم في بعض المناطق ، فكان ادريس بن عبد الله أول من أسس دولة من الطالبيين ، وذلك في المغرب الاقصى . ثم أسس الباطنية في أواخر القرن الثالث الهجري ، دولة العبيديين (أو الفاطميين) بافريقية ، فكانت من أشهر الدول الاسلامية ، وملكت مصر ، وأقامت بها حضارة زاهرة . ولاشك أن هذه الحركات السياسية القادمة من المشرق العربي ، قد ارست دعائم اتصال وثيق بين جناحي العالم العربي ، وأقامت بينهما علاقات هامة في المجال الفكري .

هذا وينبغي التأكيد على أن هذه العلاقات كانت على أساس الاخذ والعطاء من كلا الطرفين ، ومساهمة كل من رجال الفكر والادب والفن ، بالمشرق والمغرب ، في تطور الحضارة الاسلامية وازدهارها . كما تجدر الاشارة الى أن علماء العرب وأدباءهم ورجال الفن منهم لم يكتفوا بالتعرف على حضارات الشعوب الاخرى وثقافاتها ، ونقلها الى العربية ، بل اضافوا اليها ايضاحات وصححوا ما جاء فيها من أخطاء ،

وأبدعوا في شتى المجالات . فكانت الحضارة العربية الاسلامية ، سواء في المشرق أو في المغرب ، تحمل طابعها الخاص ، وتتسم بميزات تعبر عن أصالتها .

وقد ترك المفكرون والادباء العرب آثارا قيمة لا تحصى ، مما يدل على طول باعهم في شتى المجالات ، وكان للمغاربة حظ لا يستهان به في ذلك الانتاج .

* * *

ففي **مجال العلوم الدينية** نبغ كثير من العلماء ، وتفرغوا لتدريسها وتدوينها والتأليف فيها ، وأولوها عناية خاصة لما لها من أهمية في حياة الانسان كلها ، من معتقدات وعبادات ومعاملات .

فمنهم من عني بعلم التفسير وألف فيه كتبا مشهورة ، كان لها أثر هام في تطور هذا العلم ، ومكانة مرموقة بين ما أنتجه المسلمون في هذا المجال ، مثل ابن سلام التميمي وابن عطية . كما اهتم بعضهم بالحديث ، فنبغ فيه محدثون مشهورون ، مثل الداودي والقابسي والمازري والقاضي عياض ، وغيرهم .

وكذلك اعتنى علماء المغرب بالناحية الاعتقادية ، فخاضوا غمار الحركة الفكرية التي نتجت عن الصراع المذهبي حول ما أشاعه المعتزلة من آراء اعتقادية ، وخاصة مسألة خلق القرآن . فوجد منهم من اعتنق مذهب الاعتزال ، مثل القاضي ابن أبي الجواد ، والقاضي محمد ابن اسود الصديني ، وغيرهما . بينما قاوم آخرون هذا الاتجاه بشدة ، وهم معظم علماء المذهب المالكي(1) أما ابن تومرت فانه انتصر الى مذهب الاشعري في مسائل عديدة ، وساهم في ادخال آرائه الى بلاد المغرب ، فنمت بعده وازدهرت بقدر ما انتشرت كتب الاشاعرة فيه ، وخاصة كتب الجويني والغزالي، في الاعتقاد وأصول الدين .

غير أن علماء المغرب أولوا عناية خاصة للعلوم التشريعية ، فخصصوا لها العديد من المصنفات ، ودونوا المسائل الفقهية ، وتناولوها بالاختصار أو الشرح أو التعليق .

ومن أشهر العلماء المغاربة الذين نبغوا في العلوم الدينية :

1 – **يحيى بن سلام التميمي** البصري الافريقي (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ) . نشأ

بالبصرة . ورحل الى افريقية . وبها الف كتابا في تفسير القرآن . يعد أول تفسير استعمل فيه المنهج النقدي . قال عنه ابو عمرو الداني : « ليس لاحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام »(٢) وقد انتهج هذه الطريقة بعده ابن جرير الطبري .

٢ ـ **أسد بن الفرات** (١٤٢ ـ ٢١٣ هـ) . نشأ بالقيروان ثم بتونس، حيث درس ثم رحل الى الحجاز ، فأخذ عن الامام مالك ، وروى عنه الموطأ . ثم توجه الى العراق. حيث لقي تلامذة أبي حنيفة ، ثم وفد على ابن القاسم بمصر فاخذ عنه علما غزيرا ، ودون كل ذلك في كتاب بسماه الاسدية . وكان لاسد بن الفرات الفضل الاكبر في نشر المذهب المالكي بافريقية . وتولى القضاء سنة ٢٠٤ هـ بالقيروان . ثم قاد الجيش الذي أرسله الاغالبة لغزو صقلية ، فقتل في حصار سرقوسة ، سنة ٢١٣ هـ . ويمتاز اسد بن الفرات بسعة اطلاعه على أقوال أئمة عصره ، وعدم تقيده ، في كثير من المسائل ، بمذهب مالك . ويمكن اعتباره من رواد رجال التشريع الاسلامي ، الذين عبدوا الطريق لمن خلفهم من العلماء وأوضحوا لهم السبيل(٣) .

٣ ـ **سحنون** ، أبو سعيد بن حبيب التنوخي (١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ) . نشأ أيضا بالقيروان ثم بتونس . واخذ عن أسد بن الفرات كتاب الاسدية . ثم رحل الى المشرق ولازم ابن القاسم ، ودون فتاواه وروايته عن مالك في كتاب ضخم سماه المدونة . ثم عاد الى افريقية سنة ١٩١ هـ ، وتفرغ لنشر المذهب المالكي ومحاربة البدع . وعين في الافتاء ، ثم في القضاء (سنة ٢٣٣ هـ) . وكانت شهرته قد اخترقت الافاق ، فكان الطلبة يأتون من المغرب كله والاندلس لسماعه ، حتى أنهم كانوا يبلغون أحيانا ٧٠٠ طالب . أما كتاب المدونة ، الذي حل محل الاسدية بافريقية ، فقد كان المرجع الرئيسي لفقهاء المالكية مدة قرون عديدة ، وتناوله الكثير منهم بالاختصار أو التعليق(٤) .

٤ ـ **محمد بن سحنون** (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) . اشتهر بغزارة تآليفه . والدفاع عن مذهب أهل السنة ، والرد على الفرق الاخرى . ومن تآليفه الهامة المسند ، في الحديث ، وكتاب الجامع ، في علوم مختلفة ، وكتاب تفسير الموطأ ، في أربعة أجزاء . وكتاب الرد على أهل البدع . وكتاب الحجة على القدرية . ورسالة في السنة ، وكتاب الامامة ، وكتاب آداب المعلمين ، الخ ..(٥)

٥ ـ **ابن أبي زيد القيرواني** ، أبو محمد عبد الله النفزي (٣١٨ـ٣٨٦ هـ) . وهو من أشهر علماء المذهب المالكي ، وقد سمي مالكا الصغير . ومن أهم تآليفه : الرسالة ومختصر المدونة ، وكتاب النوادر ، ورسالة النهي عن الجدل ، وكتاب

البيان في اعجاز القرآن ، ورسالة الرد على القدرية ، ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي ، ورسالة في أصول التوحيد ، الخ ..

٦ ــ **الداودي** ، ابو جعفر احمد بن نصر التلمساني (المتوفى سنة ٤٠٢ هـ) . اصله من المسيلة ، ورحل الى طرابلس . ثم غادرها واستقر بتلمسان ، حيث توفي سنة ٤٠٢ هـ . وقد اشتهر الداودي بموقفه ضد العبيديين وخلفائهم بني زيري ، وبرأيه في وجوب مغادرة افريقية ، حيث كان يضطهد اهل السنة ، والهجرة الى بلاد اخرى . وألف كتبا جليلة ، منها كتاب الواعي ، في الفقه ، وشرح الموطأ ، وكتاب النصيحة ، وهو اول شرح لصحيح البخاري في الاسلام ، والايضاح في الرد على القدرية .

٧ ــ **القابسي** ، ابو الحسن علي بن محمد (٣٢٤ ــ ٤٠٣ هـ) . هو من كبار علماء القيروان . الف كتاب الممهد ، في الفقه ، والمنقذ من شبه التأويل ، والرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين(٦) .

٨ ــ **البراذعي** ، أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الازدي (المتوفى في اوائل القرن الخامس هـ) . كان من اصحاب ابن أبي زيد القيرواني ، واستقر بصقلية ، حيث الف كتبه . وقد اشتهر شهرة كبرى بكتابه التهذيب في اختصار المدونة ، الذي انكب الناس على دراسته وحفظه قرونا عديدة ، في سائر أنحاء المغرب . والف أيضا كتاب اختصار الواضحة ، وكتاب التمهيد لمسائل المدونة ، الخ ....

٩ ــ **ابو عمران الفاسي** (٣٦٣ ــ ٤٣٠ هـ) . اصله من فاس ، واستقر بالقيروان ، ثم رحل الى الاندلس والمشرق ، ونبغ في الفقه والحديث . وعلى يده تخرج عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة التي ادت الى تأسيس دولة المرابطين .

١٠ ــ **البوني** ، ابو عبد الملك مروان بن علي (المتوفى قبل ٤٤٠ هـ) . كان اندلسي الاصل ، وسكن بونة (اي عنابة) ، واخذ عن علماء مشهورين كأبي الحسن القابسي واحمد بن نصر الداودي ، فبرع في الفقه والحديث . ومن تآليفه شرح الموطأ .

١١ ــ **أبو القاسم البسكري** ، يوسف بن علي بن جبارة (٤٠٣ ــ ٤٦٥ هـ) . نبغ في علم القراءات وفاق فيه معاصريه . وقد استدعاه نظام الملك سنة ٤٥٨ هـ ، وعينه للتدريس بمدينة نيسابور ، فأقرأ بها ، وتوفي بها سنة ٤٦٥ هـ . واشتهر كتابه الكامل في القراءات .

١٢ ــ **أبو الحسن اللخمي** (المتوفى سنة ٤٧٨ هـ .) . هو صاحب كتاب التبصرة على المدونة ، وهو ايضا من امهات كتب المذهب المالكي . ومن تلاميذه الامام المازري .

١٣ ــ **المازري** ، محمد بن علي بن عمر (المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .) . ونسبته الى مازر ، بجزيرة صقلية . من تصانيفه كتاب ايضاح المحصول من برهان الاصول وهو شرح لكتاب البرهان للجويني ، في الاصول ، وله أيضا المعلم في شرح مسلم وهو شرح على صحيح مسلم ، ونظم الفرائد في علم العقائد ، الخ ...

١٤ ــ **عبد الحق بن عطية** الغرناطي (٤٨١ ــ ٥٤٢ هـ .) . ويعتبر تفسيره للقرآن أحسن مثال للطريقة العلمية الادبية ، التي انتهجها الاشاعرة في التفسير . وقد اعتمد ابن عطية كثيرا على تفسير المهدوي ، من علماء افريقية(٧) .

١٥ ــ **القاضي عياض السبتي** (٤٧٦ ــ ٥٤٤ هـ .) . ولي قضاء غرناطة سنة ٥٣٢ هـ ، ثم اعيد الى سبتة ، ومنها اشخص الى مراكش ، وبها توفي . وقد اشتهر بكتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى . وله أيضا كتاب مشارق الانوار ، في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب الامام مالك ، ضمنه تراجم اشهر علماء المذهب المالكي ، والاكمال ، وهو شرح لصحيح مسلم ، وغير ذلك(٨) .

١٦ ــ **ابن ابي قنون** ، ابو الحسن علي بن ابي القاسم (المتوفى سنة ٥٥٧ هـ .) . رحل الى الاندلس وجال في أقطار المغرب ، ثم استقر بتلمسان ، حيث تولى منصب القضاء .

ومن تاليفه : المقتضب الاشفى في اختصار المستصفى .

١٧ ــ **يوسف الورجلاني** ، أبو يعقوب بن ابراهيم (٥٠٠ ــ ٥٧٠ هـ .) . أصله من وارجلة ورحل الى الاندلس ، فأخذ عن أشهر علمائها ، ثم المشرق ، ثم عاد الى بلاده حيث الف كتبا قيمة ، منها تفسير القرآن ، وترتيب الربيع بن حبيب، في الحديث ، وكتاب العدل والانصاف ، في اصول الفقة ، الخ ...

١٨ ــ **أبو الحسن الغساني** الوادي آشي (٥٤٧ ــ ٦٠٩ هـ .) . كان فقيها محدثا اديبا ، والف كتاب الوسيلة لاصابة المعنى في شرح اسماء الله الحسنى ، وكتاب التصنيع في تأصيل مسائل التفريع ، وكتاب اقتباس السراج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، وكتاب نهج المسالك للتفقه في مذهب مالك . وهو شرح الموطأ .

١٩ ـ **ابو اسحاق التلمساني** (٦٠٩ ـ ٦٩٠ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها ، ثم رحل لطلب العلم ، واستوطن مدينة سبتة ، وبها توفي . وهو ناظم الارجوزة المشهورة ، في الفرائض ، التي ألفها سنة ٦٣٠ هـ ، وعمره ٢١ سنة .

٢٠ ـ **أبو الحسن الصغير** (المتوفى سنة ٧١٩ هـ .) ، كان أشهر فقهاء عصره بالمغرب الاقصى . عين قاضيا بتازا ، في عهد ابي يعقوب المريني . ومن تآليفه مجموعة الدر النثير .

٢١ ـ **ابن عبد السلام التونسي** (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .) كان عالما فقيها اصوليا خطيبا ، ولي القضاء بتونس ، ودرس بها ، فتخرج عليه كثير من العلماء ، أمثال ابن‌عرفة وعبد الرحمن بن خلدون وغيرهما . وألف شرحا على مختصر ابن الحاجب الفرعي .

٢٢ ـ **ابو عبد الله الشريف التلمساني** (٧١٠ ـ ٧٧١ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها ، واخذ عن علمائها ، ثم رحل الى فاس ، فأخذ عن الآبلي ، ثم عاد الى‌موطنه، ومارس مدة مهنة التعليم ،ثم رحل الى تونس سنة ٧٤٠ هـ ، ولازم ابن عبد السلام ، ثم رجع الى تلمسان . ولما استولى ابو عنان المريني عليها الحقه بمجلسه العلمي ، واخذه معه الى فاس . ولم يعد أبو عبد الله الشريف الى مسقط راسه الا بعد سنوات ، في بداية امارة ابي حمو الثاني الزياني ، فانقطع للتعليم الى أن توفي سنة ٧٧١ هـ . ومن تآليفه : مفتاح الوصول في علم الاصول (٩) .

٢٣ ـ **ابن عرفة الورغمي التونسي** (٧١٦ ـ ٨٠٣ هـ .) ، نشطت على يده حركة التفسير في بلاد المغرب ، وكذلك العلوم التشريعية . وكان يعتمد على تفسير ابن عطية ، وينتهج طريقة التحليل والاملاء ، التي تتطلب الاكثار من ايراد اقوال العلماء في كل مسالة تعرض في التفسير ، مع فسح المجال للسؤال والبحث ، وقد قام تلامذته بكتابة تفسيره المتضمن لما املاه عليهم أثناء دروسه(١٠) .

٢٤ ـ **سعيد العقباني** (٧٢٠ ـ ٨١١ هـ) . نبغ في علوم كثيرة من معقول ومنقول، وعين قاضيا ببجاية ، ثم بمراكش وسلا ، ثم بوهران وهنين وتلمسان . وكان ، الى ذلك ، يمارس التعليم والتأليف ، من تصانيفه : تفسير سورتي الفتح والانعام، وكتاب الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته . وشرح العقيدة البرهانية ، ولباب اللباب في مناظرة القباب ، وشرح على مختصر ابن الحاجب الاصلي،

وشرح على الحوفي في الفرائض ، وشرح البردة ، وشرح قصيدة ابن الياسمين في الجبر(١١) .

٢٥ ــ **ابن مرزوق الحفيد** (٧٦٦ ــ ٨٤٢ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها . ثم رحل الى اقطار المغرب والمشرق ، واخذ عن أشهر علماء عصره ، فتضلع في سائر العلوم النقلية والعقلية ، وذاع صيته ، فقصده الطلبة من مختلف الانحاء ، مثل عبد الرحمن الثعالبي ، والقاضي عمر القلشاني ، وغيرهما . ومن تآليفه : تفسير سورة الاخلاص (على طريقة الحكماء) ، ونور اليقين في شرح حديث اولياء الله المتقين ، وارجوزة الروضة (في الحديث) ، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (ابن عقيبة) ، والمعراج في استمطار فوائد الاستاذ السراج ، والنصح الخالص في الرد على مدّعي رتبة الكامل الناقص ، ومختصر الحاوي في الفتاوي (لابن عبد النور التونسي) ، والروض البهيج في مسائل الخليج ، وانوار الدراري في مكررات البخاري، وثلاثة شروح على البردة : الاكبر والاوسط والاصغر ، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية ، والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية ، ونهاية الامل في شرح كتاب الجمل (للخونجي) ، الخ ...

٢٦ ــ **ابو القاسم البرزلي** (المتوفى سنة ٨٤٣ هـ .) ، نزيل تونس ، واصله من القيروان محدث فقيه ، اشتهر بنوازله ، وهي مجموعة فتاوى متداولة ، في مجلدين .

٢٧ ــ **ابو العباس ابن زاغو المغراوي التلمساني** (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ .) . اخذ عن سعيد العقباني وغيره ، وانقطع لتدريس العلوم الدينية واللغة والبلاغة والرياضيات . ومن أشهر تلاميذه أبو زكريا المازوني ، صاحب النوازل ، وأبو الحسن القلصادي ، والحافظ التنسي ، وابن زكري . ومن آثاره تفسير الفاتحة ، وشرح التلمسانية ، في الفرائض ، وفتاوى عديدة أوردها ابو العباس الونشريسي في المعيار.

٢٨ ــ **محمد بن احمد بن قاسم العقباني** (المتوفى سنة ٨٧١ هـ .) . اخذ عن جده قاسم وغيره . وكان فقيها عارفا بالنوازل . وولي قضاء الجماعة بتلمسان .

ومن أهم ما الف كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر ، في الحسبة(١٢) .

٢٩ ــ **عبد الرحمن الثعالبي** (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ بالجزائر) . ومن اشهر تاليفه العديدة كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن .

٣٠ ـ **محمد بن يوسف السنوسي** (المتوفى سنة ٨٩٥ هـ .) . من اكابر علماء عصره . ولد ونشأ بتلمسان . واخذ بها عن أشهر علمائها ، وتفوق في مختلف العلوم من معقول ومنقول . وبرع بشكل خاص في المجال الاعتقادي ، فألف فيه كتبا عديدة، اشتهرت في سائر انحاء العالم الاسلامي . ومن أهم تصانيفه : عقيدة التوحيد الكبرى، وشرحها ، والعقيدة الوسطى ، وشرحها ، والعقيدة الصغرى وشرحها ، والعقيدة المختصرة ، وشرحها ، والمقدمات المبينة للعقيدة الصغرى ، وشرح جواهر العلوم للعَضُد ، ومختصر حاشية التفتازاني على الكشاف ، وتفسير صورة ص وما بعدها من السور . وشرح صحيح البخاري ، ومختصر في القراءات السبع . ومختصر علي الخونجي ، وشرح ايساغوجي ، وشرح قصيدة الحباك في الاسطرلاب ، وشرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين ، الخ . .

٣١ ـ **ابن زكري التلمساني** ، ابو العباس احمد بن محمد (المتوفى سنة ٩٠٠ هـ .) . الحافظ المفتي الاصولي المتكلم ، الف كتاب مسائل القضاء والفتيا ، وكتاب بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب ، وكتاب غاية المرام في شرح مقدمة الامام (وهو شرح الورقات لامام الحرمين الجويني ، في الاصول) ، وغيرها .

٣٢ ـ **محمد بن عبد الكريم المغيلي** التلمساني (المتوفى سنة ٩٠٩ هـ .) . نشأ بتلمسان ، ودرس بها ، ثم غادرها ، واستقر مدة بناجية توات . واشتهر بفتواه في قضية يهود توات ، وما اتسم به موقفه فيها من صرامة وشدة وتمسك بالدفاع عن الاسلام . والف كتبا عديدة ، منها : تفسير الفاتحة ، والبدر المنير في علوم التفسير، ومفتاح النظر (في علم الحديث) ، ومغني النبيل (شرح مختصر خليل) ، وشرح جمل الخونجي ، وتنبيه الغافلين عن مكر الملبسين ، ومصباح الارواح في اصول الفلاح (وهي رسالته حول قضية يهود توات) ، الخ . . (١٣) .

٣٣ ـ **أبو العباس الونشريسي** (المتوفى سنة ٩١٤ هـ) . نشأ بتلمسان ودرس بها ، وغادرها سنة ٨٧٤ ، فاستقر بفاس . وكان فقيها عالما . الف كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب جمع فيه فتاوى المتأخرين . وله أيضا ايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك ، وغنية المعاصر والتالي في شرح وثائق الفشتالي ، والفائق في أحكام الوثائق ، الخ . .

* * *

أما في مجال العلوم اللسانية ، فقد لقيت الدراسات اللغوية ، وما يتفرع عنها

من العلوم ، اقبالا كبيرا لدى طلبة العلم في المغرب ، وخاصة في افريقية ، حيث نبغ كثير من اللغويين والنحاة والادباء . ومما يدل على هذا الاعتناء ماظهر في هذا القطر من انتاج ادبي لا يخلو من أهمية . وقد حفظت لنا الكتب الادبية نماذج قيمة لما لم يندثر من آثار الشعراء والكتاب المغاربة ، ومنهم من بلغ مستوى أرقى درجة في الادب العربي .

وقد انجبت بلاد المغرب نخبة صالحة من الادباء واللغويين والنحاة والخطباء، الذين ساهموا في تطوير اللغة العربية واثراء تراثها الادبي ، ونشر علومها في مختلف الانحاء . ويمتاز الادب المغربي ، في كل عصر ، بخصائص تختلف حسب الذوق السائد ، والاوضاع الاجتماعية والسياسية وغير ذلك ،مما له أثر هام في مجالي المبنى والمعنى .

ومن اشهر من نبغ ، في مختلف العلوم اللسانية ، من علماء المغرب وادبائه :

١ ــ **بكر بن حماد التاهرتي** (٢٠٠ ــ ٢٩٦ هـ .) . ولد بتاهرت ، واخذ عن علمائها . ثم رحل الى القيروان سنة ٢١٧ هـ ، ثم الى المشرق ، حيث مكث مدة طويلة ، حصل فيها على علوم غزيرة ، ونبغ في نظم الشعر ، ثم عاد الى موطنه . وتوفي بتاهرت في شوال سنة ٢٩٦ هـ . هذا ولم يصل الينا الا النذر القليل من شعره الذي يتسم بالسهولة والرقة والوضوح والعفة(١٤) . فمن شعره ، قوله في وصف الطقس بتاهرت في فصل الشتاء :

ما أخشن البرد وريعانه   واطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت   كانها تنشر من تخت
نحن في بحر بلا لجة   تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت   كفرحة الذمي بالسبت

وقوله يرثي مدينة تاهرت بعد انخربها العبيديون سنة ٢٩٦ هـ :

زرنا منازل قوم لم يزورونا   انا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا : الزاد ويحكم   حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت أجحف بالدنيا فخربها   وفعلنا فعل قوم لايموتونا
فالان فابكوا فقدحق البكاء لكم   فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها   لو كان جمع فيها كنز قارونا

٢ ـ ابن هانيء الاندلسي المغربي (المتوفى سنة ٣٦٢ هـ .) . نشأ باشبيلية . ونبغ في علوم شتى ، وخاصة في الشعر . وقد نقم عليه اهل اشبيلية انهماكه على اللذات ، واتهموه باتباع مذهب الفلاسفة ، فاضطر الى مغادرتها والاتجاه الى المغرب ، حوالي سنة ٣٤٧ هـ . فلقي القائد جوهر ، ثم اتجه الى المسيلة ، ومدح اميرها جعفر بن علي بن غلبون . وفي سنة ٣٥٨ هـ استقدمه المعز الفاطمي . فالتحق ببلاطه ومدحه ونال من اكرامه عطاء جزيلا . ولما انتقل المعز الى مصر ، سنة ٣٦٢ ، غادر ابن هانيء افريقية للالتحاق بممدوحه ، الا انه مات في برقة ، في ظروف غامضة . ويعتبر ابن هانيء أشعر شعراء المغرب على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة .(١٥) ومن اشهر ماقاله ابن هانيء قصيدته في مدح المعز الفاطمي ، وقد بالغ في تعظيمه ، جاريا في ذلك مجرى الشيعة الاسماعيلية في نظريتهم للامامة :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار
وكانما انت النبي محمد　　وكانما انصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به　　في كتبها الاحبار والاخبار
هذا امام المتقين ومن به　　قد دوخ الطغيان والكفار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه　　وبه يُحط الاصر والاوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غدا　　حقا وتخمد ان تراه النار
من آل احمد كل فخر لم يكن　　ينمى اليهم ليس فيه فخار

وقال في الحكمة :

طلب المجد من طَريق السيوف　　شرف مؤنس لنفس الشريف
ان ذل العزيز افظع مرأى　　بين عينيه من لقاء الحتوف
أنا من صارم وطرف جواد　　لست من قبة وقصر منيف
ليس للمجد من يبيت على المجد بسعي وانٍ ونفس عزوف

وقال ايضا يرثي ابنا لابن حمدون ،أمير المسيلة ، ويذم الزمان :

وهب الدهر نفيسا فاسترد　　ربما جاد لئيم فحسد
خاب من يرجو زمانا دائما　　تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نما　　واذا ما طيّب الزاد نفد
فلقد ذكر من كان سها　　ولقد نبه من كان رقد

٣ ـ **النهشلي** ، ابو محمد عبد الكريم بن ابراهيم التميمي (المتوفى سنة ٤٠٥ هـ) . ولد بالمسيلة ، واتصل بالامراء الزيريين ، فمدح المنصور وابنه باديس ، ونظم شعره على منوال شعراء العرب القدماء ، فنال شهرة واسعة . وكتابه الممتع في علم الشعر وعمله ، من اهم كتب الادب العربي في ذلك العصر(١٦) .

٤ ـ **القزاز القيرواني** ، محمد بن جعفر التميمي (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) . اللغوي النحوي . ولد بالقيروان ونشأ بها واخذ عن علمائها ، واتصل بالمعز الفاطمي ثم بابنه العزيز ، في مصر . فحظي عندهما . ثم عادة الى افريقية ، وانقطع للتعليم فقصده الطلبة من سائر انحاء المغرب والاندلس . والف كتبا قيمة في اللغة والنحو والعروض ، من أشهرها : الجامع ، ويسمى أيضا كتاب الحروف (خصه القزاز بالحروف وذكر معانيها واستعمالها) ، وكتاب المثلثات ، وكتاب العشرات وكتاب الضاد والظاء . وكتاب الحلى والشيات . وكتاب ما أخذ على المتنبي من اللحن والغلط (وكلها في اللغة) ، وكتاب ضرائر الشعر (في العروض) . واعراب الدريديه ، وشرحها ، الخ .. هذا وقد اعتمد اصحاب المعاجم الكبرى على كتبه . فكان له الاثر الاكبر في الدراسات اللغوية بالمغرب العربي(١٧) .

٥ ـ **الحصري القيرواني** ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم (المتوفى سنة ٤١٣ هـ) . شاعر واديب ، لم يغادر افريقية ، واشتهر بتصانيف في الادب ، واهمها زهر الآداب الذي جمع فيه نماذج نثرية وشعرية من انتاج أدباء عصره . وله ايضا : كتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر ، وكتاب نور الطرف ونور الظرف . الخ .. وكان الحصري من أنصار الجديد في الادب ، فتأثر بآرائه كثير من الادباء الذين تخرجوا على يده . من بينهم ابن رشيق وابن شرف وغيرهما(١٨) .

٦ ـ **ابن شرف القيرواني** ، ابو عبد الله محمد بن أبي سعيد الجذامي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) . ولد بالقيروان حوالي سنة ٣٩٠ هـ . أخذ عن أشهر علمائها ، مثل القابسي وابي عمران الفاسي والقزاز والحصري . ونبغ في الادب والشعر . فالتحق ببلاط الامير الزيري المعز بن باديس ، ومدحه ، وأشاد بأمجاد دولته . واشتهر بالمنافسة الشعرية والادبية التي قامت بينه وبين رفيقه ابن رشيق ، ودامت الى سنة ٤٤٧ هـ ، وفي هذا التاريخ غادر ابن شرف القيروان متوجها الى المهدية . ثم الى صقلية . وبعد مدة ، رحل الى الاندلس . قاصدا بعض ملوك الطوائف . الذين كانوا يتنافسون في ايواء الشعراء واكرامهم . وتوفي باشبيلية في فاتح محرم سنة ٤٦٠ هـ . وابن شرف من فحول الشعر العربي ، ومن كبار الادباء الذين بلغوا في ملكة اللغة والبراعة في التعبير شأوا بعيدا ، ونالوا

اعجاب معاصريهم واحترامهم . وشعره يمتاز بالرصانة والخفة ، والطرافة والتنوع . ولم يصل الينا منه الا بعض القصائد ، في اغراض مختلفة . ومن تصانيفه المشهورة مسائل الانتقاد ، وهو كتاب في نقد الشعر والشعراء ، على نمط المقامات(١٩) .

٧ ـ **ابن رشيق القيرواني المسيلي** ، ابو علي الحسن (٣٩٠ ـ ٤٦٣ هـ) . ولد بالمسيلة ، وبها ظهرت مواهبه الادبية ، ثم رحل الى القيروان سنة ٤٠٦ هـ ، واخذ عن القزاز والحصري وغيرهما . وفي سنة ٤١٠ هـ ، اتصل بابن أبي الرجال ، الذي عينه كاتبا ، فاشتهر في بلاط المعز بن باديس ، وحظي عند الامير الزيري ، وعلت منزلته لديه ، رغم ما لقي من منافسة شديدة من طرف شعراء البلاط وخاصة ابن شرف . وفي سنة ٤٤٩ هـ ، غادر القيروان ، اثر خرابها ، مع المعز ، متجها الى المهدية ؛ ثم ارتحل الى صقلية ، وتوفي فيها بمازر ، سنة ٤٦٣ هـ ، وقيل سنة ٤٥٦ هـ . وقد عرف ابن رشيق شهرة كبرى في عصره ، لما نال شعره من اقبال لدى معاصريه ، وخصوصا رثاؤه للمعز ، وقصيدته حول خراب القيروان . ومن تصانيفه القيمة كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، الذي يعد بحق من امهات كتب قواعد صناعة الشعر العربي والبلاغة والعروض ، الخ .. وله ايضا كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، وكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، الذي ضمنه تراجم شعراء القيروان وكان من أهم المصادر لكتب التراجم ، وكتاب الروضة الموشية في شعراء المهدية(٢٠) .

٨ ـ **الشقراطسي** ، عبد الله بن يحيى (المتوفى سنة ٤٦٦ هـ) . ولد بتوزر ، ورحل الى القيروان في طلب العلم ، من فقه وحديث وأدب ولغة ، وتوجه الى المشرق لقضاء فريضة الحج ، ثم عاد الى توزر حيث تفرغ للتعليم والافتاء . والف كتاب الاعلام في معجزات خير الانام ، الذي ختمه بقصيدة في مدح الرسول وذكر معجزاته : تدعى الشقراطسية . وقد نالت هذه القصيدة شهرة عظيمة في العالم الاسلامي ، وخاصة في المغرب . وتناولها العلماء والادباء بالشرح ، ونظموا على منوالها ، وحفظها الطلبة ودرسوها مدة قرون عديدة . ومطلعها :

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل

٩ ـ **ابن النحوي التوزري** : ابو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف (٤٣٤ ـ ٥١٣ هـ) . ولد بتوزر ، واتم دراسته في القيروان وفي مدن اخرى من المغرب . ثم استقر بقلعة بني حماد ، حيث توفي سنة ٥١٣ هـ . وقد كرس حياته لتدريس

علم الكلام والاصول . وله شعر يمتاز بالجزالة والخفة ، في الوصف والزهد ، منه قصيدته الشهيرة ، التي تسمى المنفرجة ، ومطلعها :

اشتدي أزمة تنفرجي — قد آذن ليلك بالبلج(٢١)

١٠ ـ **ابن حمديس الصقلي** السرقوسي (٤٤٦ ـ ٥٢٧ هـ) . ولد بسرقوسة ونشأ فيها ولما غزا النورمان صقلية حاربهم بسلاحه ولسانه ، ثم غادر الجزيرة سنة ٤٧١ ورحل الى افريقية ثم الى الاندلس ، والتحق ببلاط المعتمد بن عباد ، الى أن استولى يوسف بن تاشفين على اشبيلية . وعندئذ توجه ابن حمديس الى أغمات ، بالمغرب الاقصى ، حيث كان ابن عباد يقاسي آلام الاسر ، فرافقه مدة بها ، ثم اتصل بتميم بن المعز ، بالمهدية ، فمدحه ، وبالمنصور بن الناصر بن علناس ، ببجاية . وبقي يتردد بين هاتين العاصمتين وميورقة وعنابة ، ويمدح الامراء بها ، الى ان توفي سنة ٥٢٧ هـ ، في بجاية . ويعد ابن حمديس أكبر شاعر لصقلية الاسلامية ، الا انه لم يقض بالجزيرة الا أربعا وعشرين سنة ، بينما امتدت اقامته بافريقية الى مايزيد على نصف عمره . فكان معظم شعره يشمل مدح أمراء افريقية ، ووصف حياة البلاط بها . ويمتاز نظمه بصفاء القريحة وطول النفس ، وبراعة التصوير ، والحيوية الناتجة عن عمق الشعور وصدقه ، وخاصة عندما يتذكر موطنه وأقاربه ولذا ، فهو يحتل مكانة سامية في الشعر العربي(٢٢) . فمن نظمه ، قوله يستحث قومه على البقاء في صقلية والدفاع عن وطنهم ، ويعرب عن مرارة الاغتراب والهجرة الى بلد آخر :

ولله ارض ان عدمتم هواءها — فأهواؤكم في الارض منثورة النظم
وعزكم يفضي الى الذل والنوى — من البين ، ترمي الشمل منكم بماترمي
فان بلاد الناس ليست بلادكم — ولا جارها والخلم كالجار والخلم
أعن ارضكم يغنيكم ارض غيركم — وكم خالة جداء لم تغن عن أم
أخلّى الذي ودي بود وصلته — لدي كما نيط الولي الى الوسمي
تقيّد من القطر العزيز بموطن — ومت عند ربع من ربوعك او رسم
واياك يوما أن تجرب غربة — فلن يستجيز العقل تجربة السم

وقال ايضا يعرب عن حزنه وخيبة أمله في استرجاع الاراضي التي احتلها الغزاة بصقلية :

أعاذل دعني اطلق العبر التي — عدمت لها من أجمل الصبر حابسا

لقدّرت أرضي أن تعود لقومها فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها تكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت مساجدها أيدي النصارى كنائسا
اذا شاءت الرهبان بالضرب انطقت مع الصبح والامساء فيها النواقسا
صقلية كاد الزمان بلادها وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم اعين بالخوف أمست سواهرا وكانت بطيب الامن منهم نواعسا
أرى بلدي قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

١١ ــ **ابو جعفر بن عطية** القضاعي أحمد بن أبي أحمد (٥١٧ ــ ٥٥٣ هـ) . كان أبوه كاتبا لعلي بن يوسف بن تاشفين ، وقتل في استيلاء الموحدين على فاس اواخر سنة ٥٤٠هـ) . أما ابو جعفر هذا ، فانه ولد بمراكش ، ثم كان كاتبا تاشفين بن علي ، ثم لاسحاق ، ثم اعلن طاعته للموحدين ، والتحق بالشيخ ابي حفص عندما سار لاخضاع ثورة ماسة ، وكلفه بكتابة الرسالة الى الخليفة عبد المؤمن ، لاخباره بالنصر ، فأعجب عبد المؤمن بها ، واتخذ ابن عطية كاتبا ثم وزيرا . ثم نكبه سنة ٥٥٣ هـ ، فتوفي في السجن في شوال ٥٥٣ هـ . وكان أبو جعفر بن عطية من طبقة كبار الكتاب ، الذين اجاوا كتابة الرسائل الديوانية ، واتقنوا استعمال السجع والمحسنات البديعية فنالوا اعجاب معاصريهم .

١٢ ــ **ابو علي بن الاشيري** ، حسن بن عبد الله بن حسن (المتوفى بعد سنة ٥٦ هـ .) ولد ونشأ بتلمسان ، ورحل الى الاندلس قبل سنة ٥٤٠ هـ . ونبغ في علم القراءات واللغة والادب ، وكان ناظما ناثرا . ومدح يوسف بن عبد المؤمن فنال اعجاب الحاضرين . ولـه مختصر في التاريخ سماه نظم اللآلي في فتوح الامر العالي . ومن اشهر اشعاره قصيدة في غزوة السبطاط .

١٣ ــ **ابن حبوس الفاسي** ، محمد بن حسين بن عبد الله (٥٠٠ ــ ٥٧٠هـ). حظي عند علي بن يوسف ، أمير المرابطين ، ثم غضب عليه ، ففر الى الاندلس ، ومكث بها متسترا الى أن ظهرت دولة الموحدين . ولما قدم عبد المؤمن الى جبل الفتح ، كان ابن حبوس الفاسي من جملة الشعراء الذين انشدوه من شعرهم ، فنال اعجابه وحظي عنده وعند ابنه يوسف . واغلب شعر ابن حبوس في المدح ، وهو لا يخلو من جمال ، رغم ما يتخلله من غلو وتملق .

١٤ ــ **ابن محرز الوهراني** ، محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ .) ولد ونشأ بوهران ، في اخر عهد المرابطين ، وغادرها عندما استولى عليها الموحدون سنة ٥٣٩ هـ ، فرحل الى صقلية ، ثم الى الشام ، وسكن دمشق . ثم زار العراق ومصر ، وتوفى سنة ٥٧٥ هـ . وقد الف الوهراني المقامات ، سلك فيها مسلك ابي العلاء في رسالة الغفران ،وابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع ، فاجاد فن المقامة ، وامتاز انتاجه بخصائص قلما توجد في النثر العربي القديم ، ((من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب))(٢٣) . وللوهراني أيضا رسائل ، في نفس الاسلوب الفكاهي ، لا تخلو من قيمة ادبية وفنية .

١٥ ــ **ابن الفكون القسنطيني** ، حسن بن علي (توفي بعد سنة ٦٠٢ هـ .) .كان غزير النظم والنثر ، بارعا فيهما . رحل الى مراكش ، ومدح الخليفة الموحدي ، ونال جائزة سنية . وله رحلة كتبها حول سفره من قسنطينة الى مراكش . وهو من فحول شعراء المغرب . فمن قوله في القصيده التي نظمها حول رحلته الى مراكش ووجهها الى أبي البدر بن مردنيش :

الا قل للسري بن السري — أبي البدر الجواد الاريحي
أيا معنى السيادة والمعالي — ويا بحر الندى بدر الندي
أما وبحقك المبدي جلالا — وما قد حزت من حسب علي
وما بيني وبينك من ذمام — وما أوتيت من خلق رضي
لقد رمت العيون سهام غنج — وليس سوى فؤادي من رمي

وفيها يقول :

فها انا قد تخذت الغرب دارا — وادعي اليوم بالمراكشي
على أن اشتياقي نحو زيد — كشوقي نحو عمرو بالسوي
يقاسمني الهوى شرقا وغربا — فيا للمشرقي المغربي
فلي قلب بأرض الشرق عان — وجسم حل بالغرب القصي
فهذا بالغدو يهيم غربا — وذاك يهيم شرقا بالعشي
ولولا الله مت هوى وشوقا — وكم لله من لطف خفي

١٦ ــ **مالك بن المرحل السبتي** (٦٠٤ ــ ٦٩٩ هـ) . ولد بمالقة ، ثم انتقل الى سبتة ، فأقام فيها طويلا ، ثم رحل الى فاس ، وبها توفي سنة ٦٩٩هـ

درس العلوم الدينية واللسانية ، ونبغ فيها ، فكان يجيد الكتابة ، الا انه اشتهر بشعره الذي يشمل مدح امراء بني مرين ، كما يشمل نظما كثيرا في الزهديات والمولديات ، وقد الف كتبا عديدة في علوم مختلفة ، أغلبها منظومة . وله ديوان يسمى الجوالات (أي المختارات)، وكتاب الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخرى (وهي مجموعة امداح نبوية) ، والمعشرات النبوية ، والعشريات الزهدية ، الخ .. ويمتاز مالك بن المرحل بطـول النفس ، وسهولة النظم وخفته .

١٧ ـ ابن خميس التلمساني ، أبو عبد الله محمد بن عمر (٦٥٠ ـ ٧٠٨ هـ) . ولد بتلمسان ونشأ بها ودرس على علمائها ، ثم أشرف مدة على ديوان الانشاء ، أيام السلطان الزياني أبي سعيد الاول، ثم غادر تلمسان أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة، ثم رحل الى غرناطة ، في أواخر سنة ٧٠٣ هـ ، فأقام بها في خدمة الوزير ابن حكيم ،وتوفي بها سنة ٧٠٨ هـ . وابن خميس شاعر مطبوع ، فاق شعراء عصره . وقد اثنى عليه العبدري في رحلته ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد ، ووصفه هذا الاخير بأنه (شاعر المائة السابعة)(٢٤) . وقد تحدث في شعره عن اعتنائه بالفلسفة وميله الى التصوف ، فقال :

أنا من بقية معشر عركتهم … هذي النوى عرك الرحى بثفالها
اكرم بها فئة اريق نجيعها … بغيا فراق العين حسن مآلها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم … فان انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالها … احد ، وناء لها لبعد منالها
وعدت على سقراط سورة كانها … فهريق مافي الدن من جريالها
وسرت الى فاراب منها نفحة … قدسية جاءت بنخبة آلها
ليصوغ من ألحانه في حانها … ما سوغ القسيس من أرمالها
وتغلغلت في سهرورد فأسهرت … عينا يؤرقها طروق خيالها
فخبا شهاب الدين لما اشرقت … وخوى فلم يثبت لنور جلالها
ما جن مثل جنونه أحد ولا … سمحت يد بيضا بمثل نوالها
وبدت على الشوذي منها نشوة … ما لاح منها غير لمعة آلها
بطلت حقيقتها وحالت حاله … فيما يعبر عن حقيقة حالها
هذي صبابتهم ترق صبابة … فيروق شاربها صفاء زلالها

١٨ ـ أبو العباس العزفي (المتوفى في آخر سنة ٧٠٨) ، ينتمي الى اسرة العزفيين

التي حكمت سبتة منذ سنة ٦٤٧ هـ الى سنة ٧٠٥ هـ ،حيث استولى عليها محمد الثالث بن الاحمر ملك غرناطة ، فنشأ أبو العباس العزفي في بيت امارة ، ونبغ في الادب ، ونظم الشعر . ولما نقل ، مع اسرته ، الى غرناطة ، استعطف ابن الاحمر بقصيدة بديعة مدحه فيها ، فنال اعجابه ، وبقي في بلاط غرناطة الى خلع السلطان ، فأصيب أبو العباس بجراح بالغة مات بعدها بقليل ، في سنة ٧٠٨ هـ . وشعر أبي العباس العزفي من اعلى طراز ، متقن الفن ، جميل السبك ، حسن التصوير . زاخر المعاني الدقيقة ، والاخيلة المستحسنة . وقد طرق اغراضا شتى ، وخاصة المدح والغزل والخمريات .

* * *

وفيما يخص العلوم الاجتماعية ، أي الفلسفة والاخلاق والتاريخ والجغرافيا ، فقد عرف بعضها تطورا نسبيا، نظرا لظروف خاصة ، بينما حظي البعض الاخر باهتمام كبيـــر .

اما الفلسفة ، فلم تحظ بأي تشجيع من طرف الحكام ، بل واجهت مقاومة شديدة من الفقهاء ورجال الدين . فلم يشتغل بالفلسفة الا القليل من العلماء . واما التصوف ، فانه تعرض أيضا ، في القرون الاولى ، لنوع من الازدراء والحذر من طرف الفقهاء ، لما كان يحمل في طياته من افكار لاتتفق مع عقيدة اهل السنة ، الا أن الاتجاه نحو الاعتدال ، الذي أحدثته كتب الغزالي ، عند الصوفية ، وكذلك عند أهل السنة ، ابتداء من القرن السادس هـ ، قد سمح بالوصول الى تعايش بين الفريقين ، ممـا أدى الى انتشار التصوف في سائر الانحاء .

ولاشك أن هذه الاوضاع جعلت الحضارة الاسلامية ، سواء في المشرق او في المغرب ، تحافظ ، في تطورها ، على اهمية طابعها الديني ، وعلى مقوماتهاالدينية ، كما انها جعلت الفلسفة والعلوم المتصلة بها منحصرة في أوساط محدودة جدا .

هذا وقد عرف التاريخ ازدهارا كبيرا ،وكذلك الجغرافية والرحلات ، لمـا لذلك من اتصال وثيق بالحياة الاقتصادية والثقافية وقد خطا ابن خلدون بهـذه العلوم خطى حاسمة ، فجدد التفكير فيعلم التاريخ ومنهجيته ، ووضع اسس علم الاجتماع . ورغم ضياع كثير من المؤلفات التاريخية والجغرافية ، فان ما وصل الينا من انتاج علماء المغرب الاسلامي يمثل تراثا حافلا يحق بنا ان نفخر به ، ويجب علينا او نوليه كل عنايتنا . ومن اشهر العلماء المغاربة في مجال العلوم الاجتماعية :

١ ــ **الوراق القيرواني** ، ابو عبد الله محمد بن يوسف (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ) . صاحب كتاب في مسالك افريقية وممالكها ، يعد اهم مصدر اعتمد عليه البكري وقد ضاع مثلما ضاعت تآليف أخرى له أيضا .

٢ ــ **الرقيق القيرواني** ، ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم (المتوفى بعد سنة ٤١٨ هـ) هو مؤلف كتاب تاريخ افريقية والمغرب . وقد ضاع ايضا هذا المصدر الهام لتاريخ بلاد شمال افريقية ، غير ان كثيرا من المؤرخين اعتمدوا عليه ورووا بعض اخباره ، مثل ابن عذاري وابن خلدون والنويري وغيرهم .

٣ ــ **ابن باجه** ، ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) ولد بسر قسطة ، ولما استولى عليها النصارى (سنة ٥١٢ هـ) رحل الى اشبيلية ، واشتغل بالطب ، ثم استقر بغرناطة مدة ، ثم توجه الى فاس ، حيث حظي برعاية الامير المرابطي أبي بكر يحيى بن تاشفين . ونبغ في الفلسفة وفي علوم عديدة كالطب والهندسة والموسيقى والفلك (ونقد نظام بطليموس الفلكي) . ومن مؤلفاته : رسالة الوداع ، وكتاب تدبير المتوحد ، في الفلسفة . هذا وقد أثر ابن باجه تأثيرا كبيرا في نظريات كثير من الفلاسفة المسلمين (وخاصة ابن طفيل وابن رشد) والمسيحيين (مثل البرت الكبير) . وعرفه الاوربيون باسم Avempace . وتوفي سنة ٥٣٣ هـ بفاس ، قيل انه مات مسموما بتدبير من بعض الفقهاء .

٤ ــ **البيذق** ، ابو بكر بن على الصنهاجي (المتوفى بعد ٥٥٠ هـ.) رافق ابن تومرت اثناء عودته من المشرق ، والف كتابا وصف فيه هذه الرحلة ، وضمنه بعض اخبار المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن . وهذا الكتاب اقدم مصدر وصل الينا في تاريخ دولة الموحدين (٢٥) .

٥ ــ **الشريف الادريسي** ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس (٤٩٣ ــ ٥٦٠ هـ) ولد بسبتة ونشأ فيها ، ودرس في قرطبة . وفي سنة ٥١٠ هـ رحل الى المشرق ، فتجول في اقطاره ، ثم عاد الى المغرب . ثم رحل الى صقلية حوالي سنة ٥٣٠ هـ ، ومدح روجار الثاني ، واقام مدة طويلة في بلاطه ، اشتغل اثناءها بتاليف كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الافاق . ويعد الادريسي اكبر جغرافي في المغرب الاسلامي (٢٦) .

٦ ــ **ابن ظفر الصقلي** ، محمد بن عبد الله بن محمد ((٤٩٧ ــ ٥٦٥ هـ) . ولد بصقلية ، ونشأ بمكة ، ورحل منها صغيرا الى مصر لطلب العلم . ثم توجه الى

افريقية ، فأخذ عن علمائها ، واقام بها الى ان استولى النورمان على المهدية ، سنة ٥٤٣ هـ وهو فيها . فانتقل الى صقلية ، وفيها الف كتابه الشهير سلوان المطاع ، سنة ٥٥٤هـ . ثم غادر صقلية ، ورحل الى مصر ، ثم الى الشام ،حيث توفي سنة ٥٦٥ هـ بحماة . وكتاب سلوان المطاع من كتب اخلاق الملوك،وقد تناول ابن ظفر هذا الموضوع في قالب رمزي ، محتذيا في ذلك كتاب كليلة ودمنة، ومستعينا بالقصص ، وخاصة قصص الحيوانات ، ومؤيدا ذلك بنصوص من القرآن والحديث واقوال الصحابة والحكماء العرب والعجم ، وغير ذلك . وقد بلغت شهرة هذا الكتاب مبلغا عظيما في القرن السابع وبعده في الشام وغيرها من الاقطار العربية .

٧ـ **ابوبكر بن طفيل** ، محمد بن عبد الملك بن محمد (المتوفي سنة ٥٨١هـ)ولد حوالي سنة ٥٠٦ هـ في وادي آش بالاندلس ، ونبغ في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والادب . وشغل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة . وفي سنة ٥٤٥ هـ عين كاتبا لحاكم سبتة وطنجة ، وهو احد ابناء عبد المؤمن ، وبعد وفاة عبد المؤمن ، سنة ٥٥٨ ، ذاع صيت ابن طفيل ، فعينه يوسف بن عبد المؤمن طبيبا له ، وكاتبا ، ومكث في منصبه هذا الى سنة ٥٧٨ هـ ، حيث انقطع للعبادة وزهد في الدنيا . وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ .

ومن مؤلفاته كتاب في الطب ، وشرح كتاب لارسطو . غير ان اهم تصانيفه قصة حي بن يقظان ، وقد ضمنها اراءه الفلسفية في قالب رمزي ، وتعد هذه القصة من روائع الفكر العربي (٢٧).

٨ ـ **ابو مدين شعيب** بن الحسين الانصاري (المتوفى سنة ٥٩٤ هـ) ، الولي الصالح المشهور . ولد في قرية تدعى قطنيانة ، قرب اشبيلية ، ورحل الى المغرب ، فأخذ بفاس عن بعض العلماء والصلحاء ، مثل ابن حرزهم وابي يعزى وغيرهما ، ثم رحل الى بلاد افريقية ، واستقر ببجاية مدة طويلة ، فتخرج عليه كثير من الطلبة ، وفي سنة ٥٩٤هـ ، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور الى مراكش ، فتوجه اليها . ولكنه مرض في طريقه ، وتوفي ودفن بقرية العباد ، خارج تلمسان . ولأبي مدين شعيب مكانة سامية في التصوف المغربي ، يشهد عليها العديد من الطرق الصوفية التي تنتسب اليه والى ارائه . وينسب اليه ديوان في الزهديات ، وحكم في التصوف(٢٨) .

٩ ـ **ابو الوليد بن رشد** ، محمد بن احمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) . ولد بقرطبة ، في اسرة علمية مشهورة ، كان يشغل افرادها منصب القضاء . ونبغ ابو

الوليد في العلوم الدينية والطب والفلسفة . ووفد على يوسف بن عبد المؤمن ، فقدمه ابن طفيل للخليفة الوحدي ، الذي اعجب به ، وعينه قاضيا باشبيلية ، سنة ٥٦٥هـ، ثم قاضيا بقرطبة . وفي سنة ٥٧٨هـ ، استدعاه يوسف بن عبد المؤمن الى مراكش ليحل محل ابن طفيل ، فحظي عنده ، ثم عند خلفه يعقوب المنصور . ولكنه نكب في آخر حياته ، ونفي الى بلدة قرب قرطبة ، ثم عاد الى حظوته سنة ٥٩٥ هـ ، وقدم الى مراكش باستدعاء من المنصور ، ولكنه مرض بها وتوفي في صفر ٥٩٥ هـ ، ودفن بقرطبة . وابن رشد أشهر فلاسفة العرب على الاطلاق . وقد اخترقت شهرته الآفاق ، وانتشرت آراؤه في العالم المسيحي ، فكان لها أثر كبير في النهضة الاوربية . ومن اشهر تآليفه كتاب الكليات في الطب ، وشروح على كتب ارسطو ، وكتاب مناهج الادلة في عقائد الملة ، وكتاب فصل المقال ، وتهافت التهافت ،الخ..(٢٩).

١٠ - **ابن جبير الكناني** الاندلسي ، ابو الحسن محمد بن احمد (٥٤٠ - ٦١٤هـ). ولد ببلنسية ، في الاندلس ، ودرس العلوم الدينية واللسانية ، ونبغ في الادب والشعر ، فعينه سعيد بن عبد المؤمن ، حاكم غرناطة ، كاتبا له . وفي سنة ٥٧٨ هـ ، رحل ابن جبير الى مصر ، ثم الى الحجاز ، فادى فريضة الحج ، ثم قصد الى العراق فالشام ، ثم عاد الى موطنه عبر البحر ، مجتازا بصقلية ، وذلك سنة ٥٨١ هـ . وقد الف ابن جبير رحلته الشهيرة ، تحدث فيها عما شاهده اثناء سفره هذا ثم قام برحلة ثانية ، من سنة ٥٨٥ الى سنة ٥٨٧ هـ ، ورحلة ثالثة ، سنة ٦١٤ هـ ، الى الحجاز ، ثم الى مصر ، وتوفي في هذه الاثناء بالاسكندرية ، وقد لقيت رحلة ابن جبير رواجا عظيما لدى القراء لما تمتاز به من سهولة في التعبير ، ودقة في الوصف ، وصراحة في الاخبار(٣٠).

١١ - **محيي الدين بن العربي** ، محمد بن علي بن محمد الحاتمي (٥٦٠-٦٣٨هـ). ولد بمرسية ، في الاندلس ، ونشأ باشبيلية ، فأخذ عن بعض علمائها ، ثم غادرها سنة ٥٩٨ هـ ، ورحل الى المشرق ، فزار مختلف اقطاره ، وتوفي سنة ٦٣٨ هـ بدمشق . ومحيي الدين بن العربي من اشهر علماء التصوف . وله تآليف عديدة ، اشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم (٣١) .

١٢ - **ابن الابار القضاعي** ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) ، ولد ببلنسية ، واخذ بها عن اشهر علمائها ، ثم عين في وظيفة كاتب لاحد افراد اسرة بني مردنيش ، المسيطر آنذاك على الحكم في بلنسية . وفي سنة ٦٣٦ هـ ، استولى النصارى على هذه المدينة ، فغادرها معظم اهاليها المسلمين ، من بينهم ابن الابار ، الذي توجه الى افريقية ، ومكث فيها الى وفاته سنة٦٥٨هـ.

وكان محدثا واديبا ومؤرخا . ومن اهم تآليفه كتاب التكملة ، والمعجم في اصحا
ابي علي الصدفي ، والحلة السيراء ، وكلها في التراجم .

١٣ ـ ابو العباس الغبريني ، احمد بن احمد بن عبد الله بن محم
(٦٤٤ ـ ٧٠٤ هـ). اخذ العلم ببجاية ، ثم بتونس ، وعين قاضيا في مدن عديد
ثم في بجاية . وارسله الامير الحفصي ابو البقاء في سفارة الى السلطان الحفص
بتونس ، فلما عاد من سفارته امر ابو البقاء بالقبض عليه ، بايعاز من بعض الوشاة
والقي في السجن ، ثم قتل سنة ٧٠٤هـ . وللغبريني كتاب عنوان الدراية فيمن عر
من علماء المائة السابعة في بجاية ، ضمنه تراجم علماء بجاية فهو مصدر هام لتار
الحياة الفكرية في الشرق الجزائري ، في القرن السابع الهجري .

١٤ ـ ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله محمد (المتوفى بعد سنة ٧٠٦ هـ)
ولد وعاش بمراكش . والف كتابا في تاريخ المغرب يدعى البيان المغرب في اخب
المغرب ، اعتمد فيه على مصدر هامة ، ضاع بعضها ، وقد استفاد من تاليفه هـ
كثير من المؤرخين الذين عاشوا بعده ، ومن بينهم عبد الرحمن بن خلدون .

١٥ ـ ابن رشيد السبتي ، ابو عبد الله محمد بن عمر (٦٥٧ ـ ٧٢١هـ)
ولد بسبتة ، ودرس بها وبالاندلس . وفي سنة ٦٨٣ ، رحل الى افريقية والمشرق
وكان رجوعه الى سبتة سنة ٦٨٦هـ . ونبغ في الحديث والفقه والاصول والادب
ثم انتقل الى غرناطة بدعوة من صديقه الوزير ابن الحكيم ، فمكث فيها مكرما الى ا
قتل الوزير ، فغادر الاندلس ، والتحق ببلاط بني مرين بفاس ، وتوفي في هـذه المدين
في محرم سنة ٧٢١ هـ . ولابن رشيد مصنفات عديدة وهامة ، منها رحلته ملء العيب
فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة . وتشمل هذه الرحل
معلومات قيمة في شتى المجالات والعلوم ، وفوائد عظيمة ، مما يجعلها من اهم الرحلات
عند العرب (٣٢).

١٦ ـ ابن ابي زرع الفاسي (المتوفى بعد سنة ٧٢٦ هـ) . هـو مؤلف كتاب
الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، وهو م
اهم المؤلفات في تاريخ المغرب الاقصى ، لما جمعه من اخبار عديدة ، اخذها عن مصادر
ضاع الكثير منها .

١٤ ـ لسان الدين بن الخطيب السلماني (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) . ولد سن
٧١٣ هـ ، بلوشة ، قرب غرناطة ، ونشأ في غرناطة ودرس بها على اكبر علمائها . و

توفي ابوه قتيلا في معركة طريف (سنة ٧٤١ هـ) ، عين مكان ابيه كاتبا في ديوان الانشاء ، تحت اشراف الوزير ابن الجياب ، ثم توفي ابن الجياب سنة ٧٤٩ هـ ، فعين لسان الدين مكانه ، وتقلد ديوان الانشاء ، وفي سنة ٧٥٥ هـ ، توفي السلطان ابو الحجاج يوسف ابن احمر ، وخلفه ابنه الغني بالله . وكانت بينه وبين لسان الدين صداقة ومودة ، فاعلى منزلته ، وارسله سفيراً الى المغرب الاقصى ،يستنجد بابي عنان المريني ، واسند اليه الكتابة والوزارة ، وسماه ذا الوزارتين . ولما خلع الغني بالله ، والتجأ الى المغرب الاقصى ، في محرم ٧٦١ هـ ، صحبه لسان الدين ، وكثر اتصال ادباء وفقهاء المغرب بهذا الاخير ، ومكث لسان الدين بالمغرب الى جمادي الثانية ٧٦٣هـ ، حيث عاد الى غرناطة بعد أن استرجع الغني بالله عرشه . وبقي لسان الدين في الوزارة الى ان ساءت الاحوال بينه وبين السلطان ، بسعاية ابن زمرك وغيره. فالتجأ لسان الدين الى المغرب الاقصى ، في اخر ٧٧٢ هـ ، واستقر به الى ان توفي في اوائل ٧٧٦ هـ . وقد ترك ابن الخطيب مؤلفات عديدة ، تشهد على براعته في الرسائل والشعر ، وتضلعه في التاريخ والادب وغير ذلك من العلوم ، ومن اشهرها الاحاطة في اخبار غرناطة ، واعمال الاعلام ، واللمحة البدرية ، ونفاظة الجراب ، وكناسة الدكان ، وريحانة الكتاب . الخ...

١٨ — **ابن بطوطة الطنجي** (٧٠٣ — ٧٧٧هـ) . ولد بطنجة ، وبدا اولى رحلاته سنة ٧٢٥ هـ ، حيث رحل الى مصر ثم الى الشام والحجاز وسائر بلاد المشرق الادنى والهند والصين ، ثم عاد الى موطنه مارا بالحجاز ومصر وشمال افريقية (سنة ٧٥٠ هـ). ثم قام برحلة ثانية الى اندلس ، وثالثة الى السودان (خلال الفترة ما بين ٧٥٣ و ٧٥٥ هـ) . ثم عاد الى فاس ، حيث قضى آخر ايامه . وفد عند وصوله الى فاس على السلطان ابي عنان المريني ، الذي اعجب بحديثه عن عجائب اسفاره ، فأمر كاتبه ابن جزي بكتابة اخبار ابن بطوطة ، وسميت الرحلة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار . وقد جاءت هذه الرحلة في اسلوب شيق . ثم انها تتضمن اخبارا عن احوال البلاد التي زارها ابن بطوطة وحياتهم الدينية وعاداتهم وغير ذلك . ويعد ابن بطوطة اعظم رحالة عربي (٣٣).

١٩ — **يحيى بن خلدون** (المتوفى سنة ٧٨٠ هـ) . وهو اخو المؤرخ الشهير . ولد بتونس سنة ٧٣٤ هـ ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها . ثم التحق ببلاط السلطان ابي عنان بفاس ، وفي آخر ٧٦١ هـ ، رافق الامير الحفصي أبا عبد الله ، الذي غادر مدينة فاس ، متوجها نحو بجاية قصد استرجاع امارتها ، فلن يحقق رغبته الا في ٧٦٥ هـ ، وعين يحيى بن خلدون في منصب الحجابة . وفي سنة ٧٦٦ هـ ، اسندت

الحجابة لعبد الرحمن بن خلدون ، الذي قدم آنذاك من الاندلس ، ومكث اخوه يحيى ببجاية ، الى ان استولى عليها الامير ابو العباس الحفصي ، سنة ٧٦٧ هـ . واستقر الاخوان بعد ذلك عند ابن مزني ، في ناحية بسكرة ، وفي رجب ٧٦٩هـ ، التحق يحيى بن خلدون ببلاد ابي حمو الثاني الزياني ، بتلمسان ، حيث عين كاتبا للسلطان . وشغل ذلك المنصب الى سنة ٧٧٢ هـ ، ثم من ٧٧٦ الى رمضان ٧٨٠ هـ ، حيث توفي قتيلا ، وهو يزال في بداية كهولته . وكان قد الف كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ضمنه تاريخ الدولة الزيانية من تأسيسها الى ذلك العهد ، ويحيى بن خلدون من طبقة الكتاب المبرزين ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة . واسلوب يزخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف ، مما كان يعجب به ادباء عصره ، بالاضافة الى نبوغه في الشعر ، واهتمامه بالتاريخ(٣٤) .

٢٠ ـ **ابن مرزوق الخطيب** ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد (٧١٠ ـ ٧٨١) . ولد بتلمسان ونشأ بها، ورحل الى المشرق سنة ٧١٨ هـ ، فاخذ على كثير من العلماء ، ثم عاد الى موطنه سنة ٧٣٣ هـ ، فوجد السلطان ابا الحسن المريني محاصرا تلمسان فالحق ببلاطه ، وحظي عنده ، وصحبه في سائر تنقلاته . وفي سنة ٧٥٢ هـ ، اجاز الى الاندلس ، واسندت اليه الخطابة في جامع الحمراء بغرناطة الى سنة ٧٥٤هـ ، ثم عاد الى موطنه ، واتصل بالسلطان ابي عنان المريني ، ومكث في بلاطه. وفي أيام ابي سالم المريني ، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب ، واصبح زمام الامر ، في الدولة المرينية ، بيده ، مما احقد عليه كثيرا من رجالة الدولة . ولما ثار الوزير عمر بن عبد الله ضد ابي سالم ، واطاح بملكه وقتله ، امر بسجن ابن مرزوق ، اخر سنة ٧٦٢ هـ ، وسعى حساده من كبار الدولة في قتله ، فلم يسعفهم عمر بن عبد الله في ذلك ، واطلق سراحه ، وبعد ذلك ، توجه ابن مرزوق الى تونس ، واستقر بها سنة ٧٦٦ هـ ، فولاه السلطان أبو اسحاق الحفصي الخطابة بجامع الموحدين ، والتدريس ببعض المدارس ، واقام هناك الى عهد ابي العباس الحفصي (سنة ٧٧٢ هـ) ، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها الى اقبال هذا الاخير ، في عهد ابي سالم ، على منافسه ابي عبد الله الحفصي ، وتفضيله عليه ، فاقصاه عن بلاطه ، وسمح له بالرحلة الى المشرق . فحل بالاسكندرية ، ثم القاهرة ، واتصل بالسلطان الاشرف ، فاكرم مثواه والحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، واقام ابن مرزوق بالقاهرة الى ان توفي بها في ربيع الاول سنة٧٨١هـ. واشتهر من مؤلفاته كتاب المسند الصحيح الحسن في اخبار مولى ابي الحسن ، الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة ابي الحسن المريني ، وانجازاته العمرانية ، وتشجيعه العلماء والادباء وغير ذلك . وله ايضا شرح البردة ، وشرح على الاحكام

الصغرى لعبد الحق الاشبيلي وشرح على ابن الحاجب الفرعي ، عنوانه ازالة الحاجب على فروع ابن الحاجب ، وشرح على عمدة الاحكام . الخ(٣٥) .

٢١ – **ابو حمو موسى العبد الوادي** (المتوفى سنة ٧٩١ هـ) . هو السلطان الزياني ابو حمو موسى الثاني ، الذي احيا الدولة الزيانية واعاد لها رونقها ومجدها ، وكان بلاطه ملتقى العلماء والادباء ، وقد الف ابو حمو الثاني كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك وهو تأليف هام في اخلاق الملوك ، ضمنه نظريته في الحكم و السياسة، معتمدا على ما الفه العلماء السابقون في هذا الموضوع ، وعلى تجربته الخاصة(٣٦) .

٢٢ – **عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ) . ولد ونشأ بتونس ، ودرس على اشهر علماء المغرب في ذلك العصر ، وجال في مختلف اقطار المغرب والاندلس ، متصلا بملوكها ، وراغبا في الحصول على المناصب العليا . ثم عاد الى الاشتغال بالعلم والتدريس والتأليف ، ورحل الى المشرق سنة ٧٨٤ ، ومارس التعليم والقضاء بالقاهرة ، الى ان توفي بها سنة ٨٠٨هـ . وعبد الرحمن بن خلدون غني عن التعريف . فهو باعث المنهج العلمي لدراسة التاريخ وواضع اسس علم الاجتماع . وتآليفه ، كتاب العبر ، اشهر كتاب تاريخي عند العرب ، وخصوصا الجزء الاول منه ، الذي يدعى المقدمة (٣٧) .

٢٣ – **ابن قنفذ القسنطيني** ، ابو العباس احمد بن حسن بن علي (المتوفى سنة ٨١٠هـ) . ولد بقسنطينة حوالي سنة ٧٤٠ هـ . ونشأ بها ، وفي سنة ٧٥٦ هـ ، رحل الى فاس ، واخذ بها عن علماء جلة ، امثال القباب ، والشريف التلمساني ، وابن مرزوق الخطيب، وعين في القضاء سنة ٧٦٩ هـ، ثم عاد الى مسقط راسه سنة ٧٨٦هـ ، فتولى منصب القضاء ، ومارس التدريس والتأليف والافتاء والخطابة ، وتوفي بقسنطينة سنة ٨١٠هـ، وكان ابن قنفذ بارعا في علوم شتى ، من حديث وفقه وحساب وفلك وتاريخ وغير ذلك ، وقد الف كتبا قيمة ، اشهرها : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، وطبقات علماء قسنطينة ، وانس الفقير وعز الحقير (في اخبار الولي الصالح ابن مدين شعيب واصحابه) ، وكتاب الوفيات ، ووسيلة الاسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام (مختصر لسيرة الرسول) ، والمسافة السنية في الرحلة العبدرية (وهو مختصر لرحلة العبدري) ، وشرف الطالب في انس المطالب (في الحديث) وشرح التلمسانية (في الفرائض) ، وتسهيل المطالب في تعديل الكواكب (في الفلك)، الخ ..(٣٨) .

٢٤ – **الهواري** ، ابو عبد الله محمد بن عمر (٧٥١ – ٨٤٣ هـ) . الولي الصالح

الشهير ، اخذ عن علماء بجاية وفاس ، ثم رحل الى المشرق ، فلقي كثيرا من العلماء والصلحاء ، وعاد الى موطنه ، واستقر بوهران ، الى ان توفي بها سنة ٨٤٣ هـ . ومن تآليفه : التسهيل ، وتبصرة السائل ، والتبيان ، والسهو والتنبيه .

٢٥ ـ **احمد زروق البرنسي الفاسي** ، ابو العباس بن احمد بن عيسى (٨٤٦ ـ ٨٩٩ هـ) ، الولي الصالح . اخذ العلم بفاس وتلمسان ، ثم اتصل بعدد كبير من العلماء والصلحاء في المغرب والمشرق . وكان له ميل الى التصوف ، فاشتغل به والف كتبا عديدة ، منها شرح حكم ابن عطاءالله ، وشرح العقيدة القدسية للغزالي ، والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية ، ومختصره ، وشرح الحقائق للمقري ، وشرح حزب البحر ، وشرح الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي ، وشرح الارشاد لابن عسكر ، وشرح الوغليسية ، وشرح القرطبية ، وشرح مختصر خليل الخ ..(٣٩).

٢٦ ـ **الحافظ التنسي** ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (المتوفى سنة ٨٩٩ هـ) . ولد ونشأ بتلمسان ودرس على علمائها ، وعني بالفقه والحديث والتاريخ والادب . وله كتاب نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان جمع فيه اخبار بني زيان ، واضاف اليه نصوصا مختارة في السياسة والادب والحكم والاخلاق(٤٠).

٢٦ ـ **ابن صعد التلمساني** ، محمد بن احمد بن ابي الفضل بن سعيد (المتوفى سنة ٩٠١هـ) . ولد ونشأ بتلمسان ، واخذ عن اشهر علمائها . وتوفي بمصر في رجب ٩٠١ هـ ، والف كتاب النجم الثاقب فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب ، جمع فيه اخبار الصوفية من مشارقة ومغاربة .

٢٨ ـ **ابن غازي المكناسي** ، ابو عبد الله محمد بن احمد (٨٤١ ـ ٩١٩ هـ). ولد ونشأ بمكناسة ، ثم رحل الى فاس لطلب العلم ، سنة ٨٥٨ هـ ، ثم عاد الى مسقط راسه . وفي سنة ٨٩١ هـ ، غادر مكناسة واستقر بفاس ، حيث ولي الخطابة والامامة ، الى ان توفي سنة ٩١٩هـ . وكان ابن غازي عالما بارعا في الفقه والحديث والادب والتاريخ ، وله تآليف عديدة ، منها الروض الهتون في اخبار مكناسة الزيتون (وهو اهم تصانيفه) ، والفهرسة ، والمسائل الحسان المرفوعة الى حبر فاس والجزائر وتلمسان ، وارشاد اللبيب الى مقاصد حديث الحبيب ، ومنية الحساب في علم الحساب ، والجامع المستوفي بجداول الحوفي ، الخ ..(٤١)

٢٩ ـ **ابو العباس المقري** ، احمد بن محمد (٩٨٦ ـ ١٠٤١هـ). ولد بتلمسان

ونشأ بها . وفي سنة ١٠٠٩ هـ ، رحل الى فاس ، ثم الى مراكش ، وعاد الى تلمسان في آخر سنة ١٠١٠ هـ . ثم غادرها في أوائل سنة ١٠١٣ هـ ، متوجها الى فاس ، واستقر بها وفي سنة ١٠٢٢ هـ عين في الخطابة والافتاء والامامة بجامع القرويين . وفي أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ، غادر مدينة فاس ، قاصدا المشرق ، فزار مصر والحجاز والشام ، وقضى ما بقي من حياته في هذه الاقطار ، وتوفي سنة ١٠٤١ بدمشق ، وقيل بالقاهرة ، وقد الف المقري كتبا قيمة ، تنبىء عن غزارة علمه وسعة ثقافته ، واشهرها كتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وكتاب ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، وله ايضا : روض الاس العاطر الانفاس في ذكر من القيته من أعلام مراكش وفاس ، وانوار نيسان في انباء تلمسان ، والجمان في مختصر أخبار الزمان ، والدر المختار من نوادر الاخبار ، وعرف النشق في اخبار دمشق ، وغيرها . وكتب المقري مما لايستغنى عنه في البحث عن تطور الفكر الاسلامي في المغرب العربي(٤٢) .

* * *

وأما العلوم الطبيعية والكونية ، فلم يكن حظها بالمغرب اقل من حظ غيرها من العلوم . فقد اشتغل علماء المغرب بالكيمياء والطب والفلك والرياضيات، وبرعوا فيها، والفوا فيها كتبا قيمة ، كان لها رواج كبير في سائر الانحاء ، وخصوصا في اوربة ،بعد ان ترجم الكثيرمنهاالى اللاتينية والعبرية وغيرهما من اللغات . فقد نبغ علماء مغاربة في هذه العلوم ، وساهموا في تطويرها مساهمة كبرى ، وابدعوا في مجالات عديدة ، مثل علم النباتات والفلاحة ، والمعادن ، والكيمياء ، والطب ، والفلك وغير ذلك . ومن اشهر العلماء في هذه العلوم :

١ ــ **ابن الجزار** ، ابو جعفر احمد بن ابراهيم (المتوفي سنة ٣٦٩ هـ) . ولد بالقيروان حوالي سنة ٢٨٥ ، واخذ عن اسحاق بن سليمان الاسرائيلي ، الطبيب ، وغيره ، وبرع في الطب والفلسفة ، وعني كذلك بالتاريخ . ولم يغادر بلاد افريقية ، بل بقي يمارس الطب والتدريس والتأليف ، حتى وافته المنية سنة ٣٦٩ هـ ، بالقيروان. وقد ترك ابن الجزار مصنفات عديدة في علوم مختلفة ، أهمها : زاد المسافر وقوت الحاضر ، في علاج الامراض ، ترجم الى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وكانت له شهرة كبرى في العصر الوسيط بالمغرب وأوربة . وله أيضا كتاب الاعتماد (وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وطب الفقراء والمساكين (ترجم الى العبرية) ، وطب المشايخ، وسياسة الصبيان وتدبيرهم . وكتاب التعريف بصحيح التاريخ (فيه اخبار علماء

زمانه) ، وتاريخ الدولة الفاطمية ، ومغازي افريقية ، وطبقات القضاة ، وعجائب البلدان ، وكتاب الاحجار الكريمة ومعادنها ومنافعها وخواصها ، .. الخ (٤٣) .

٢ ــ **ابن جلجل** ، ابو داود سليمان بن حسان (المتوفى بعد سنة ٣٧٢ هـ .).عاش في قرطبة ، وكان طبيبا للخليفة الاندلسي هشام الثاني المؤيد بالله (٣٦٦-٣٩٩ هـ). وقد ألف كتاب، طبقات الاطباء والفلاسفة . وله ايضا : كتاب الحشائش ، وكتاب في ادوية الترياق ، وكتاب امتزاج النفوس .

٣ ــ **أعين بن اعين** (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) . كان يحترف الطب بالقيروان ، وخاصة طب العيون ، في عهد المعز الفاطمي (٣٤١ ــ ٣٦٥هـ) ، وانتقل معه الى مصر واستقر بها الى أن توفي سنة ٣٨٥ ، وله كتاب امراض العين ومداواتها .

٤ ــ **ابو القاسم الزهراوي** ، خلف بن عباس القرطبي (المتوفى سنة ٤٠٤ هـ .) عاش في قرطبة ، وكان ماهرا في الطب والجراحة ، وله كتاب . يعد موسوعة طبية ، يدعى كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف . وقد نال هذا الكتاب ، وخصوصا القسم الخاص بالجراحة منه ، شهرة واسعة في أوربة المسيحية . بعد أن ترجم الى اللاتينية . كما اشتهر ابو القاسم الزهراوي عندهم باسم Abulcassis ويعتبر هذا العالم اشهر الجراحين العرب .

٥ ــ **ابن ابي الرجال** ، ابو الحسن علي الشيباني الكاتب القيرواني (المتوفى سنة ٤٢٦ هـ .) . اصله من تاهرت ، ونشأ بالقيروان ، ونبغ في علم الفلك وفي الادب . وفي سنة ٣٧٨هـ ، توجه الى بغداد ، وشارك في الارصاد الفلكية التي قام بها ابو سهل ويجان بن رستم الكوهي بأمر من شرف الدولة البويهي ، وعينه باديس الزيري رئيس ديوان الانشاء ، ومؤدب ولده المعز ، فنشطت الحركة الادبية لما اسداه ابن ابي الرجال من تشجيع للشعراء والكتاب ، أمثال ابن رشيق وابن شرف وغيرهما . ولما آلت الامارة للمعز بن باديس ، عينه وزيرا له ، وتوفي ابن ابي الرجال بالقيروان سنة ٤٢٦ هـ . واشتهر بتصانيفه في الفلك ، التي خلدت ذكره في العالم الاسلامي وفي اوربة المسيحية ، حيث عرف باسم Abenragel او Albohazen . واهمها كتاب البارع في أحكام النجوم ، الذي ترجم الى اللاتينية ، وطبع مرارا في اوربة . وله ايضا ارجوزة في التنجيم ، شرحها ابن قنفذ القسنطيني (٤٤).

٦ ــ **ابن عمرون الوهراني** ، ابو محمد عبد الله بن يوسف بن طلحة (المتوفى بعد سنة (٤٢٩ هـ .). أصله من وهران . ونبغ في علوم الحديث والفقه والطب

والحساب ، ورحل الى الاندلس سنة ٤٢٩ هـ ، فاستقر باشبيلية ، واشتغل بالطب والتدريس .

٧ ـ **ابو الصلت امية** بن عبد العزيز بن ابي الصلت الاندلسي (المتوفى سنة ٥٢٩ هـ) . ولد في دانية بالاندلس ، حوالي سنة ٤٦٩ هـ ، ونشأ باشبيلية ثم غادر جزيرة الاندلس متوجها الى المهدية ، حيث التحق ببلاط بني زيري ، وبعث برسالة الى مصر ، فسجن في القاهرة ، في خزانة البنود ، وكانت تحتوي على كتب عديدة ، فمكث هناك عشرين سنة ، قضاها في المطالعة والدرس . وغادر مصر سنة ٥٠٦ هـ ، عائدا الى المهدية ، فذاع صيته ، واشتغل بالطب والفلك والرياضيات ، ونبه ذكره في الفلسفة والادب ، والف كتبا قيمة في مجالات عديدة ، وتوفي بالمهدية سنة ٥٢٩ هـ ومن تصانيفه : كتاب الادوية المفردة ، وكتاب في الصيدلة (ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وكتاب تقويم الذهن (في المنطق) ، وكتاب الحديقة (في فضلاء عصره) ، والرسالة المصرية ، ورسالة في العمل بالاسطرلاب ، الخ(٤٥) .

٨ ـ **ابن زهر الاشبيلي** ، ابو مروان عبد الملك (المتوفى في سنة ٥٥٧ هـ) . ولد باشبيلية ، وعاش في عهد المرابطين ثم الموحدين ، مشتغلا بالطب ، وتوفي سنة ٥٥٧هـ باشبيلية . ومن تاليفه : كتاب الاغذية (وهو اهمها) ، وكتاب التيسير في المداواة والتدبير (وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وكتاب الاقتصاد في اصلاح الانفس والاجساد . ويعد ابن زهر اعظم طبيب عملي عربي بعد الرازي ، وهو أول طبيب عربي ربط دراسة الطب بالجراحة والصيدلة .

٩ ـ **ابن البذوخ** ، ابو جعفر عمر بن علي القلعي (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) . اصله من قلعة بني حماد ، وسكن دمشق ، واقام بها مدة طويلة ، وتوفي بها سنة ٥٧٥هـ ، وقيل سنة ٥٧٦هـ . وكان ابن البذوخ خبيرا في معرفة الادوية المركبة والمفردة ، وكان له دكان عطر يجلس فيها يبيع ويداوي الناس ، وكانت له عناية كبيرة بالكتب الطبية ، والنظر فيما قاله القدماء ، وله تاليفه في الطب ، منها : حواش على كتاب القانون لابن سينا ، ولطائف الانوار . والارجوزة في شرح الفصول لابقراط . وارجوزة في شرح كتاب تقدمة المعرفة .

١٠ ـ **ابن العوام الاشبيلي** ، ابو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد (المتوفى في اواسط القرن السادس هـ) . هو طبيب اندلسي ، تبحر في علم الطبيعة ، ونظر في الكتب اليونانية ، ثم انه اعتمد ايضا على المعارف العملية العميقة التي استفادها من التجارب المباشرة ، والف كتاب الفلاحة ، ضمنه وصفا دقيقا لعدد كبير من النباتات .

ويعد هذا التأليف أحسن الكتب العربية في العلوم الطبيعية ، وعلى الاخص في علم النباتات . وقد نشر هذا الكتاب في مدريد سنة ١٨٠٢م ، مع ترجمة اسبانية ، كما انه ترجم الى الفرنسية (٤٦).

١١ ـ **ابن الياسمين** ، ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج (المتوفى سنة ٦٠١هـ). من اهل فاس ، وينتمي الى بني حجاج ، اهل قلعة فندلاوة ، بالمغرب الاقصى . والتحق ببلاط الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ، بمراكش ، ثم ابنه الناصر . وكان قد نبغ في علوم شتى ، من منطق وفلك ورياضيات وغير ذلك ، والف أرجوزة في الجبر ، كانت من اشهر التآليف في الرياضيات في سائر انحاء المغرب ، وقد تناولها كثير من العلماء بالشرح . وله ايضا ارجوزة اخرى في اعمال الجذور . وتوفي ذبيحا في منزله بمراكش ، سنة ٦٠١هـ ، وقيل في اخر سنة ٦٠٠ هـ .

١٢ ـ **ابن الرومية** ، ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي النباتي (٥٦٧ ـ ٦٣٧ هـ) . كان فقيها محدثا عارفا بعلم النبات، ومن تاليفه : جامع الادوية المفردة ، وكتاب الصيدلة ، وتفسير الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وكتاب الرحلة (وصف فيه رحلته الى الشرق ، وبالاخص ما وجد في طريقه من نباتات) ، ومقالة في تركيب الادوية ، وكتاب الانساب ، وكنز الاخبار في الحديث . . الخ.

١٣ ـ **ابن البيطار** ، ضياء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد المالقي (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) . ولد بمالقة ، ونبغ في الطب ، ورحل الى المشرق ، ثم استقر بدمشق، وتوفي بها سنة ٦٤٦هـ ، وابن البيطار من اشهر الاطباء وعلماء الطبيعة . وقد ألف كتبا عديدة في الطب والصيدلة والنبات ، فاشتهرت شهرة عظيمة في سائر العالم الاسلامي ، ومن اهمها : كتاب جامع الادوية والاغذية المفردة (المشهور بمفردات ابن البيطار) ، وكتاب المغني في الادوية المفردة . وقد اهدى ابن البيطار هذين الكتابين الى الملك الصالح ، سلطان مصر والشام . وله ايضا : شرح كتاب ديسقوريدس ، وكاشف الويل في معرفة امراض الخيل ، الخ(٤٧).

١٤ ـ **التيفاشي** ، شرف الدين ابو العباس احمد بن يوسف القفصي (المتوفى سنة ٦٥١هـ) . الطبيب الاديب القاضي ، رحل الى مصر لطلب العلم ، ثم الى دمشق ، وبرع في علم الطبيعة ، وخاصة في الاحجار الكريمة ، وفي الادب والف كتاب أزهار الافكار في جواهر الاحجار (وهو اشهر كتاب بالمغرب في هذا المجال) ،وكتاب

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، وكتاب الشفا في الطب المسند عن المصطفى. والدرة الفائقة في محاسن الافارقة ، وغير ذلك (٤٨).

١٥ — **ابو العباس بن البناء** ، احمد بن محمد بن عثمان الازدي المراكشي العددي (٦٥٤ — ٧٢١ هـ) . ولد بمراكش ونشأ بها ، واخذ عن علمائها . ثم رحل الى فاس لطلب العلم . وعاد الى مراكش ، ونبغ في الرياضيات والفلك . فاشتغل بالتدريس ، وتخرج عليه كثير من العلماء الجلة ، امثال الابلي ، وابني الامام ، وابن النجار ، والبلفيقي وتوفي بمراكش سنة ٧٢١ هـ . وله تآليف هامة . وخصوصا في الحساب والفلك ، اشهرها : تلخيص اعمال الحساب ، وقد شرحه ابن البناء في كتاب سماه رفع الحجاب عن علم الحساب ، كما شرحه القلصادي وغيره . وله ايضا : رسالة في المساحات ، وكتاب التعديد والتيسير في قواعد التكسير ،ومسائل في العدد التام والناقص ، وكتاب منهاج الطالب في تعديل الكواكب ، وكتاب السيادة في تعديل الكواكب السيارة ، ورسالة في الانواء ، وكتاب الكليات في المنطق ، وكتاب الروض المريع في صناعة البديع ، وكتاب التقريب للطالب اللبيب (في علم الكلام). الخ .. ويعد ابن البناء اعظم عالم في عصره في الرياضيات(٤٩).

١٦ — **ابن النجار التلمساني** ، ابو عبد الله محمد بن علي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) . اصله من مراكش . وولد بتلمسان ، ونشأ بها ، واخذ عن الابلي . ثم رحل الى المغرب الاقصى . فدرس على ابي عبد الله محمد بن هلال . شارح المجسطي . بسبتة . وعن ابي العباس بن البناء ، بمراكش ، فنبغ في التعاليم ، وخصوصا في علم الفلك ، وعاد الى تلمسان ، فاشتغل بالتدريس ، ثم التحق ببلاط ابي الحسن المريني، ايام استيلائه على المغرب الاوسط ، ثم صحبه الى افريقية . وتوفي بتونس سنة ٧٤٩هـ . بالطاعون . ومن تلامذته ابو عبد الله الشريف ، والمقري الكبير . وابو الحسن بن الفحام ، صاحب المنجانة .

١٧ — **ابو علي المراكشي** ، الحسن بن علي بن عمر (المتوفى بعد ٧٥٠ هـ). من اشهر العلماء في الرياضيات والفلك ، في عصره ، له كتاب قيم يدعى جامع المبادىء والغايات في علم الميقات ، جمع فيه كل ما ورد عند من سبقه من الفلكيين .

١٨ — **الآبلي** ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم التلمساني (٦٨١ — ٧٥٧ هـ). أصل اجداده من مدينة ابلة بالاندلس ، ولد بتلمسان ، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون ، فشب على حب العلم ، ودرس على أبي الحسن التنسي ، فحذق التعاليم . ثم كان الحصار الطويل فغادر المدينة اثناء ذلك ، قاصدا المشرق

حيث ادى فريضة الحج ، ولقي كثيرا من العلماء الجلة ، ثم عاد الى بلاده ، واخذ عن ابي موسى بن الامام علما غزيرا . ثم استعمله السلطان ابو حمو الاول الزياني في ضبط الجباية . ولم يستطب الابلي هذه الوظيفة ، ففادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الاقصى ، فاتصل بابي العباس بن البناء بمراكش ، واخذ عنه ، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة . علي بن محمد بن تروميت ، واقام عنده مدة . ثم استقر معه بفاس ، واتصل بابي الحسن المريني ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه . وصحبه في حركتهالى الاندلس . وحضر معركة طريف . ثم انتقل معه الى افريقية . سنة ٧٤٨ هـ ، ومكث بتونس الى ان استدعاه ابو عنان المريني ، بعد استيلائه على المغرب الاوسط ، سنة ٧٥٣ هـ . فغادرها ، ووفد على ابن عنان بتلمسان ، ونال عنده حظوة كبرى ، ثم صحبه الى فاس ، حيث اشتغل بالتدريس الى ان توفي بها سنة ٧٥٧ هـ . ويعد الآبلي من انبغ رجال عصره في التعاليم ، وقد ساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من العلماء الكبار في المغرب . فمن اشهر تلامذته عبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقري الكبير ، وابو عبد الله الشريف وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقباني، وابن الصباغ المكناسي ، وغيرهم (٥٠) .

١٩ ــ ابو عبد الله الحباك ، محمد بن احمد (المتوفى سنة ٨٦٧ هـ .) ، التلمساني ، الفرضي العددي ، نبغ في علم الفلك وفي الرياضيات ، واشتغل بالتدريس وتوفي سنة ٨٦٧ هـ . الف شرحا على تلخيص ابن البناء ، وشرحا على التلمسانية (في الفرائض) . ونظم ارجوزة في الفلك ، سماها بغية الطالب في علم الاسطولاب . كما نظم ايضا رسالة الصفار في الاسطرلاب . ومن تلاميذه في هذه العلوم الامام محمد بن يوسف السنوسي .

٢٠ ــ ابو الحسن القلصادي ، علي بن محمدالقرشي البسطي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ) . ولد في بسطة بالاندلس، وانتقل الى غرناطة ، فأخذ عن اشهر علمائها. ثم غادر الاندلس ، ونزل تلمسان ، فأخذ عن ابن مرزوق الكفيف واحمد بن زاغو وقاسم العقباني وغيرهم ، وواصل رحلته هذه الى تونس ، فأخذ عن ابن عقاب وابي العباس القلشاني وحلولو ، ثم الى المشرق ، فأخذ عن الحافظ ابن حجر وغيره ثم عاد الى غرناطة . فوجد مملكة بني نصر مهددة أشد التهديد من طرف النصارى فساهم في مقاومتهم . ثم نزح الى افريقية ، وتوفي بباجة في أواخر سنة ٨٩١هـ ويعد القلصادي أخر العلماء المنتجين من علماء الاندلس ، وقد اعطى نفسا جديد لعلم الحساب . واضاف اضافات هامة على من سبقه من العلماء . ومن تآليفه كشف الحجاب عن قانون الحساب ، وكتاب كشف الاستار عن علم حروف الغبار

وشرح تلخيص ابن البناء ، وشرح ابن ياسمين في الجبر والمقابلة ، ومختره ، وشرح فرائض مختصر خليل ، وشرحان على التلمسانية ، الاكبر والاصغر ، والغنية (في الفرائض) وشرح الحوفي . كما الف في علم الفلك . شرحا على رمز ابي مقرع ، وعلى رجز ابي اسحاق بن فتوح . وفي المنطق . شرح ايساغوجي . وله ايضا رحلته المسماة : تمهيد الطالب ومنتهى الراغب الى اعلى المنازل والمناقب . وتشهد اهمية تصانيف القلصادي وغزارتها على نبوغه وازدهار العلوم الطبيعية في عصره(٥١).

* * *

وبعد ، فان تقييم ما أنتجه الفكر العربي بالمغرب يتطلب تناول ذلك الانتاج بالدراسة ، بعد تحقيقه ونشره . وقد اتضح لنا . من خلال استعراضنا لاثار علماء المغرب ، ان هذه العملية لاتزال في بدايتها ، اذ ان مهمة استكشاف المؤلفات في شتى المجالات ، وجعلها في متناول جمهور القراء والباحثين لم تمس الا عددا قليلا من الاثار التي يشملها التراث الفكري العربي بالمغرب ، ولاشك ان ما يبذل حاليا من جهود في سبيل احياء هذا التراث سيسمح ، عن قريب ، بالقاء اضواء جديدة في هذا المجال .

غير ان ما انجز من اعمال . في هذا الاطار . رغم ضآلته . يشهد على ان للمغرب العربي اصالة قد طبعت الفكر الاسلامي بطابعها ، وعبقرية قد اثرته وزادته تفتحا وسعة ، الامر الذي جعل هذه المنطقة تلعب دورا هاما في ازدهار الفكر الاسلامي، وتساهم مساهمة كبرى في ترقية المجتمع في شتى المجالات ، وتوجيهه نحو سلوك اخلاقي وديني يتماشى مع مستوى التطور الحضاري .

هذا ويبدو ان تطور الحياة الفكرية الاسلامية بالمغرب قد مر باربع مراحل :

فالاولى هي مرحلة النشأة (من القرن الثاني الى القرن الرابع هـ) ، وهي فترة اقتباس واخذ عن بلاد المشرق العربي ، واستيعاب لعلومه ، ومسايرة لركب حضارته ، ومحاكاة لاساليبه . فكان علماء المغرب اثناءها ينهلون من معين المشرق ، ويستمدون منه مادة علومهم ، وينسجون على منوالها . فيعكس انتاجهم نفس الاتجاهات والتيارات الفكرية والادبية . وفي هذه الفترة ، كانت القيروان تلعب دورا رئيسيا ، وخصوصا في مجال العلوم الدينية واللسانية ، حيث نبغ فيها كثير من الفقهاء والكتاب والشعراء . ولاشك ان التطور الهام الذي سجل انذاك في المجال اللغوي . قد ادى الى صوغ لغة كفيلة بالتعبير على كل المفاهيم والمصطلحات العلمية ، وتقبل الدخيل من المفردات عند الاقتضاء . وفي نهاية هذه الفترة ، اصبحت الحضارة

الاسلامية ، في المغرب ، تملك اسسها الفكرية واللغوية ، التي انطلقت منها نحو تحقيق تطورها العلمي .

والمرحلة الثانية هي مرحلة النضج والازدهار (من القرن الرابع الى اخر القرن الثامن هـ .). وقد شملت فيها الملكة العلمية سائر المجالات واصبح العلماء المغاربة يتحكمون في كل العلوم ، ويقبلون على ترقيتها وتصحيحها والابداع فيها . فنبغ أيضا اطباء وفلكيون ونباتيون ومؤرخون وجغرافيون ، ممن تركوا بصماتهم في صفحات تاريخ الحضارة الانسانية ، وكانوا اساتذة جلة لاوربة المسيحية مدة قرون عديدة . وهكذا انتقل الفكر العربي المغربي ، أثناء هذه الفترة ، من طور النقل والاخذ الى طور الابداع والعطاء محققا تقدما باهرا في سائر المجالات الحضارية . غير ان هذه المسيرة تعرضت ، في اماكن عديدة ، الى عراقل من جراء ما منيت به من كوارث ومحن ، وذلك مثل فتنة قرطبة ، سنة ٤٠٠ هـ وخراب القيروان ، سنة ٤٤٩هـ ، واستيلاء الاسبان على طليطلة ، سنة ٤٧٨ثم سرقسطة، سنة ٥١٢هـ . واحتلال النورمان لجزيرة صقلية ، في اواخر القرن الخامس هـ ، ثم غاراتهم على سواحل افريقية وقد تفاقم الوضع بعد هزيمة العقاب ، سنة ٦٠٩هـ . التي مهدت لسقوط قرطبة واشبيلية وغيرهامن امصارالاندلس بين ايدي النصارى، ولم يبق بالمغرب من مراكز الاشعاع الفكري الهامة الا عواصم الدول التي خلفت الموحدين . وهي غرناطة ومراكش وفاس وتلمسان وبجاية وتونس . ثم كان الطاعون سنة ٧٤٩هـ . الذي اجتاح سائر العالم الاسلامي واباد كثيرا من الناس ،ومن بينهم عدد كبير من العلماء ، اثر عميق في تعثر المسيرة نحو التقدم والابداع .

فتلا ذلك مرحلة فتور وركود (من أوائل القرن التاسع الى اواخر القرن العاشر هـ) ، تمتاز بتراجع الابداع الفكري وتناقصه ، واقتصار الجهود ، غالبا ، على ماتركه القدماء من الانتاج الفكري . وقد انتشرت في هذه الفترة ، طريقة تاليف المختصرات ، والاعتماد عليها في المناهج التربوية ، مع ماتتطلبه من شروح وحواش . واصبح التعليم عبارة عن حشو الادمغة بالمعلومات في مختلف العلوم عن طريق استظهار المتون المصنفة . فزادت بذلك دائرة المعارف اتساعا . ولكنها نقصت تعمقا . وقل التخصص في مجال علمي محدود . بقدر ما قل الالتجاء الى التجربة وتطبيق المعلومات .

واخيرا كانت مرحلة التدهور ، (من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر هـ). نتيجة حتمية لاستمرارية العوائق الناجمة عن الاوضاع السياسية والاقتصادية ، وكان موقف اوربة المسيحية العدائي اثناء الحروب الصليبية . والغارات المتتالية

التي شنتها على سواحل البلاد العربية ، قد ادى الى رد فعل اسلامي يتسم بالرفض والتصدي ، مما جعل حدا للتفتح والمسالمة . فعاش العالم العربي في جو انزواء واكتفاء ذاتي . منعه من مسايرة الركب الحضاري الاوربي . ابان النهضة الحديثة ، وجعله ينغمس شيئا فشيئا في بيئة التزمت والتوكل والشعوذة والخرافات وفي هذه المرحلة ، قل الانتاج الفكري ، وانعدم الابداع ، وركن رجال العلم الى النقل والتقليد في التأليف .

ثم كان القرن الرابع عشر الهجري عهد نهضة وانبعاث ، مكن شعوب المغرب العربي من الاستيقاظ من سباتها ، والعمل على استرجاع ما فاتها من اسباب الحضارة والرقي ، والخروج من تخلفها الثقافي . وكان من الخطوات الاولى التي خطاها المغرب في مسيرته نحو التحرر والنمو ، ان قام بحركة دينية اصلاحية سمحت بوضع اسس سليمة لتطوره السياسي والاقتصادي والثقافي . واصبحت همم ابنائه تتطلع نحو مستقبل مشرق ، وتتوق الى العمل لتحقيق طموحها في بعث امجاد الحضارة الاسلامية العربية والتحلي بقيمها السامية .

(١) راجع : عبد العزيز المجدوب ، الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، تونس، ١٩٧٥ ، ص ٩٢ — ١٠٣ .

(٢) راجع : محمد الفاضل ابن عاشور ، التفسير ورجاله ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢٣ — ٢٨ .

(٣) راجع : عبد العزيز المجدوب ، المرجع المذكور ، ص ٤٩ — ٥٨ . القاضي عياض ، تراجم اغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ٥٢—٧٠ .

(٤) راجع : عبد العزيز المجدوب ، المرجع المذكور ، ص ٦٥ — ٧٠ . عياض ، المرجع المذكور ، ص ٨٦ — ١٣٦ .

(٥) راجع : عياض ، المرجع المذكور ، ص ١٧٠—١٨٨ — محمد بن سحنون،كتاب اداب المعلمين ، تحقيق محمود عبد المولى ، الجزائر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ — ٦٦ .

(٦) راجع : احمد فؤاد الاهواني ، التربية في الاسلام او التعليم في رأي القابسي ، القاهرة ،١٩٥٥

Chedly Bouyahia, **La vie littéraire en ifriqiya sous les Zirides**, Tunis, 1972, pp. 54 - 57.

(٧) راجع : محمد الفاضل بن عاشور ، المرجع المذكور ، ص ٦٣ — ٦٦ .

(٨) راجع : عياض ، تراجم اغلبية ، مقدمة المحقق (باللغة الفرنسية) ، ص ٥ — ٤٢ .

(٩) راجع : احمد جلول البدوي ، الشريف ابو عبد الله التلمساني ، في مجلة الاصالة (الجزائر)، العدد ٤ ، ص ٤٨ — ٥٥ .

(١٠) راجع : محمد الفاضل بن عاشور ، المرجع المذكور ، ص ١١١ — ١١٥ .

(١١) راجع : رابح بونار ، القاضي سعيد العقباني التلمساني ، في مجلة الاصالة (الجزائر) ، العدد ٦ ، ص ٦٥ — ٧٢ .

(١٢) راجع ، محمد بن احمد بن قاسم العقباني ، تحفة الناظر وغنية الذاكر ، تحقيق علي الشنوفي في مجلة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٩ ، سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ — ٣٤٤ .

(١٣) راجع : محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مصباح الارواح في اصول الفلاح ، تقديم وتحقيق رابح بونار ، الجزائر ، ١٩٦٨ ، ص ٧ — ٢٥ .

(١٤) راجع : محمد بن رمضان شاوش ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، مستغانم ، ١٩٦٦ ، ص ٤٣ — ٥٧.

(١٥) راجع : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص ٣٥٢ — ابو القاسم محمد ترو ، ابن هانيء المغربي ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٥ — ٥٧ احمد خالد ، ابن هانيء ، تونس ، ١٩٧٦ ، ص ٩ — ٦٠ .

(١٦) راجع : Chedly Bouyahia, op. cit., pp. 52-54

(١٧) راجع : المنجي الكعبي القزاز القيرواني ، حياته واثاره ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ٥—٨١ .

(١٨) راجع : Chedly Bouyahia, ou. cit., pp. 20-25

(١٩) راجـع : Chedly Bouyahia, op. cit., pp. 116-124

(٢٠) راجع : عبد الرؤوف مخلوف : ابن رشيق الناقد الشاعر ، القاهرة ، ١٩٦٥ – عبد الرحمن ياغي ، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، بيروت ، ١٩٦١ ،
Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 104-115

(٢١) راجع : Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 197-199 .

(٢٢) راجع : احسان عباس ، العرب في صقلية ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٣ – ٢٦٢ .
Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 190-192.

(٢٣) عبد العزيز الاهواني ، تصدير كتاب منامات الوهراني ، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش ، القاهرة ١٩٦٨ ، راجع أيضا : محمد نغش ، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، في مجلة الثقافة ، الجزائر ، العدد ٢٤ ، ص ٦٣ – ٦٦ .

(٢٤) راجع : عبد الوهاب بن منصور ، المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس ، تلمسان ، ١٣٦٥ هـ ، ص ٨ – ٤٢ .

(٢٥) راجع : البيذق ، أخبار المهدي ابن تومرت ، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ ، ص ٧ – ٢٦ .

(٢٦) راجع : حسين مؤنس ، الجغرافيا والجغرافيون في الاندلس ، الشريف الادريسي قمة علم الجغرافيا عند المسلمين ، في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمادريد ، ١٩٦١ – ١٩٦٢ ، ص ٢٥٧–٣٧٢.

(٢٧) راجع : محيي الدين عزوز ، التطور المذهبي بالمغرب ودراسة قصة حي بن يقظـــان ، تونس ، ١٩٧٦ ، ص٥١ – ٦٩ .

(٢٨) راجع : ديوان الشيخ سيدي شعيب ابن مدين ، جمعه وقدم له الشيخ العربي مصطفى الشوار دمشق ، ١٩٣٨ ، ص ٦ – ٤٥ – عبد القادر الخلادي ، ابو مدين الغوث ، في مجلة الاصالة ، الجزائر ، العدد ٢٦ ، ص ٢٨٤ – ٢٩٥ .

(٢٩) راجع : محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية : القاهرة ، ١٩٦٤ . محمود قاسم ، نظريــة المعرفة عند ابن رشد ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ابن رشد ، مناهج الادلة في عقائد الملة ، تحقيق محمود قاسم ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٣ – ١٢٦ . ابن رشد ، فصل المقال ، تقديم وتحقيق أبو عمران الشيخ وجلول البدوي ، الجزائر ١٩٧٧ ، ص ٥ – ٢١ .

(٣٠) راجع : شوقي ضيف وغيره ، الرحلات (سلسلة فنون الادب العربي ، الفن القصصي ، ٤) مصر ، ١٩٥٦ ، ص ٧٠ – ٩٤ .

(٣١) راجع : عبد الحفيظ فرغلي علي القرنـــي ، محيي الدين بن العربي سلطان العارفين ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٣٢) راجع : عبد الله كنون ، ابن رشيد (سلسلة: ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ١٨) ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٣٣) راجع : شوقي ضيف وغيره ، المرجع المذكور ،ص ٩٥ — ١٢٢ ، عبد الله كنون ، ابن بطوطـــة (سلسلة : ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ٢٥)، بيروت ، بدون تاريخ .

(٣٤) راجع : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ، ج ١ ، الجزائر ، ١٩٨٠، ص ٧ — ٧٦ .

(٣٥) راجع : محمد بن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ، الرباط ، ١٩٧٠، ص ١٢٣ — ١٢٩ .

(٣٦) راجع : وداد القاضي ، النظرية السياسية للسلطان ابي حمو الزياني الثاني ، في مجلة الاصالة الجزائر ، العدد ٢٧ ، ص ٧ — ١٠٠ ، عبدالحميد جاجيات ، ابو حمو موسى الزياني ، حياته واثارة ، الجزائر ، ١٩٧٤ ، ص ٦٧ — ٢٣٠ .

(٣٧) راجع : محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ،حياته وتراثه الفكري ، القاهرة ، ١٩٣٣ — ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٣ — عبد الرحن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

M. Talbi, art. Ibn Khaldun, dans E. I[2] III. pp. 849-53,

(٣٨) راجع : عادل نويهض ، معجم اعلام الجزائر ،بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٢٠ — ٢٢ — ابن قنفذ ، انس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي وادولف فور ، الرباط ، ١٩٦٥ ، ص ب — ل . ابن قنفذ ، الفارسية ، تقديم وتحقيق محمـــد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، تونـــس ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢ — ٩٥ — ابن قنفذ ، كتـــاب الوفيات ، تحقيق عادل نويهض، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٥ — ١٩ .

(٣٩) راجع : عبد اللل كنون ، احمد زروق ، (سلسلة : ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ٢٣) ، بيروت ، بدون تاريخ

(٤٠) راجع : عبد الحميد حاجيات ، تاريخ دولةالادارسة من خلال كتاب نظم الدر والعقيان لابـــي عبد الله التنسي ، في مجلة التاريخ (للمركزالوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر) العدد ٩ ، ص ٥ — ٢٥ .

(٤١) راجع ، عبد الله كنون ، ابن غازي (سلسلة :ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ١٢) ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٤٢) راجع : الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج١ ، ص ٤٤ ، عادل نويهض ، معجم اعلام الجزائر ، ص ٤٢ — ٤٤ .

(٤٣) راجع حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات من الحضارة العربية بافريقية ، تونس ، ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ٣٠٦ — ٣٢٢ .

(٤٤) راجع : Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 83-88.

(٤٥) راجع : Ch. Bouyahia, ou cit., pp. 165-75.

(٤٦) راجع : الدو ميبلي ، العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٠١ .

(٤٧) راجع : الدو ميبلي ، المرجع المذكور ، ص ٤١٤ — ٤١٥ .

(٤٨) راجع : محمد الشاذلي النيفر ، علماء قفصة (ملتقى ابن منظور الافريقي ، تونس ، ١٩٧٢) ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤٩) راجع : ابن البناء ، تلخيص اعمال الحساب ، تحقيق محمد سويسي ، تونس ، ١٩٦٩ ، ص ١٥ — ٢٧ .

(٥٠) راجع : ابن مريم ، البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، الجزائر ، ١٩٠٨ ، ص ٢١٤ — ٢١٩ .

N. Nassar, Le Maître d'Ibn Khaldun,al-Abili, dans Studia Islamica, XX,1964, pp. 103-115.

(٥١) راجع : ابو الحسن القلصادي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد ابو الاجفان ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ١٧ — ٧٤ .

محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر
الأبعاد الدولية والاستراتيجية

د. عمر السعيدي

كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة التونسية

كثيرا ما تساءل المؤرخون ورجال البحث حول خطة الفاطميين للاستئثار بالحكم، وعن مدى أبعاد هذه الخطة واهدافها المرحلية . وتبوات الفترة المغربية من تاريخ الفاطميين مكانة كبيرة في هذه القضية ، وجرى النقاش حول دور المغرب في خطة الفاطميين : هل كان يمثل مرحلة وقتية ..؟ هل كان الفاطميون يقصدون من قدومهم الى المغرب اتخاذ قاعدة ينطلقون منها الى المشرق لانهم يعتبرونه الهدف الاساسي ... وداخلت هذا النقاش كثير من الاعتبارات الانطباعية وحتى النفسانية الاقليمية ، مما من شانه ان عقد الرؤية الصحيحة للمشكل والتصور الموضوعي للممارسة الفاطمية .

وهدفنا من المشاركة البسيطة التي نقدمها هنا هو محاولة طرق القضية من الجوانب (الاستراتيجية ـ العسكرية) بالنظر الى الاوضاع العامة والعلاقات الدولية انذاك ، اي في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، باعتبار مثلث جغرافي ـ سياسي (الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ـ مصر ـ مركز الخلافة) ذي ابعاد استراتيجية دولية .

* * *

آ ـ الاوضاع والمعطيات العامة

١ ـ في المناطق المركزية للخلافة :

لعل من أهم ما يتعين التذكير به من الناحية العقائدية والمذهبية ان النصف الاول من القرن الثالث الهجري يمتاز بحدثين هامين ، يتمثلان في اختفاء محمد بن الحسن العسكري ، الامام الثاني عشر ، سنة ٢٦٥ للهجرة ، وظهور فرقة القرامطة خاصة، وفي تبلور معارضات من نوع جديد تعتمد الاصناف والطبقات الاجتماعية المتواضعة الحال كقاعدة ، ووسائل العنف المختلفة كطريقة لتحقيق اهدافها .

الى جانب هذا التعميق المذهبي والتصعيد في المعارضـــات ، يجدر بنا التذكير بظاهرة النزعات الاستقلاليـــة التي كانت تغذي في كثير من الاحيان حركات المعارضة، التي تعددت وتنوعت في وجه الخلافة العباسية ، والتي ، رغم تقلصــها وقتيا ، كانت تمثل حركات متغلغلة في الجهاتالتي ظهرت فيها .

لكن رغم هــذه المعطيات الجديدة شهدت الخلافة العباسية اثناء النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة فترة انتعاش نسبي ، مهدت لها جهود الموفق ، وتبلورت في ظل حكم الخليفة المعتضد والخليفة المكتفي ، وتواصلت ردحا من الزمـــن في خلافــة المقتدر . وتمتاز هذه الفترة من بين ما تمتاز به بالسيطرة على المؤسسة العسكرية ، ثم توحّد هذه المؤسسة تحت قيادة مؤنس الخادم المظفر ، مما أكسبها فاعلية كبيرة حتى نهاية العشرية الثانية من القرن الرابـع الهجري على الاقل .

٢ ــ في مصر :

سيطر الطولونيون على مصر قرابة نصف قرن (٢٥٤ ــ ٢٩٢/٨٦٨ــ٩٠٥م) ثم استرجعتها الخلافة العباسية في آخر القرن الثالث الهجري (٢٩٢ هـ) على يد محمد ابن سليمان الكاتب ، قائد جيوش الخلافة ، الذي اشتهر بما قام به بعـد انتصاره من القمع الشرس والنهب الفظيع(١) . وعلى اثر هذه العمليات شهدت مصر فترة امتازت بعدم الاستقرار والانتفاضات ، وبتداول الولاة عليها . ومن أهم الحركات التي تذكر حركة ابن الخليج الذي اختلفت المصادر في صيغة اسمه(٢).

وابن الخليج هذا ضابط من ضباط الجيش الطولوني المهزوم ، والذي ضمت بعض فلوله الى جيش محمد بن سليمان الكاتب . واستمرت حركة ابن الخليج هذا ضد والي مصر الجديد ، عيسى النوشري ، اكثر من سبعة اشهر . وعلى ذكر هذا الوالي تشير المصادر الىوجود شيعيين بين حاشيته مما يؤكد ان حركة الدعــوة الشيعية الفاطمية كانت ناشطة في مصر(٣) . وما ان توفي عيسى النوشري سنة٢٩٧هـ/ ٩١٠م). حتى اتضح خطر الفاطميين بالنسبة لولاة مصر ، سيما في اقليم برقة الراجع بالنظر الى والي مصر ، واصبح هذا الاقليم شبه جبهة سياسية ــ عسكرية جعل منها فاطميو افريقية ساحة جس نبض للقوات المصرية وساحة مناورات سياســية وعمل دعائي نشيط يهيء للعمليات العسكرية المستقبلة(٤) . وكان المنفذ لهذه السياسة القائد حباسة بن يوسف .

٣ ـ في افريقية والمغرب :

ان الوضع في افريقية والمغرب لم يكن سهلا ابدا بالنسبة للفاطميين . ويكفي ان نستعرض بعض الاحداث ليتضح لنا ان الفاطميين لم يستتب لهم الامر رغم ان الحركة الاسماعيلية تظهر منسقة ، اذ اندلعت العمليات التي كان الاسماعيليون المحرك الاساسي لها في نفس الفترة على ساحات مختلفة منها سورية والعراق وافريقية . وكذلك رغم طول مدة نشاط دعاة الفاطميين بافريقية (٢٨٠ ـ ٢٩٦ هـ) ، فماانتصرت شيعة الفاطميين على الاغالبية بالاربس واقبل المهدي من سجلماسة الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ ، حتى اندلع الخلاف بينه وبين الداعي ابي عبد الله ، وقتل هذا الاخير واخوه ابو العباس سنة٢٩٨هـ(٥) . وعلى اثر هذه الازمة خرجت كتامة على المهدي سنة ٢٩٩ هـ ، واتخذت مهديا جديدا واجبر ابو القاسم على محاربتهم دفعتين .

وفي الجانب الشرقي من افريقية قامت كذلك في نفس الفترة (سنة ٣٠٠هـ) اضطرابات خطيرة ، يظهر ان بقايا تاثير الاغالبة كان سببا من اسبابها ، واجبر كذلك الفاطميون على محاربة اهل طرابلس واخضاعهم بطرق عنيفة جدا(٦) ،ومجابهة خلاف نفوسه سنة ٣٠٩ هـ .

وفي الجناح الغربي ، أي المغرب الاقصى ، قامت اضطرابات في نكور تزعمها صالح ابن منصور ، وارسل مصالة بن حبوس لمقاومة نكور فافتتحها سنة ٣٠٥ هـ وقتل سعيدا بن صالح ، ثم لم تهدأ الحركة واجبر الفاطميون على محاربة اهل المنطقة ثانية سنة ٣٠٨ هـ .

وفي سنة ٣٠٩ هـ فتح الفاطميون سجلماسة ونهبوها . وفي سنة ٣١٢ هـ خرج مصالة بن حبوس لحرب تيهرت وزناتة بتلك الناحية ، واخيرا في سنتي ٣١٥ ـ ٣١٦هـ خرج ابو القاسم الى المغرب لحرب الصفرية والاباضية وبلغ تيهرت(٧) .

٤ ـ في صقلية :

واخيرا في صقلية لم يستتب الامر للفاطميين الا بعد عناء شديد ، اذ التف أهل صقلية حول امير اغلبي ، هو محمد بن احمد بن زيادة الله بن قرهب ، امتاز وذويه باقدامهم وحركيتهم ضد الفاطميين طيلة سنين عديدة . وتمثل نشاطهم ضد الحكم الجديد في افريقية بتنظيم غارات متعددة ضد شواطىء افريقية وموانيها ، مثل لمطة(٨) وصفاقس وطرابلس (٩) وسوسة ، حيث قضوا على الاسطول الفاطمي باجمعه . ولم

يقهر قائد هذه العمليات ، احمد بـن محمد بـن أحمد بـن زيادة الله بـن قرهب الا سنــة ٣٠٣ هـ .

★ ★ ★

ب ــ العمليات العسكرية واهدافها

هكذا يتضح ان السنوات الاخيرة من القرن الثالث الهجري والاولى من الرابع الهجري كانت سنوات جهد كبير ، كان الفاطميون مضطرون الى القيام به لترسيخ حكمهم بافريقية وضمان عمق استراتيجي لهذا الحكم شرقا وغربا وبحرا .

١ ــ الجبهة الغربية :

فعلى الجبهة الغربية كان الفاطميون يهدفون الى السيطرة على طرق التجارة والذهب ، ولهذا السبب كان المغرب الاوسط من اهم الساحات بالنسبة للفاطميين . وكانت مدينتا تيهرت وسجلماسة من اكبر الاسواق ونقاط الوصول لطرق التجارة والذهب التي كانت تأتي من جنوب الصحراء ومن المشرق . وكانت المدينتان تراقبان محاور هذه الطرق وتسيطران عليها . وبما ان اموي الاندلس كانت لهم نفس المصالح التجارية والمالية ، فمن الطبيعي ان نراهم يحاولون حماية الطرق الاتية من الجنوب والمارة باغمات وفاس وتلمسان والسيطرة عليها . وما حروب المغرب الاوسط بصـــورة غير مباشرة في بعض الاحيان بين الفاطميين والامويين الا تعبيرا عن التنافس الاقتصادي والتجاري بين القوتين ، وما تلك التحالفات التي كانت تعقد وتفك الا مظهرا من مظاهر هذا التنافس القوي ، وليست مجرد احقاد بين المجموعات القبلية البربرية كما يدعي (غوتييه) .

ويظهر ان الممارسة الفاطمية على الجبهة الغربية كانت تهدف لا الى الاحتلال المستمر والمتمركز ، بل الى التمكن من الســيطرة على نقاط القوة لطــرق التجارة والذهب ومحاورها . وكان ذلك عن طريق اخضاع اهم المدن في هذه المحاور ، مثــل تيهرت وسجلماسه وفاس وتلمسان وموانى البحر الابيض المتوسط ، التي كانت نقاط الوصول للتجارات والذهب . وسلك الفاطميون طريقة التحالف صلحا او عنوة مع المجموعات الزناتية (مكناسة ، مغراوة ، وافران) البدوية التي كانت عنصرا اساسيا في السيطرة على طرق التجارة .

وهدف الفاطميين الاقتصادي هذا كان ملحا بالنسبة اليهم ، اذ كانوا محتاجين الى اموال طائلة في مستوى طموحاتهم السياسية في خصوص المشرق . ومما يؤكد هذه الظاهرة في سياسة الفاطميين ما قاله لنا الزميل الحبيب الجنجاني عن سياستهم المالية الرامية كذلك الى جمع اكثر ما يمكن من المال ، لان ذلك كان الشرط الاساسي لتحقيق سياستهم (العالمية) التي كان هدفها الاول مصر .

واذا تمعنا في سياسة ونشاط الفاطميين على الجبهة الغربية واستعنا بالمعطيات الاثرية رغم ضآلتها(١٠) ، نلاحظ ان الفاطميين كانوا يهدفون الى جمع المال والرجال ، وربما كان بين هؤلاء عدد لا يستهان به من السود ، وهذه السياسة لا نستطيع ان نجزم بانها تهدف الى احتلال البلاد وتنظيمها والاستقرار بها ، فالفاطميون كانوا يتصرفون فيها وكانهم لا ينتظرون منها سوى ان تكون قاعدة تمكنهم من المال والرجال .

٢ ـ الجبهة الشرقية :

رغم النشاط الفاطمي الحثيث الذي لاحظناه على الجبهة الغربية ، ورغم الحركات المناهضة للحكم الجديد في افريقية نفسها وفي صفوف كتامة سندهم الاساسي ،ورغم اضطرابات صقلية ، نلاحظ ان الفاطميين فتحوا الجبهة الشرقية مبكرا جدا وناصبوا ولاة مصر العداء وبدوا يشاغبونهم ، سيما في برقة ، منذ بداية القرن الرابع الهجري، في ولاية ابي منصور تكين بن عبد الله وولاية نائبه في برقة ابو النمر ـ او اليمن ـ احمد بن صالح.

والعمليات العسكرية المتكررة على الجبهة الشرقية معروفة ومما تمتاز به الحاح الفاطميين ، رغم عدم نضج الوضع لفائدتهم ، على الاستمرار فيها ، معتمدين على العمليات الحربية البحتة ، وكذلك على الدعاية والدبلوماسية(١١) . وبدأت محاولات الفاطميين منذ سنة ٣٠١هـ(١٢) واستهدفت سرت وبرقة بقيادة حباسة ابن يوسف والامير ابي القاسم بن المهدي ، ثم كانت الهجمة المنسقة ضد الاسكندرية بريا وبحريا ، واحتل حباسة الاسكندرية بسرعة سنة ٣٠٢ هـ . لكن فشلت هذه الحملة للخلاف الذي جد بين الامير ابي القاسم والقائد حباسة بن يوسف والذي ادى الى قتل حباسة(١٣) . وفشلت كذلك للمجهود الكبير الذي قامت به الخلافة العباسية للتصدي للهجوم الفاطمي ، حيث بعث الخليفة المدد تلو المدد مع قواد شهيرين مثل القاسم بن سيما واحمد بن كيغلغ ، وتبعهم القائد الكبير مؤنس الخادم . والجدير بالاشارة ان اهل مصر شاركوا مشاركة ملحوظة في مقاومة جيوش الفاطميين . وفي

اعقاب انهزام الفاطميين حرص والي مصر الجديد ذكا الاعور الرومي في تتبع انصار الفاطميين وعملائهم ، حيث ثبت انه كان هناك من يكاتب الفاطميين(١٤) لكن الفاطميين لم يلوهم هذا الفشل على اعادة الكرة حيث عاودوا الهجوم على برقة في السنة الموالية ٣٠٣ هـ ، بقوات قادها ابو مدين فروخ الذي فتحها سنة ٣٠٤هـ(١٥) . وفي نفس هذه السنة كمل سور المهدية واستتب الامر للفاطميين بصقلية فاصبحت وسائلهم البحرية اقوى وانجع . وفي سنة ٣٠٦و٣٠٧ هـ كانت كرة الامير ابي القاسم الثانيةعلى مصر(١٦) مع القائد سليمان بن كافي . وكانت هذه الحملة مركزة اكثر من التي سبقتها واشتركت فيها الجيوش البرية والاسطول بقيادة سليمان الخادم ، وانتصرت فيهاقوات الخلافة لتفوقها في استعمال النفط ، ولكن هذا الانتصار لم يتم الا بعد عناء شديد وبعد قدوم امداد متعددة برية وبحرية ، وبمشاركة مؤنس الخادم في العمليات . ولقب مؤنس على اثر هذا الانتصار بالمظفر .

ومما يلفت النظر ان مؤنس اكتشف(١٧) ان للفاطميين عملاء كثيرين بمصر ، ومن ضمنهم خادم له ، ووقع اتهام صاحب الخراج ، ابو زنبور الحسين بن احمد الماذرائي نفسه ، وكذلك ابن اخيه ، محمد بن علي بن احمد(١٨) .

وتجدر الاشارة كذلك الى الاضطرابات والشغب الذي حصل في صفوف جند مصر اذ يظهر ان قدوم الجيوش من بغداد كل ما هجم الفاطميون على مصر كان له اسوء الاثر على البلاد ، لما كان يحدث من تصرفات الجنود القادمين وما ينجم عن ذلك من الاوبئة وغلاء الاسعار .

واخيرا تجدر الاشارة الى ان موقف المصريين من المنهزمين تمثل في قتل كتامة وزويلة . اما الاسرى من اهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقيلة فانهم اطلقوا . وعلى اثر هذه الاحداث ستشهد مصر فترة مضطربة توالى فيها (هلال بن بدرواحمد بن كفيلغ وتكين ومحمد بن تكين ..) وتعددت الخلافات سيما بعد مقتل المقتدر ٣٢٠ وصار من وتكين ومحمد بن تكين ..) وتعددت الخلافات سيما بعد مقتل المقتدر سنة ٣٢٠. وصار من تسميهم المصادر المصرية بالمغاربة طرفا في احداث مصر(١٩) .

وواصل الفاطميون محاولاتهم في عشرينات القرن الرابع الهجري في ظروف ملائمة لهم اكثر من قبل ،واخذ الوضع ينضج لفائدتهم نتيجة مجهوداتهم المتنوعة ؛ العسكرية والدبلوماسية(٢٠) والدعائية ، التي ادت الى ان كافورا مثلا صار يسلك سياسة توازن بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة اخرى . وبعد وفاة الاخشيد اصبحت مصر هدفا سهل المنال سيماودعم الخلافة لهاقد تقلص منذ زمن طويل، لتخبط

بني العباس في ازمات ادت الى استيلاء المتغلبين على اقاليم مملكتهم وافضت بهم الى وضعية الموصى عليهم .

★ ★ ★

الخاتمــة :

كخاتمة لهذا العرض الذي تناول العمليات العسكرية في اهم ادوارها نلاحظ ان الفاطميين واصلوا محاولاتهم ضد مصر رغم ظروف غير ملائمة ،من ناحيةوضعهم الذاتي ومن ناحية الوضع (الدولي) . فمن ناحة الوضع الداخلي للفاطميين لاحظنــا كــم كانوا مضطرين الى القيام بمجهودات مطردة ، مسترسلة لتركيز سلطتهم في افريقية والمغرب الاوسط وصقلية لاسباب اقتصادية ومالية وبحرية وقد واجه الفاطميون جميع انواع المقاومة في تلك الساحات :

المقاومة (السياسية ـ العقائدية) من طرف كتامة نفسهم ، والمقاومة الامويــة بسبب التنافس الاقتصادي (الامبريالي) ومقاومات الجماعات القبلية البدوية في المغرب الاوسط التي كان الوجود الفاطمي يهدد مصالحها الاقتصادية المكتسبة من مراقبة طرق التجارة الصحراوية ، ومقاومة الاهالي السلبية وسيما الاوساط المالكية في القيروان ، ومقاومة الخوارج في جميع انحاء المغرب، من نفوسة بناحية طرابلس الى نكور بالمغرب التي بلغت ذروتها في ثورة ابي يزيد ، صاحب الحمار . رغم كل هذه المقاومات واصل الفاطميون جهودهم لاكتساب قاعدة صلبة تمكنهم من المال والرجال ومن كل وسائل طموحاتهم السياسية العريضة ، وحاولوا توسيع هذهالقاعدة واعطاءها عمقا استراتيجيا ربما امتد الى افريقية جنوب الصحراء .

ومن ناحية الوضع (الدولي) يظهر بوضوح ان الظروف لم تكن ملائمةللفاطميين. فطيلة عشرات السنين كان على الفاطميين مجابهــة خلافة عباسيــة استرجعت في فترة المجابهة هذه قوة فعالة ومدهشة في بعض الاحيان ، وامتازت تلك الفترة بوحدة المؤسسة العسكرية بقيادة مؤنس الخادم وباكتساب هذه المؤسسة فعاليات تقنيــة هائلة جعلت منها اداة ناجعة رغم تعدد الحركات المناهضة والانفصالات عن الخلافة سيما حركات القرامطة والديلم . ولم تتقلص فعاليات الخلافة العباسية الا في اواخر العشرينات من القرن الرابع الهجري ، حيث ظهرت خطة امرة الامراء واصبح الخليفة شخصية صورية يتراوح بين القواد والولاة .

رغم هذا الوضع لم ينفك الفاطميون يحاولون الاستيلاء على مصر باستعمال القوة العسكرية والدعاية والطرق الدبلوماسية ، حريصين في هذه المحاولات على

الثابرة . هذا رغم الفراغ السياسي الذي كانت تمتاز به الساحة المغربية بالمعنى الواسع ، مما يجعلنا نستغرب عدم تركيز الفاطميين على هذه الساحة وتنظيمها والاستقرار بها وجعلها امبراطورية ((مغربية افريقية)) ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين .

لا نستطيع تفهم هذه السياسة الفاطمية الا اذا افترضنا ، من طرف الفاطميين ، اختيارا استراتيجيا مغايرا . ونلاحظ في هذا الميدان ان الفاطميين حال انتصابهم بافريقية جعلوا ينظمون قاعدة انطلاق ، وذلك بضمان اطراف آمنة مركزة غربا في المغرب الاوسط وشرقا في طرابلس وبرقة وبحرا في صقلية .

وانطلاقا من هذا التنظيم القاعدي نستطيع الافتراض ان الفاطميين كان يهمهم، الى جانب القاعدة الانطلاقية المغربية ، بلوغ هدفين استراتجيين هامين ،يتمثلان :

أولا : في السيطرة الكاملة على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط . ويظهر ذلك جليا في بناء المهدية واعادة بناء اسطول سوسة والحرص على التمكن من طرابلس وبرقة .

ثانيا : في السيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط من جهة ، والتمركز في موقع وسطي يعطي الفاطميين امكانية مجابهة الخلافة العباسية ومزاحمتها في ظروف اضمن للنجاح ،وامكانية التدخل مباشرة عن طريق البحر الاحمر واليمن في تجارات المحيط الهندي والشرق الاقصى ، ولعل ما ظهر من بعد مما اسماه الاستاذ ماريوس كانار Marius Canard بالامبريالية الفاطمية يعطي بعض الصحة لافتراضنا ان الفاطميين كان لهم اختيار استراتيجي شرقي وانهم لم يكونوا يعتقدون بأن المغرب يصلح لتحقيق هذا الاختيار الاستراتيجي . فاذا اضفنا بان استرجاع مصر من طرف الخلافة لاشك وانه أحدث امتعاضا واستياء في صفوف المصريين لما نجم عنه من الاستغلال وسوء التصرف ، مما كان من شأنه ان يجعل مصر هدفا سهل المنال بطول المدة ، رغم الصعوبات الاولية سيما والفاطميون بذلوا مجهودا عظيما سياسيا ودعائيا لكسب المصريين الى جانبهم . ولعل تسامحهم بعد انتقالهم الى مصر يؤكد ما نقوله .

بقي سؤال يطرح نفسه في خاتمة هذا البحث المتواضع ، وهو : هل كان الفاطميون يعتقدن او يحسبون في حسابهم ان المغرب يبقى تحت سيطرتهم .. وهل كانوا يريدون ذلك ويعيرونه اهمية كبرى .. أم هل كانوا يفكرون انه يكفي ان يكون المغرب مصادقا لهم ..؟. هذه مسألة اخرى تستدعي بحثا على حدة نرجو ان ننصرف اليه في فرصة قادمة .

الحواشي :

(١) انظر النجوم الزاهرة ، ٣٩،٣ ، ١٤٦ ــ ١٤٧.

(٢) انظر الكندي ، ٢٥٨ وما بعدها ، والطبري ٢٢٥٨،٣ ، والمقريزي ، الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جزءان الجزء الاول ، ٣٢٧ ، والنجوم الزاهرة ١٤٧، .

(٣) انظر مثلا :كتاب العيون نشر عمر السعيدي ، دمشق ١٩٧٢ ــ ١٩٧٣ ، القسم الاول ،٢٠٨ في حوادث ٣٥٨ هـ .

(٤) انظر الكندي ، ٢٦٨ ، والبيان ، ١ ، ١٧٠

(٥) انظر ابن الاثير ،٨، ٥٠، طبعة دار صادر ودار بيروت . وانظر كذلك مقال الاستاذ محمد الطالبي في ملتقى القاضي النعمان لاول ، وزارة الشؤون الثقافية تونس ، ١٩٧٧ ،ص٨٥ وما بعدها .

(٦) انظر البيان ،١، ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٧) انظر كتاب العيون ،١، ٢٤٢، والبيان ،١، ١٩١ .

(٨) انظر كتاب العيون ،١، ١٧٧ .

(٩) انظر ابن الاثير ،٨، ٧١ .

(١٠) انظر مقال جان ديفيس Jean Devisse عن البعد الصحراوي للسياسة الفاطمية .

(١١) انظر الكندي ، ٢٦٨.

(١٢) انظر البيان ، ١، ١٧٠

(١٣) انظر الطبري ،٣، ٢٢٩٢ في حوادث سنة ٣٠٢ هـ (ويعتري نص الطبري اضطراب وتناقض).

(١٤) انظر الكندي ، ٢٧٠ ، ٢٧٤

(١٥) انظر البيان ،١، ١٧٤ ــ ١٧٥ .

(١٦) انظر البيان ،١، ٨١ وما بعدها . الكندي ، ٢٧٥.

(١٧) انظر كتاب العيون ، ١، ٢٠٨ . والكندي ، ٢٩٥ . والنجوم ،٣، ١٩٦ .

(١٨) انظر البيان ،١، ١٨٢ .

(١٩) انظر الكندي ٢٨٧ ، وابن سعيد نشر Talgvist ، ليدن ١٨٩٩ ، الجزء الاول ، ص ١٣.

(٢٠) انظر ابن سعيد ،٢٦.

الأسباب الاقتصادية والاجتماعية
لمعارضة قريش الدعوة إلى الإسلام

د . نبيه عاقل

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تحاول هذه الدراسة أن تتناول بالبحث والتحليل بعض الاحداث والظروف التي وجدت في مجتمع مكة قبل الاسلام،وموقف الاسلام ورسوله منها،وما طرأ على هذا المجتمع من تغيرات في ظل الدولة التي اقامها الاسلام على أساس من تعاليمه ، حيث شاعت عدالة اقتصادية واجتماعية كانت مثلا تطلعت اليه أجيال المسلمين على مر عصورهم ودولهم .

وطبيعي ان لا تستوعب الصفحات القليلة المخصصة لهذه الدراسة كل التفاصيل التي لابد منها لتتكامل جوانب البحث وتتضح الصورة على وجه مثالي،لذا أراني مضطرا لان ارسم الخطوط العريضة فقط،وأن أترك لفطنة القارىء ما لا يتسع له المجال أو ما هو معاد ومكرور .

ولن أعود بالذاكرة الى فترات سحيقة في القدم ، بل سأبدأ مع القرن السابق لبعثة الرسول الكريم وأحاول أن أوجه العناية الى بعض مواصفات المجتمع المكي قبل الاسلام ومظاهر الحياة واوجه النشاط فيه .

* * *

كانت قريش هي القبيلة التي تسكن مكة بعد جرهم وخزاعة ، كما تحدثنا المصادر العربية . وكان قصي بن كلاب اول بان لمجد قريش وموطد لنفوذها ، وكانت التجارة شغل القرشيين الشاغل وليس بدعا ان نقول ان مكة منذ ان ظهرت الى الوجود كانت مركزا تجاريا هاما ، وان ازدهارها كمركز تجاري مرتبط الى أبعد الحدود بوجود الحرم فيها ، وهو المنطقة التي تحرم فيها كل أنواع العنف والقتل . يضاف الى هذا أن موقعها الجغرافي ووجودها على مفترق الطرق التي تحمل

التجارة من اليمن الى سورية ومن الحبشة الى العراق قد ساعد على اضفاء الاهمية التجارية عليها . وهكذا فقد كانت مكة مقصد البدو الذين يرتادونها لشراء ما يحتاجون من البضائع التي تصلها من جميع الجهات بواسطة القوافل التجارية . ولم تأت نهاية القرن السادس الميلادي حتى وقعت معظم التجارة بين اليمن وسورية تحت ايديهم ومع مرور الزمن اخذت مكة تتحول من مركز تجاري فحسب الى مركز مالي هام تتم فيه عمليات مالية واسعة النطاق ، وساهم المكيون بانفسم في النشاط التجاري العالمي فتاجروا مع العراق وبصورة خاصة مع الحيرة ، كما تاجروا مع بلاد الشام . فكانوا ياتون اليها حاملين بضائع الهند ويعودون منها ومعهم الحبوب والزيت والخمور والاسلحة والمنسوجات والجواري . وهكذا كانت رحلة الشتاء والصيف ، وهكـذا شاعت في لغتهم الفاظ تجارية عديدة كـ : حساب ، وميزان ، وقسط وذرة ، ومثقال ، وقرض ، وسواها مما يتردد في القرآن الكريم الذي كان يمثل لغة العرب ابان التنزيل. وقد أدى هذا النشاط التجاري عند المكيين الى نشوء اعمال مصرفية ، ووجود فئة من الصيارفة الذين يهتمون بشؤون عملات الدول التي يتعامل المكيون معها . كما وجد بينهم المرابون الذين يقرضون الاموال للناس ويفرضون الفوائد الفاحشة على المدينين. ولن ادخل في متاهة التفسيرات العديدة التي يقدمها لنا ابن عباس واليعقوبي والطبري وسواهم في سبب تسمية قبيلة قريش بـ « قريش » وعندي ان الذي لا يجد المرء غيره مذهبا يرتضيه في تفسير السبب الذي لأجله سميت هذه القبيلة بهذا الاسم هو ان تكون قريش من « **القَرْش** » بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال. اذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة ، فسموهم به . كما ان ابن هشام يذكر ان التقرش : التجارة والاكتساب ، وان القروش ايضا التجارة والاكتساب ويأتي على ذلك بشاهد من كلام العـــرب .

واذا اضفنا الى كل هذا أن القرشيين ابتدعوا النسيء (١) لتتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية فلا يخل برحلتي الشتاء والصيف التجاريتين اللتين تقعان في فصلين ثابتين بقطع النظر عن الاشهر الحرم ووقوعها في فصول تختلف من عام الى عام ؛ لوجدنا ما كان للتجارة من أهمية بالغة في حياة المكيين قبل الاسلام . ولم تعد التجارة وسيلة

---

(١) يقول المسعودي : ان العرب في الجاهلية : « كانت تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء ». أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية . وقد رفض الاسلام النسيء . قال تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر » . وفي حجة الوداع قال صلوات الله عليه : « فلاشهر ينسا ولا عدة تخطأ، وان الحج في ذي الحجة الى يوم القيامة » . (الازرقي، ج١، ص ١٢٨) .

ارتزاق ومورد عيش بالنسبة للمكيين فحسب ، بل غدت الناظم لعلاقاتهم السياسية الدولية ، والمحور الذي تدور حوله شؤون اقتصادهم وعلاقاتهم بالقبائل العربية المختلفة ، والاطار الذي ينتظم حياتهم داخل مدينتهم ، والمعيار الذي تتدرج على أساسه رتبهم في المجتمع وما قام بينهم من فوارق في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

كما غدت مصالحهم التجارية هي التي تحدد انتماءهم الى هذا الحلف أو ذاك من الاحلاف التي قامت في مدينتهم قبل الاسلام ، كحلف المطيبين وحلف لعقة الدم وحلف الفضول وسواها . وقد استمر تطور هذه التحالفات والتكتلات القبلية في مكة بين فروع قريش المختلفة حتى عصر الرسول ، حيث كان هناك عند بعثته ثلاث فئات قرشية متطاحنة هي كما يلي : فئة اولى وتضم بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم والحارث بن فهر وعدي ، وفئة ثانية وتضم : بني عبد شمس ونوفل واسد وعامر ، وفئة ثالثة وتضم : بني مخزوم وجمح وعبد الدار . ويمكننا ان نلاحظ ان الفئة الاولى كانت تتضمن جماعة حلف الفضول باستثناء اسد التي حل محلها بنو عدي . كما انه كانت بين الفئتين الثانية والثالثة علاقات ود ومصلحة مشتركة ، ولا سيما في الميدان التجاري .

وأما الفئة الثالثة فواضح انها جماعة لعقة الدم القديمة . باستثناء عدي التي انتقلت الى صف الفئة الاولى . واذا كانت الوحدة والتضامن القبلي أمرين ضروريين تقتضيهما طبيعة الحياة في المجتمعات الصحراوية، واذا كان الشعور القبلي هو الشعور الذي يجمع افراد القبيلة الواحدة برباط الصالح المشترك ، فان الحال في مجتمع كالمجتمع المكي الذي كانت التجارة فيه عماد الحياة ، سارت على منوال مغاير لهذا الناموس الذي ينطبق على المجتمع الصحراوي خير انطباق .

فنمت في مكة فردية من نوع مختلف ، وذلك نتيجة للجو التجاري الذي كان يسيطر على حياتها ، اذ انا نشاهد انه اذا اقتضت مصلحة الطبقة التاجرة في مناسبة من المناسبات ان ينفرد فرد او جماعة من بينها بقرار يعود عليها بالفائدة ، كانت تضرب بمصلحة الجماعة وقضية التضامن القبلي عرض الحائط وترجح مصلحتها . وهكذا ظهر في مكة نوع جديد من التضامن المبني على اساس من المصلحة التجارية . فعلى اساس من المصالح التجارية قامت الاحلاف ، كما أنه على أساس من هذا الشعور التجاري وحدت قريش صفوفها بعد بدر وجمعت شتاتها ، على ماكان بينها من خلافات ، لتقف وقفة موحدة ضد المسلمين الذين يهددون تفوقها التجاري. وسيؤدي هذا التطور بالضرورة الى ضعف الروابط المبنية على اساس قرابة الدم ، والى نشوء روابط موحدة جديدة .

وتجدر الملاحظة هنا ان التطور في تنظيم العلاقات القبلية في هذه الفترة من تاريخ مكة ، قد رافقه تطور اقتصادي نقل أقتصاد هذه المدينة من الشكل البدوي الذي كان عليه في السابق ، الى الشكل التجاري الراسمالي مما زاد في تعقيد العلاقات بين افراد المجتمع وظهور طبقات (مستغلة) وطبقات (مستغلة) ، والى ظهور صراع طبقي بين الاغنياء ذوي المصالح المتسلطين ، والفقراء المحرومين . وقد لعب هذا المناخ الاقتصادي الجديد دورا هاما في الصراع العقائدي الذي قام في مكة بعد نزول الوحي والدعوة للاسلام بين فريقين :

فريق المؤمنين وهم من الثائرين على هذه الاوضاع او من المستضعفين المستغلين ، وفريق المعارضين المشركين الذين كانت مصالهم المادية المهددة حافزهم الوحيد للمعارضة كما سنبين بعد قليل . وهكذا فانه قبل ان يتنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم كان الناس يتفاضلون بما يتكدس في خزائنهم من أموال وبما لهم من قوافل تقطع البوادي والقفار ، وبما يترتب على ثرواتهم هذه من مكانة وجاه . وكان لهم في هذا الدين وهذه الالهة التي يعبدون خير حام وسند فقد انحرفوا بدين ابراهيم الحنيف عن اصوله وتعاليمه الموحدة ، وعبدوا الجبت والطاغوت وعظموا الاصنام والاوثان ، واستقسموا عندها بالازلام ، واتخذوا « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . ويذكر الازرقي (صاحب اخبار مكة ج ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦) انه كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنما يوم دخلها الرسول بعد فتح مكة . وبالرغم من انه ليس من اهداف هذا البحث ان يتناول وثنية العرب ودياناتهم قبل الاسلام بالدراسة ، فانه لابد لنا ان نلاحظ ان رجال الاعمال المكيين قد استغلوا هذا الدين وشعائره ليربطوه ربطا محكما بما يعود بالخير على تجارتهم . فقد حددوا مواعيد عقد الاسواق التجارية وجميع مايتعلق بشؤون البيع والشراء وعمليات التبادل التجاري بما يتلاءم وموسم الحج ، فكانوا ، قبل ان يلغى النسيء ،اذا صادف الحج في شهر ذي الحجة خرجوا الى عكاظ (١) يوم هلال ذي القعدة فاقاموا هناك في بيع وشراء مدة عشرين يوما . وبعد انقضاء الايام العشرين يتركون عكاظ الى ذي المجنة (٢) فاقاموا به عشرا يبيعون ويشترون . فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز (٣) فاقاموا به ثمان ليال يفعلون فعلهم في عكاظ وذي المجنة . ثم

(١) عكاظ : وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء من عمل الطائف على بريد منها . وهي سوق لقيس بن عيلان وثقيف .

(٢) المجنة : سوق اسفل مكة على بريد منها ، وهي سوق لكنانة ، وارضها من ارض كنانة

(٣) ذو المجاز : سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة على فرسخ من عرفة .

يخرجون يوم التروية(١) من ذي المجاز الى عرفة . وكان يوم التروية . كما يقول الازرقي،(٢) يحضر الى هذه الاسواق التجار ومن يريد التجارة والبيع .

* * *

في هذا الجو من الفوضى الاقتصادية والاجتماعية ، في هذا التيه من شريعة الغاب وحق القوي ومجد الغني ، في هذا الليل الداكن يلف حياة المستضعفين ويؤرق جفون الرافضين الثائرين ، يتنزل الاسلام على قلب محمد بن عبد الله ، رافعا رايات العدالة في الدارين شعارا وقولا وعملا فيهرع اليه الذين أمضهم طول الانتظار وكاد ياسهم أن يدفع بهم الى قنوط وخيبة ، فيجدون في ظله ما افتقدوه طويلا وما كانوا يتوقون اليه من احقاق حق وازهاق باطل .

كان محمد يدعو الى دين الله سرا اول الامر ، ثم جاءه الامر بعلنية الدعوة في الاية الكريمة : « فاصدع بما تؤمر ، واعرض عن المشركين » ، فما كان منه الا ان نقل دعوته من مرحلة السر الى مرحلة العلن . ولم تقدر قريش اول الامر خطورة دعوته عليها وعلى مصالحها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية، فلم تعره اهتماما كبيرا ولا قدرت المخاطر التي ستترتب على نجاحه فيما يدعو اليه ، حتى انه في رواية منقولة عن الزهري ، يقول ابن سعد ان كفار قريش كانوا في الايام الاولى للدعوة غير منكرين لما يقوله الرسول الكريم : « فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه أن غلام بني عبد المطلب يكلم من السماء » . (ابن سعد ، ج٣، ص١٩٩) . مما يدل على عدم اخذهم لدعوته مأخذ الجد ، او تقدير ماسيكون لها من اثار . ولكن الامر لم يطل وسرعان ما أخذت تتكشف لهم أبعاد الامور والمبادىء التي يدعو اليها محمد بن عبدالله وما سيكون لها من اثار وانعكاسات على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويربط المؤرخون عادة بدء معارضة قريش للرسول الكريم بعيبه الهتهم التي يعبدونها دون الله ، وذكره هلاك ابائهم الذين ماتوا على الكفر ، الامر الذي جعل ثائرتهم تثور ويعلنوا العداء له (انظر رواية الزهري التي ينقلها ابن سعد في طبقاته ج١، ص١٩٩) . ولعل مايثير الانتباه في قضية ربط معارضة قريش لدعوة محمد بذمه الهتهم وعيبه ابائهم الذين ماتوا على الكفر هو ما يمكن ان يقوم من تساؤل عن مقدار ارتباط المكيين بآلهتهم ، وحرصهم عليها بحد ذاتها . وفي الاجابة عن هذا التساؤل ودون اللجوء الى

---

(١) سمي يوم التروية لترويتهم من الماء بذي المجاز ، فقد كان المنادي ينادي ترووا من الماء لانه لا ماء بعرفة .

(٢) الازرقي ، اخبار مكة ، ج١ ، ص ١٢٩ .

شرح وتفصيل لا مجال لهما في هذه الدراسة يمكننا ان نجزم ان قضية استهتار المكي بالهته قضية اكيدة ، كما ان ايمانه بها كان من الضعف والتفكك بحيث لم تجد حنيفة ضيرا من اكل ربها الذي صنعته من حيس وعبدته دهرا ، ثم اصابتهم مجاعة فاكلوه ، فقال شاعرهم :

اكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

وحيث كسر امرؤ القيس القداح ورماها في وجه الصنم حين جاءه جوابه ينصحه بعدم الاخذ بثائر ابيه . كان المكي يعرف ان هذه الالهة لاتسمن ولا تغني من جوع وانه انما يعبدها : لتقربهم من الله زلفى ، وأنها شفيعتهم عند الله وواسطتهم اليه فقط . كما ان مصادرنا تحدثنا عن اشخاص مكيين تنصروا او تهودوا او عادوا لاعتناق دين ابراهيم ورفضوا عبادة الاوثان (يورد ابن حبيب في المحبر قائمة باسماء الذين رفضوا عبادة الاوثان من المكيين ، انظر ص ١٧١ — ١٧٢) .

وفي كل هذا ، وفي مناسبات اخرى سنعود للتذكير بها بعد قليل ، مايجعلنا نرى بوضوح ان عيب محمد لالهتهم لم يكن الامر الذي اثارهم ضده ، بل ربما كان الذي اثار مخاوفهم وجعلهم يحسون بخطر دعوة محمد هو ما قد ينجم عن هذه الثورة الدينية من انقلاب في المفاهيم والقيم السائدة في مجتمعهم والتي قد يكون من اول نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتفيأون ظلالها ، والتي تنبع الى حد بعيد من زعاماتهم الوثنية ووجود الكعبة ، رمز وحدة العرب ومحط انظارهم ، بين ظهرانيهم . فهم سدنة هذه الكعبة والمشرفون على خدمتها وحمايتها ، وهي التي اعطتهم ، بمناسك الحج اليها ، وبالالهة الموجودة داخلها ، ما يتمتعون به من مكانة وسيادة .

وكان اخشى مايخشون ان يأتي هذا الدين الجديد ليهدم هذه المقدسات،وبالتالي ليسلبهم ما لهم من سيادة وامتيازات . والى هذه القدسية الدينية لمدينتهم والى سيادتهم القبلية يعود الفضل في مكانتهم التجارية . فقد كانت اسواق التجارة ، كما ذكرنا ، تعقد في فصول تتلاءم ومواعيد الحج ، وكانت الدول العظمى صاحبة المصالح التجارية في العالم القديم تعرف لمكة وقريش هذه المكانة التجارية ، وتعرف ان الكعبة من اهم اسباب هذه المكانة . فكانت حين تريد التقليل من هذه المكانة توجه حملة ضد الكعبة (حملة ابرهة) لتضرب مركز عظمة قريش وسبب سيادتها . وهكذا فان عيب الالهة وذم الدين الوثني ومقدساته ، كان يمثل بالنسبة لقريش خطرا لا على سيادتها فحسب ، بل على تجارتها ، وبالتالي غناها وازدهارها . وفي هذا على مانعتقد ما يبرر ربط المؤرخين معارضة قريش لمحمد بعيبه الهتها وذم دينها . وتتضح اسباب هذه المعاضة وما تنطوي عليه من خوف كبار رجال المال والاعمال القرشيين على مصالحهم

الاقتصادية ، اذا استعرضنا ما يقوله عروة بن الزبير الراوية الذي لا ترقى الشبهات الى عدالته وضبطه ، في رسالة بعث بها الى عبد الملك بن مروان ، ردا على رسالة من عبد الملك يستفسر فيها منه عن امور تتعلق بفترة صدر الاسلام . يقول عروة في رسالته : « اما بعد ، فانه ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه اول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى **ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال** انكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، واغروا به من اطاعهم فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه الا من حفظه الله منهم » . (انظر الطبري ، ج٢ ، ص٣٢٨).

فالذين قادوا المعارضة بعد ان ذكر الرسول طواغيت قريش ، هم اناس من الطائف من قريش لهم اموال ، وواضح ان خوفهم على أموالهم ، وما قد تؤدي اليه دعوة محمد بن عبد الله من تغيير في هذا الدين الذي كان سبب ثروتهم وجاههم ، هو الذي حدا بهم الى اشعال نار النقمة ورفع لواء المعارضة ضد الدين الجديد .

وطبيعي الا تكون اوضاع مكة قبل الاسلام مقبولة من جميع الناس فيها ، لذا ما كاد الاسلام يتنزل على قلب الرسول الامين حتى استجاب له ، على ما يحدثنا الزهري، في رواية ينقلها عنه ابن سعد « من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به » ، (ابن سعد ، ج ١ ، ص ١٩٩) . والذي يثير الانتباه في رواية الزهري قوله ان اول المستجيبين لدعوة الرسول كانوا فئتين : **احداث الرجال ، وضعفاء الناس** . ولابد ان نشير الى ان فئة احداث الرجال من المؤمنين الاولين كانت تضم شبابا ينتسبون الى اشهر واقوى الاسر المكية واكثرها نفوذا .

وخير من يمثل هذه الفئة خالد بن سعيد بن العاص الذي كان ابوه من مشاهير رجال المال والاعمال في مكة (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٩) ونعيم بن عبد الله بن اسيد النحام الذي كان سيد بني عدى ، والذي رغم انه كان من اوائل من اسلم فانه لم يترك مكة ويهاجر الى المدينة حتى السنة السادسة من الهجرة ، ولعل السبب في ذلك انه كان في منعة من قومه ولم تستطع قريش ان تناله باذى (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩). ولم يكن خالد ونعيم الوحيدين بين رجالات هذه الفئة ، بل كان هناك عدة اخرون من الشباب الذين يتصل نسبهم باعظم الاسر المكية مركزا ونفوذا ، وكثيرا ماكانت اسرهم في الصف الاول المعارض للرسول ودعوته. حتى انه حين جرت معركة بدر بين الرسول والمكيين ، كثيرا ما وقف الابن ضد ابيه والاخ ضد اخيه وابن العم ضد ابن عمه . كما تضم فئة (احداث الرجال) هذه رجالا اغلبهم من جيل الشباب ولكنهم من اسر اقل نفوذا من الاسر الاولى . ورغم ذلك فهم

في اسرهم وبطونهم من ذوى المكانة والنفوذ . وغالبيتهم كانوا دون الثلاثين حين اسلموا ماعدا واحد او اثنين كانوا في الخامسة والثلاثين .

أما فئة (ضعفاء الناس) التي يشير اليها الزهري في روايته ، فكانت تضم رجالا لاتربطهم صلات قرابة دموية بقبائل مكة او بطونها ، بل تربطهم صلة الولاء او التحالف ، او كانوا رجالا مستضعفين من قبائل مستضعفة لا يستطيعون حماية انفسهم ، أو لا تستطيع قبائلهم حمايتهم . ومن هذه الفئة عبيد بني تيم الذين اسلموا واعتقهم ابو بكر، وهو من تيم ، ومفروض على قبيلته حمايته وحماية عبيده . ولكن تيم لم تقدم الحماية لابي بكر نفسه ولا لطلحة بن عبيد الله (وهو من تيم ايضا) حين آذتهما قريش وقيدتهما معا عقابا لهما على اسلامهما . ومن هذه الفئة ايضا الشخصان اللذان يتحدث عنهما ابن سعد ويصف استضعاف قريش لهما وهما : صهيب بن سنان وعمار بن ياسر ، اللذان كانا من احلاف تيم وعبد شمس معا . وفي هذا الموقف من تيم ما يذكرنا بما اوردناه انفا حول ظهور نوع جديد من التضامن في مكة هو التضامن المبني على اساس المصلحة التجارية والذي حل محل التضامن القبلي ، الذي كان عرف الصحراء قبل ان تغدو التجارة والمصلحة الاقتصادية محور حياة الناس .

وتجدر الملاحظة في هذا المجال ان كون الشخص له صفة الحليف لا يعني انه دون غيره من افراد القبيلة ، او لا حقوق له عليها ، وكثيرا ما كان الحليف يتمتع بمركز رفيع في القبيلة تفرضه همته وجده وصفاته عموما .

وهكذا فاننا نستنتج من كل ما تقدم ان الدين الجديد غدا بعد تنزله على قلب الرسول الامين دين الشباب الثائر على اوضاع مجتمعه المستعد للتضحية في سبيل تغيير هذا المجتمع وما يسوده من ظلم اجتماعي واقتصادي . كما ان الذين اعتنقوا هذا الدين لم يكونوا طرداء مجتمعهم او خلعاءه ،أو الفئة قليلة الشأن فيه، كما يحلو للبعض ان يصور ، بل كان غالبية المستجيبين له المستميتين في الدفاع عنه من افراد الاسر المتنفذة الذين لا يمكن اعتبارهم الطبقة الدنيا في المجتمع . واذا اردنا تقويما حقيقيا للغالبية العظمى من الاشخاص الذين تقبلوا دعوة الاسلام الاولى لوجدنا انهم كانوا في الاغلب الاعم من الذين ساءتهم احوال مجتمعهم والذين راوا الامتيازات التي يعيشها رجالات الطبقة العليا في مدينتهم واستغلالهم لخيرات المجتمع واحتكارها لذواتهم . فحين نادى الاسلام نداء الحق والعدل والتوحيد وجدوا فيه ما يتجاوب وما في انفسهم فتقبلوه وناصروه وتفانوا في سبيله . فهذا الصراع الذي شهده المجتمع المكي بعد نزول الاسلام لم يكن صراعا بين اغنياء وفقراء ، كما يحلو للبعض ان يصوره ، بل كان صراعا بين مستغلين (بالكسر) ، وثائرين على الاستغلال رغم انهم قد لا يكونون من بين

المستغلين (بالفتح) . هذه الملامح العامة التي كانت تسم مجتمع مكة قبل الاسلام ، بما فيها من ظلم اقتصادي وطبقية مبنية على اساس من الثروة والجاه والفرصة المنتهزة ، وما ادى اليه كل ذلك من فقد وافتقاد للعدالة الاقتصادية والاجتماعية ، جعلت الاسلام بما رفعه من شعارات وما وضعه موضع التطبيق من مبادىء ، الموئل والملاذ لكل ثائر على الظلم محب للعدالة كاره للاستغلال . ولم تكن دروب الدعوة الى دين الله مفروشة بالورود ، بل كانت الطريق شاقة والمسيرة عسيرة ، وكان الامتحان قاسيا ، فصمد المؤمنون وصبروا على انواع المكاره والاذى ، مما يعرف الجميع خبره ولا اراني بحاجة للتذكير به . وجاء التطبيق العملي لشعار المساواة ، واخوة المؤمنين وتفاضلهم في التقوى فحسب، في الايام الاولى لقيام دولة الاسلامبعد الهجرة الىالمدينة حيناوجد صلوات الله عليه (نظام المؤاخاة) . فقد كانت المشكلة الاولى التي واجهت الرسول بعد الهجرة مشكلة اقتصادية نبعت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا اموالهم في مكة وتركوها مملقين لا امل لهم في العودة او استرداد مايملكون . وكان في نفس الوقت يحاول ان يقيم رابطة متينة من الاخوة في الله بين الفئتين الاساسيتين اللتين يتشكل منهما المجتمع الجديد في المدينة ، وهما المهاجرون والانصار . لهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع الاسلامي الاول اوجد الرسول نظام المؤاخاة . ويقول ابن سعد ان عملية المؤاخاة تمت على مرحلتين : مرحلة آخى فيها الرسول بين المهاجرين بعضهم والبعض الاخر ، ومرحلة اخى فيها بين المهاجرين والانصار .

وكانت المؤاخاة « على الحق والمؤاساة » . وقد نص نظام المؤاخاة هذا على حق التوارث بين المتآخين دون الارحام . (انظر ابن سعد ، ج١ ص ٢٣٨) وكان المتآخون من المهاجرين والانصار تسعين رجلا ، خمسة واربعين من المهاجرين ، وخمسة واربعين من الانصار ، على مانزعم احدى الروايات ، او مئة على رواية اخرى ، خمسين من المهاجرين وخمسين من الانصار (ابن سعد ، ج ١ ، ٢٣٨) وقد جرت هذه العملية قبل غزوة بدر ، وكان مبررها كما يذكر السهيلي في (الروض الانف) ان الرسول اراد ان يذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقةالاهل والعشيرة، ويشد ازرهم بعضهم ببعض . وينقص تبرير السهيلي هذا ناحية هامة هي الناحية الاقتصادية ، او بشكل اوضح الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منه المهاجرون المسلمون الذين تركوا ديارهم وجاؤوا الى ديار غريبة ليس لهم فيها مايساعد على اقامة اودهم واود اسرهم ، فجاء نظام المؤاخاة حلا مؤقتا لازمتهم . ودليل صدق ما نذهب اليه في تبرير نظام المؤاخاة ، ان العمل بهذا النظام وما استتبعه من تنظيم لعملية الميراث توقف بعد النصر الذي حققهالمسلمون في غزوة بدر ، وما أفاء الله عليهم من غنائم واموال سدت عوز المحتاجين منهم ، فلم يعد له ما يبرره . ويؤكد ابن سعد في طبقاته هذا التفسير (انظر ابن سعد جـ ١ ص ٢٣٨) . كما ان الاية الكريمة التي تقول :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم » . (الانفال ، ٧٥) تنزلت على أثر نصر بدر ، فنسخت ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل انسان الى نسبه وورثه ذوو رحمه . ويؤكد هذه الحقيقة ابن حبيب في المحبر اذ يقول :

« فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة آخى بين المهاجرين والانصار على الحق والمؤاساة وان يتوارثوا بعد الممات دون ذوي الارحام . . . حتى نزلت سورة الانفال فصارت المواريث للرحم دون المؤاخاة . » (المحبر ، ص ٧١) .

وكان من جملة التدابير التي اتخذها الرسول لتفريج كرب الفقراء من المسلمين الذين هاجروا معه الى المدينة ان اذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم ان يناموا في المسجد، وكان يطعم بعضهم معه ، ويطلب من اصحابه القادرين ان يطعموا الاخرين . وقد اطلق على هؤلاء اسم (أهل الصفة) لانهم كانو يأوون الى صفة المسجد. أي المكان المسقوف منه ، وكان أبو ذر الغفاري منهم (انظر ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٥٥ — ٢٥٦) .

وتتوضح صورة جانب من جوانب التغيير الذي طرأ على ما كان يسود مجتمع الجاهلية من سنن وقيم ونظم بعد قيام دولة الاسلام وتنزل ايات التشريع مما يورده لنا ابن حبيب حول قضية توريث المراة . يقول ابن حبيب في الباب الذي يتحدث فيه عن « السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقى الاسلام بعضها واسقط بعضها » يقول ابن حبيب في (المحبر) :

« وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئا من الميراث . ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل » . وفي هذا ربط واضح بين حق الارث من جهة وبين المقدرة على تحصيل لقمة العيش من جهة اخرى . ولكن الاسلام رفض هذا المبدأ ووضع الامور في مواضعها ،حين عرضت المشكلة للمرة الاولى بعد هجرة الرسول الى المدينة . فقد مات كما يذكر ابن حبيب : « رجل من الانصار قبل نزول اية المواريث ، يقال له أوس بن ثابت من بني خطمة ، وترك أربع بنات الى الدمامة ما هن فاخذ بنو عمه ماله كله . فجاءت امرأة أوس الى النبي صلى الله عليه فقالت: يا رسول الله ، توفي اوس بن ثابت ، وترك مالا حسنا ، فجاء ابنا عمه قتادة وعرفطة ، فاخذا المال ولم يعطيا بناته شيئا ، وهن في حجري لا يطعمن ولا يسقين ، وليس في يدي ما يسعهن . فقال صلى الله عليه : ارجعي الى بيتك حتى أنظر ما يحدث الله فيهن . فانزل الله عز وجل : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون . ولم يبين ما هو فارسل صلى الله عليه الى قتادة وعرفطة:

لاتفرقا من المال شيئا ، فانه قد نزل لبنات اوس نصيب ، حتى انظركم هو . ثم نزلت اية الميراث : يوصيكم الله فياولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... فاعطى رسول الله صلى الله عليه البنات الثلثين ، والمراة الثمن » . وهذا المثال واحد من امثلة لاتحصى على ما احدثه الاسلام من تغيير في سنن الجاهلية التي لم ترع للعدالة الاقتصادية والاجتماعية حقا . ولم يكن توريث البنات والزوجات الذي حدثنا عنه ابن حبيب الا حلقة من سلسلة طويلة من التشريعات التي الزم الاسلام بها المؤمنين لاقامة مجتمع المساواة والعدالة . وليس المقصود من هذه الدراسة استقصاء جميع الحالات التي حرص فيها الاسلام على اشاعة عدالة السماء بين الذين امنوا به وربطوا مصيرهم بمصيره ، فهذا كما اشرنا في مطلع بحثنا مما يقصر عنه المجال المخصص لنا ، وسنتركه لنتابع الاطار العام للطريق الذي استنه الاسلام لاتباعه في امور دنياهم التي لاتستقيم الا اذا انسجمت مع ما أمر به الدين ، وأراده لمجتمع يأخذ فيه الله بزمام السلطة ويوجه فيه الاحكام .

* * *

ويقودنا كل ذلك الى الحديث عن التغيير الذي تم بعد أن قامت دولة الاسلام في ميدان الطبقية الاجتماعية . ومن اجل فهم هذا التغيير لابد ان نذكر ان الاساس الذي قامت عليه الطبقية الاجتماعية قبل الاسلام، هو نبل الدم وصفاؤه وعراقة المحتد ،الذي فرضته طبيعة الحياة القبلية في مجتمع الجزيرة الصحراوي . كانت القبيلة هي الوحدة الاساسية ، يترأسها شيخ يتمتع الى جانب عراقة النسب بصفات اهمها : الشجاعة والكرم والعلم بامر الحرب وقوة الارادة والصمود امام الشدائد وسداد الرأي والحلم والتجربة وسواها . وهو فوق كل هذا صريح النسب غير دعي ولا مستلحق ولا مشكوك في صفاء دمه ، وقضية صفاء الدم كانت الشرط الاهم في الوصول الى الرئاسة والناس في القبيلة انما يتفاضلون بهذا الصفاء ، فاعلاهم سوية هو الصريح الذي ينحدر من ابوين من نفس القبيلة، ويليه الصريح الذي ينحدر من ام صريحة ولكنها من غير قبيلة الاب، ثم ياتي بعد ذلك الموالي والعبيد . وتقوم الرابطة القبلية بين هؤلاء الافراد على اساس من صلة القرابة الدموية التي تربط الفرد بالجد الاعلى للقبيلة الذي تحدر منه افراد القبيلة عموما . اما التحالف فكان يشكل الاساس الثاني من اسس الروابط القبلية . وضمن هذا الاطار ، يجب ان ننظر الى من كانت القبيلة تطلق عليهم اسم **الحليف** أو **المولى** ، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة من المواطنين من الدرجة الثانية في المجتمع القبلي . وقد ادى هذا التنظيم الطبقي الذي يقوم على اساس رابطة الدم الى اهتمام عرب الجاهلية اهتماما فائقا بقضية الانساب ، ونشوء علم مستقل هو علم الانساب ، يتخصص فيه اناس منقطعون له هم النسابون ، الذين نقل عنهم النسابون

المتأخرون كل ماكتبوا من مؤلفات في ميدان علم الانساب . وهكذا فقد جاء الاسلام والناس طبقات ، وطبقاتهم هذه يتحكم فيها امران : صفاء دمهم ونبله وعراقة محتدهم من جهة ، وما لهم من مال وجاه ونفوذ وسلطان من جهة اخرى . وطبيعي ان يرفض الاسلام هذه الحال ويقيم معايير جديدة للنظام الاجتماعي تتفق والمبادىء التي اطلقها والاساس الذي قام عليه .

لقد كان الاساس الذي قام عليه المجتمع الجديد في ظل الاسلام هو المساواة ، والمؤمنون سواء عند الله الا فيما فضل الله به بعضهم على بعض من درجات التقوى . يقول الله تعالى : « يا ايها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . ويأتي المفسرون فيفسرون ذلك بقولهم : « فان التقوى تكمل بها النفوس وتتفاضل بها الاشخاص ، فمن اراد شرفا فليلتمسه » (البيضاوي، ج٢، ٢٧٦) . وواضح من كل ذلك ان المبدأ الذي اطلقته هذه الاية الكريمة هو ان التمايز بين البشر امر غير مقرر لاي سبب كان . وجاءت احاديث الرسول صلوات الله عليه موضحة ومؤكدة لمبدأ المساواة هذا . فهو الذي قال في خطبة الوداع : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، وقوله : « الناس سواسية كاسنان المشط » . ويؤكد ماذكرناه من أن التقوى هي المعيار الذي يتفاضل الناس على أساسه قوله صلوات الله عليه : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » . ويعتبر طه حسين (الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ١٠ وما بعدها) قضية المساواة هذه من اهم ما اثار حفيظة قريش ضد الرسول ، فيقول : « ان الاسلام انما جاء قبل كل شيء بقضيتين اثنتين : اولاهما التوحيد ، وثانيتهما المساواة بين الناس . وكان اغيظ ما غاظ قريشا من النبي ودعوته ، انه كان يدعوها الى هذه المساواة ، ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير . وانما كان يدعو الى ان يكون الناس جميعا سواء كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم عن بعض ، ولا يستعلي بعضهم على بعض . وقد سخطت قريش اشد السخط واعنفه على النبي صلى الله عليه وسلم لما اظهر من ذلك حتى لأكاد اعتقد انه لو قد دعاها الى التوحيد دون ان يعرض للنظام الاقتصادي والاجتماعي ، ودون ان يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير ، وبين القوي والضعيف ، اقول : لو قد دعاهم النبي الى التوحيد وحده دون ان يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ، أو لأجابه من قريش من اجاب ، وامتنع عليه منها من امتنع دون ان يلقى في ذلك مشقة او عنتا . ومهما يكن من شيء . فقد سخطت قريش على النبي الكريم . لانه عرض نظامها الاجتماعي ، وفرض عليها نوعا من العدل لا يلائم منافع ساداتها وكبرائها » .

وفي كلام طه حسين هذا تلخيص رائع لكثير من الافكار التي عرضناها حتى الآن .

على أن مبدأ المساواة هذا ، لم يحل دون قيام نظام تفصيلي للطبقات . فقد نشأت مع مرور الزمن وبمناسبة بعض الاحداث مجموعة جديدة من المعايير لتدريج الجماعة الاسلامية وتقسيمها الى طبقات . وكانت المساواة اول الامر هدفا بحد ذاتها وعامة في كل شيء ، فقد سئل الرسول صلوات الله عليه مرة ان يعفو عن سارقة لانها تنتمي الى اسرة نبيلة ، فاجاب بما معناه : « ان ما اهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا اذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا اذنب الشريف تركوه ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يدها » .

وجاء اول الخلفاء الراشدين من بعده ، فمضى على سنته في المساواة بين الناس ، اذ تحدثنا المصادر ان ابا بكر حين قسم غنائم الحرب بين المسلمين ، راعى مبـدأ المساواة هذا اشد المراعاة فلم يفرق بين المستحقين سواء كان واحدهم كبيـرا ام صغيرا ، عبدا ام حرا ، ذكرا ام انثى . (ابو يوسف ، الخراج ، ط بولاق ١٣٠٢ ، ص ٢٤) ولكن حين آلت الخلافة الى عمر بن الخطاب وضعت بعض المعايير الناظمة لهذه المساواة مع الحفاظ على جوهر الفكرة التي تسوي بين الناس بقطع النظر عن فوارق المولد . وكانت وجهة نظر عمر تنطلق من اعتقاد بان الناس لا يمكن ان يكونوا سواسية من حيث الايمان . ولما كان تقسيم الناس الى طبقات حسب عمق اخلاصهم للدين أمرا عسيرا يستحيل ضبطه ، لذا اوجد عمر أساسين جديدين لتقسيم الناس الى طبقات ، وهما : القرابة من الرسول ، والسابقة الى الاسلام . وغدا هذان المبدآن الحد الفاصل في تحديد مركز المؤمن ، وكانت النتيجة العملية التي ترتبت على هذا التقويم الجديد للمؤمنين هي الاختلاف في كمية العطاء السنوي الذي يتقاضاه المؤمن من بيت مـال المسلمين . وهكذا قامت ارستقراطية جديدة مبنية على اساس التفاوت في الايمان ، واخذ الناس مراتبهم الاجتماعية على اساسين محددين ، كان المنبع الذي انبثقا منه هو انه لا يمكن ان تكون هناك مساواة بين من حارب لينشر الاسلام ، من حارب ليقضي عليه . وطبيعي ان تلقى تعليمات عمر التي ادت الى اقامة ارستقراطية دينية تحل محل الارستقراطية المبنية على نبل الدم كل اشكال المعارضة من الذين لم يكن ايمانهم عميقا او من الذين تضررت مصالحهم بنتيجة هذا التغيير . ولكن عمر اظهر تصميما لايعرف الهوادة في اصراره على تطبيق هذه المساواة وتفاضل الناس في التقوى ، وحديثه مع جبلة بن الايهم حين ضرب جبلة رجلا من فزارة وهشم له انفه خير مثال على اصرار عمر هذا ، فقد طلب عمر من جبلة ان يرتضي الفزاري والا فانه سيقيده منه . قال جبلة : ماتصنع بي ؟ فاجاب عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت . قال جبلة : وكيف ذاك يا امير المؤمنين ، وهو سوقة وانا ملك . فاجابه عمر : ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الا بالتقى والعافية . وكان ما هو معروف من هرب جبلة الى القسطنطينية وتنصره هو وقومه .

وهكذا فقد حرص الرسول الكريم ، ومن آلت اليهم مقاليد السلطة من بعده من صحابته ، ان يقيموا دولة المساواة والاخوة التي دعا اليها الاسلام اشد الحرص ، وان يحدثوا انقلابا جذريا في النظام الطبقي الذي كان يسود مجتمع الجاهلية . ولكن الامور مالبثت ان اخذت اتجاها جديدا بعد عصر الفتوح ، فرضه الواقع الجديد للدولة التي غدت تضم مئات الآلاف من المسلمين غير العرب، والذين كان لا بد لهم من مكان في هذا المجتمع الجديد . وقد ادى كل ذلك الى نشوء واقع جديد اخذت بوادره تظهر منذ خلافة عثمان وهو بروز العرب كطبقة متميزة على من سواها من المسلمين ، بحجة ان العرب هم قوام الاسلام وحملة رايته ، والذين كان لهم فضل هداية الاخرين . فنشأ بنتيجة ذلك ، ومنذ اخريات العهد الراشدي ، نوعان من العصبية ، بدلا عن العصبية القبلية القديمة :

١ ـ العصبية العربية : ومصدرها ان العرب ، بعد ان كانوا قبائل متفرقة ، غدوا امة متحدة في اللغة والدين والهدف والحكومة .

٢ ـ العصبية الدينية الاسلامية : وتضم جميع المسلمين عربا كانوا ام غير عرب .

ونشأ عن هاتين العصبيتين ان الناس اصبحوا اما مسلمين او غير مسلمين ، والمسلمون اما عربا او غير عرب . ورغم بوادر العصبية العربية التي اشرنا اليها ، فقد ظلت قضية الدين هي اقوى الفواصل التي تفرق بين أفراد المجتمع ، وظل هناك حاجز كبير بين المؤمن وغير المؤمن . ولعل الاساس في هذا انهم كانوا يؤمنون انه ليس هناك ولا يمكن ان تكون هناك مساواة بين مسلم وغير مسلم . فالاسلام في نظر المسلمين خاتم الاديان والطريق المستقيم والحقيقة النهائية والازلية. والمسلم بالتالي وبالضرورة اعلى مقاما من اولئك الذين يتبعون ديانات ادنى قدرا من الاسلام . وبفضل هذا التفوق اصبح للمسلمين حقوقا عليا في الحكم .

ليس من اهداف هذا البحث ان يتطرق للحديث عن الطبقات الاجتماعية في عصور الاسلام المختلفة ، وان ما اوردناه من حديث عن الانقلاب الذي احدثه الاسلام في اسس النظام الاجتماعي كان يهدف الى تبيان الاسباب التي دعت قريش لمعارضة دعوة محمد بن عبد الله ، وهو موضوع بحثنا . ولكن لابد لنا من ان نذكر ان عصبية النسب التي كانت عماد النظام الاجتماعي قبل الاسلام ، قد تحولت في عصر صدر الاسلام الى وجهة دينية ، فأصبح اشرف الانساب اقربها الى الرسول ، وبالتالي اصبحت قريش بشكل عام ، وهي قبيلة الرسول ، وآل هاشم ، وهم ال بيت الرسول ، في اعلى طبقات

الشرف . ويتبعهم اصحاب السابقة في الاسلام من العرب وسواهم . وبالرغم من ان الاسلام هاجم الاساس الذي بني عليه نظام الطبقات في الجاهلية وهو عراقة النسب، واعتباره النسب شيئا لاغنى فيه عند الله ، وتأكيده المساواة بين المؤمنين جميعا ، فقد نشأت منذ صدر الاسلام ارستقراطية مبنية على اساس شرف الدم ، ولكن شرف الدم هذا مرتبط بصاحب الدين الجديد ، محمد رسول الله .

* * *

وبعد ، فهذه بعض من ملامح التغيير الذي احدثته دعوة الاسلام التي اطلقها صادقة مخلصة محمد بن عبد الله ، فارتعدت لها فرائص من كانوا يتربعون على عروش المال والجاه من قرشي مكة ، وكانت لهم السيادة والجاه ، على من سواهم من مواطنيهم ، فقاتلوا قتال المستميت ليطفئوا نور الله ولكن الله بالغ امره .

وليس من شك في ان نصر الاسلام على من وقفوا في وجهه . كان حصيلة ايمان عميق وجهد صادق ، ما لبثت ان اينعت ثماره حضارة ومجدا ونورا عم افاق الارض من مشارقها الى مغاربها .

* * *

الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق
من الفتح حتى عام (٨٦هـ/٧٠٥م)

د . ملكة أبيض

كلية التربية ــ جامعة دمشق

اثار هذا الموضوع ملاحظتان تتعلق الاولى بتاريخ بناء مسجد دمشق ، والثانية بتاريخ بدء التعليم فيه .

فالملاحظة الاولى هي اغفال الدكتور حسين مؤنس ذكر جامع دمشق بين المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ، في كتابه (المساجد) الذي صدر في كانون الثاني ١٩٨١ في الكويت ضمن سلسلة (عالم المعرفة) فهذه المساجد في رأيه هي : مسجد المدينة، ثم مسجد البصرة عام ١٤هـ / ٦٣٥م ، ومسجد الكوفة عام ١٥ او ١٧هـ/ ٦٣٦ أو ٦٣٨ م ، ومسجد الفسطاط عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، ومسجد عقبة بن نافع في القيروان ٥٠ــ٥٥ هـ /٦٧٠ــ٦٧٥ م . وقدبرر اغفال مسجد دمشق بان المسلمين لم يبنوا مسجدا جامعا في دمشق قبل عهد الوليد وانما انتفعوا خلال تلك الفترة بجزء من المعبد الروماني الذي كان مهجورا في معظم اجزائه ماعدا جزءا صغيرا اتخذه المسيحيون مصلى لهم ، وقد حول المسلمون المعبد الى مسجد باضافة اشياء خشبية كالمنبر المتنقل والمحراب والمقصورة والظلات التي كان المؤذنون يستظلون بها عندما يرفعون الاذان .

والملاحظة الثانية هي توكيد الدكتور احمد رمضان احمد في بحثه الذي قدمه للاحتفال بابن عساكر ، في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته ،والذي اقيم في دمشق بين ٢٣ــ٢٥ نيسان ١٩٧٩ ، ان دراسة السُبع التي بدأت عام ٨٢هـ/٧٠٢م في خلافة عبد الملك بن مرروان تعد بداية التدريس في جامع دمشق ، مستندا في ذلك الى الروايات التي تتحدث عن السبع وتقول ان هذه الدراسة محدثة ، احدثها هشام بن اسماعيل المخزومي في قدمته على عبد الملك .

لذلك انقسم بحثي الى قسمين .

الاول : وضع مسجد دمشق قبل اعادة بنائه وتوسيعه من قبل الوليد بن عبد الملك .

والثاني : وضع التربية او التعليم فيه .

وحين اتحدث عن التربية في هذا المقام انطلق من المفهوم الذي يضعه (جورج دوبي) لتاريخ التربية ، والذي يقول : ان تاريخ التربية يهتم بدراسة جميع الوسائل التي تنقل النماذج الثقافية الى الافراد .

ويعني ذلك ان تاريخ التربية يجب الا يقتصر على دراسة المؤسسات المدرسية ،بل ان عليه ام يعطي الاهمية لجميع الظروف التي يتم فيها الاتصال بين الفرد ومحيطه كالاجتماعات والاسواق والقوافل التجارية والحملات العسكرية وغيرها ، ولجميع اشكال الاتصال كالرواية والوعظ والمذاكرة والمناظرة والرسائل وتسجيل الملاحظات.

* * *

بداية الجامع :

يتفق المؤرخون على ان الوليد بن عبد الملك بنى مسجد دمشق عام ٨٦هـ/٧٠٥م على الشكل الذي نراه اليوم . الا انهم يختلفون حول وضع المسجد قبل ذلك التاريخ.

فبعضهم يرى ان المسلمين قاموا بعد الفتح ببناء مسجد خاص بهم الى جانب كنيسة القديس يوحنا ، دون ان يحددوا تاريخ البناء ، وبعضهم يقبل الفكرة القائلة ان المسلمين والمسيحيين اقتسموا مبنى الكنيسة واقاموا يمارسون شعائرهم الدينية في قاعة واحدة مدة سبعين عاما ، والبعض الاخر يقول ن المسلمين استخدموا الكنيسة خلال تلك الفترة دون ان يعنى بالترتيب الذي تم بشأن المسيحيين . ويرجع هذا الاختلاف في الرأي الى ان النصوص التي تتعلق بهذا الموضوع مجزأة وغامضة الى حد ما . وقد توافر لنا منها ما يلي : جاء في (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر :

١ ــ « كان خالد بن اللجلاج على بناء مسجد دمشق سنة ١٤ هـ ، أي سنة فتح دمشق »(١) يشير هذا النص صراحة الى بناء المسجد وتاريخه .

٢ ــ « سمعت أبا رزعة يقول : مسجد دمشق خطه ابو عبيدة بن الجراح وكذلك

مسجد حمص»(٢) يتضمن هذا النص اشارة الى اقامة المسجد وتاريخها بصورة تقريبية ، فقد توفي أبو عبيدة عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م ، وهو يتفق كل الاتفاق مع النص السابق .

٣ ـ « عن عوف بن مالك الاشجعي قال : بينما انا راقد في كنيسة يوحنا وهي يومئذ مسجد يصلى فيها »(٣) . وعوف بن مالك الاشجعي الغطفاني صحابي شهد فتح الشام وسكن دمشق وتوفي سنة ٧٣هـ /٦٩٢م(٤) . وان دل هذا النص على شيء فهو يدل على ان المسلمين اتخذو الكنيسة مصلى لهم في فترة ما لا نعرف مداها، ثم تبدل هذا الوضع فيما بعد .

٤ ـ قال ابو مشجعة بن ربعي الجهني : قدم عمر (ابن الخطاب)الجابية لفرض الخراج (سنة ١٦هـ) وذلك بعد وقعة اليرموك .. ثم ارتحل حتى اتى دمشق فشاطرهم منازلهم وكنائسهم ، وجعل يأخذ الحد القبلي من الكنيسة لمسجد المسلمين لانها انظف واطهر ، وجعل يأخذ هو بطرف الحبل ويأخذ النبطي بطرف الحبل حتى شاطرهم منازلهم(٥).

يشير هذا النص الى التقسيم ، ولكنه لايذكر صراحة كنيسة القديس يوحنا .

٥ ـ قال تمام (ابن محمد الرازي) : وانبانا يحي بن عبد الله ، انبأ عبد الرحيم بن احمد المازني ، انبا احمد ابن المعلى اخبرني احمد بن ابي العباس انا ضمره عن علي بن ابن حملة قال : كان موضع مسجد دمشق كنيسة من كنائس العجم . فكان المسلمون يصلون في ناحية منها والنصارى في ناحية منها . فلم يزالوا كذلك منذ فتحت حتى ولي الوليد بن عبد الملك فقال لهم : ارى ان نأخذ نصف هذه الكنيسة فنبني لكم كنيسة حيث شئتم من دمشق(٦).

اثار هذا النص قدرا كبيرا من النقاش في العصر الحديث . لذلك حرصنا على تسجيل سلسلة رواته كاملة . والنقاش لم يتعرض في الحقيقة لموضوع تقسيم الكنيسة فهذه النقطة ثابتةلاجدال فيها ، فقد وردت في النصين السابقين وفي مواضع اخرى من (تاريخ مدينة دمشق)(٧) وانما تناول المعنى الذي يجب ان تفهم به كلمة الكنيسة في هـذه النصـوص .

فهذه الكلمة قد تؤخذ بالمعنى الضيق فتفيد القاعة التي تؤدي فيها شعائر الدين وقد تؤخذ بالمعنى الواسع فتفيد مبنى الكنيسة المسقوف مع الحرم المكشوف الذي يتصل به والذي يعد جزءا من الكنيسة وفي هذه الحال يعني تقسيم الكنيسةتركالقسم

المسقوف للمسيحيين واعطاء المسلمين الحق في بناء مسجدهم في الحرم المكشوف ،كما تتخذ المشاركة معنى الجوار . وفي (تاريخ مدينة دمشق) ذكر لترتيب مشابه يتعلق بقسمة المنازل . يقول ابن عساكر في ترجمة سمرة بن فاتك الاسدي :

« صحابي تولى قسمة المساكن بعد فتح دمشق . كان يترك الرومي في العلوي ويسكن المسلم في السفلي لئلا يضر المسلم بالذمي »(٨) .

والواقع اننا لم نعثر على دليل يؤيد فرضية اداء المسلمين والمسيحين شعائرهم الدينية في القاعة نفسها من كنيسة دمشق ، عدا النص رقم ــ ٥ــ الذي سبق ذكره . فلو كان ذلك قد حدث بالفعل طوال مايقارب ثلاث ارباع القرن لكنا سمعنا عن ترتيبات لمنع احتكاك الطرفين وتشويش احدهما على الاخر ، او لكان الرواة قد نقلوا لنا بعض الحوادث التي كان من الطبيعي ان تحدث في مثل هذه الظروف .

لذلك يعرض الدكتور صفوح خير وضع الجامع والكنيسة في تلك الفترة بصورة توحي بتجاور المؤسستين يقول : « ولما كان عدد المسلمين قليلا في اول الامر فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين بمعبدهم القديم(كنيسة القديس يوحنا المعمدان) واصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ، ومسجدا للمسلمين في الجانب الشرقي . وظلت هذه الحال من الجوار بينهما أكثر من نصف قرن الى ان شرع الوليد في بناء الجامع الاموي الكبير »(٩) .

اما الدكتور نيكيتا ايليسيف فهو يقول صراحة ان كلمة الكنيسة الواردة في نص ابن عساكر (الذي نقله عن ابن المعلى) يجب ان تفهم بالمعنى الواسع . وهكذا يكون الفاتحون قد تركوا مبنى الكنيسة المسقوف للمسيحين ، وابتنوا لانفسهم مسجدا صغيرا يستند الى القسم الشرقي من الحائط الجنوبي للسور في الحرم المكشوف . ويدعم قوله هذا بأن الاسقف الغالي (نسبة الى بلاد الغال) اركولف Arculf الذي مر بدمشق حوالي ٥٠هـ/٦٧٠م ، اشار الى وجود معبدين متميزين لكل من المسلمين والمسيحين ويرى ان عبد الملك بن مروان طالب النصارى بالكنيسة عندما توالى الدخول في الاسلام بين نصارى دمشق واصبح المسجد اصغر من ان يسع المسلمين ولكن المفاوضات فشلت في عهده ثم جاء الوليد فاتمها بالصورة المعروفة(١٠) .

واما الدكتور حسين مؤنس فهو يغفل ذكر جامع دمشق بين المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ،وهي حسبما ذكر بعد مسجد المدينة : مسجد البصرة عام ١٤هـ/٦٣٥م، ومسجد الكوفة عام ١٥ أو ١٧هـ /٦٣٦ او ٦٣٨م ، ومسجد الفسطاط عام ٢١هـ/٦٤٢م ومسجد عقبة بن نافع في القيروان عام ٥٠ــ٥٥ هـ /٦٧٠ ــ ٦٧٥م ، مبررا ذلك بأن

المسلمين لم يبنوا مسجدا جامعا في دمشق قبل عهد الوليد بل انتفعوا خلال تلك الفترة بجزء من المعبد الروماني الذي كان مهجورا في معظم اجزائه ماعدا جزءا صغيرا اتخذه المسيحيون مصلى لهم . وقد حول المسلمون المعبد الى مسجد باضافة اشياء خشبية كالمنبر المتنقل والمحراب والمقصورة والظلات التي كان يستظل بها المؤذنون عندما يرفعون الاذان(١١) .

هذا مجمل الفرضيات التي وضعت لتفسير بداية مسجد دمشق .

ولانستطيع في الحقيقة اتخاذ موقف جازم بشانها في ضوء معلوماتنا الحالية الااننا نرجح الفرضية القائلة ان العرب المسلمين بنوا مسجدهم الخاص في الموضع الذي يذكره الدكتوران صفوح خير ونيكيتا اليسييف من حرم الكنيسة على اساس من معرفتنا بوضع العلاقات التي قامت انذاك بين العرب الفاتحين واهل الشام الاصليين وبمكانة المسجد ولاسيما المسجد الجامع في حياة الجماعة الاسلامية .

فالعلاقات بين المسلمين والمسيحيين كانت طيبة بصورة عامة ولاسيما في الفترة التي نتحدث عنها ، مبنية على احترام كل فئة لحقوق الفئة الاخرى وعقائدها ومشاعرها . ولا يتحقق ذلك في ظروف اقتسام الفئتين قاعة واحدة لاداء الوظائف التي كان ينهض بها كل من المسجد والكنيسة انئذ .

* * *

وهذا ينقلنا الى النقطة الثانية وهي مكانة المسجد في حياة الجماعات الاسلامية الاولى . فقد كان المسجد يقوم بالنسبة لها مقام عدد كبير من مؤسساتنا الاجتماعية المعاصرة . كان المعبد الذي يؤدي المؤمنون فيه شعائرهم الدينية والمعهد الذي يتعلمون فيه امور دينهم ودنياهم ، ودار القضاء التي يلجؤون اليها لحل خلافاتهم ، والمنتدى الذي يؤمونه ليتصل بعضهم ببعض ويتداولوا في شؤونهم الادارية والسياسية والعسكرية ويستمعوا الى قرارات امرائهم واخبار فتوحهم .. كان كل ذلك يتطلب مكانا مستقلا تنفرد فيه الجماعة الاسلامية .

ولم يكن وجود الكنيسة (بالمعنى الضيق) الى جانب المسجد ليضر كثيرا بسير هذه الامور نظرا لبنائها المغلق من كل الاطراف ماعدا شيئا من التشويش الناتج عن ارتفاع اصوات النواقيس ، اعتاد عليه المسلمون تدريجيا ، كما اعتاد المسيحيون على سماع الاذان وان كانوا قد تذمروا احيانا كما جاء في خبر معاوية مع ملك الروم (انظر حاشية ٧).

وهناك ميزات اخرى لهذه الفرضية وهي انها توفق بين النصين ١و٢ اللذين يتحدثان عن بناء الجامع ، والنصين ٤و٥ ، اللذين يتحدثان عن تقسيم الكنيسة . ويؤيدها قول البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢): « ولما ولي معاويةبن ابي سفيان اراد ان يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق » . وقول ابن الفقيه الهمداني (تبعد ٢٩٠هـ/٩٠٣م) « ولما اراد الوليدبن عبد الملك بناءمسجد دمشق دعانصارى دمشق فقال: انا نريد ان نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه ونعطيكم موضع كنيسة حيث شئتم(١٢) ولانستبعد مطلقا ان يكون المسلمون قد استخدموا الكنيسة (بالمعنى الضيق ايضا) ريثما اتموا انشاء المسجد وايصال الماء له تماما كما فعلوا في حمص(١٣) .

ولكن ذلك لم يكن ليتطلب اكثر من اشهر او سنة لبساطة المساجد التي بنيت في تلك الفترة .

وهكذا يبدو لنا ان دمشق حظيت بمسجدها الجامع خلال السنوات الاولى للفتح وسرعان ما اتخذ والي الشام معاوية بن ابي سفيان قصرا جنوبي الجامع لايفصله عنه الا جدار ترك فيه بابا يمر منه الى مقصورة الجامع ليشارك في النشاط الديني والتربوي للجماعة ويعرض الامور الهامة عليها . وفي خلافة معاوية كان يوم الجمعة بدمشق يوما مشهودا . كان فضالة بن عبيد الانصاري يقف بالناس ويحدثهم قبل خروج الخليفة ثم يخرج الخليفة فيخطب ويصلي بالناس(١٤). وخلال الخطبة كان معاوية يذكر المسلمين الذين سكنوا اطراف دمشق بواجبهم في الحضور الى المدينة وشهور الصلاة الجامعة : « عن طلحة بن ابي قنان انه سمع معاوية يقول : يا اهل قردا يا اهل جولان ، الجمعة الجمعة فانا انما نحييها لئلا تفوتكم »(١٥) .

وعن مهاجر بن ابي مسلم ان معاوية كان يخطب في جامع دمشق ويقول : « ياأهل قردا ياأهل زاكية واقاصي الغوطة لاتدعن الجمعةتفوتكم بدمشق »(١٦). وعنه ايضا ان معاويةكان يصلي يوم الجمعة بنهار طويل وكان اهل القريات من مرج الصفر يشهدونها معه ثم ينصرفون الى اهلهم فيأتونهم قبل غروب الشمس(١٧) وتضيف روايةيونس بن ميسرة بن حلبس الى هذه الاماكن البثنية(١٨) كما كان معاوية يحض المسلمين على التعلم ويروي لهم في خطبه على منبر جامع دمشق الحديث الشريف الذي يقول «ايها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين انمايخشى الله من عباده العلماء » (١٩) ويندب المعلمين لتعليم الناس القرآن وامور الدين في الجامع ، وكان يعلن من على المنبر القرارات الهامة ويطلع الجماعة على الانباء التي ترده من مختلف ارجاء الدولة (٢٠).

وقد استمرت هذه التقاليد في عهد عبد الملك بن مروان .

الدور التربوي للمسجد الجامع في تلك الفترة

تجلى الاهتمام بالتربية لدى تنظيم جيش الفتح نفسه فعلى طريق الشام كان جيش اليرموك يضم قاضيا هو ابو الدرداء وقاصا هو ابو الدرداء نفسه في رواية وابو سفيان ابن حرب في رواية وقارئا هو المقداد بن الاسود(٢١) ، كما كان يضم الفا من اصحاب الرسول (ص) بينهم مئة بدري(٢٢) .

وعندما استقر الفاتحون في الشام وولي يزيد بن ابي سفيان جند دمشق ، كتب الى الخليفة عمر طالبا ارسال معلمين يعلمون أهل الشام القرآن ويفقهونهم . فأرسل الخليفة ثلاثة من الصحابة الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول (ص)وهم: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وابو الدرداء واوصاهم ان يبداوا بحمص فان رضوا عنها فليخرج واحد الى دمشق واخر الى فلسطين . فأقام عبادة بحمص وخرج ابو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين . ومات معاذ عام طاعون عمواس (١٨هـ/٦٣٩م) فصار عبادة بعدها الى فلسطين ومات بها عام (٣٤ هـ/٦٥٤م) ،ولم يزل ابو الدرداء بدمشق حتى مات عام (٣٢هـ/٦٥٣م) . وكان المكان الطبيعي لتعليمه مسجد دمشق . لذلك كانت عبارتا مشيخة الجند ومشيخة المسجد مترادفتين في تلك الفترة كما سنرى .

كان تعليم ابي الدرداء يتضمن على الصعيد الرسمي الاقراء والقصص فهو قارىء الجند وقاصهم بالاضافة الى كونه قاضيهم . ولكن الموضوعات التي تناولها تجاوزت ذلك الى الحديث والفقه والحكم والزهد . وقد تميز في جميع هذه الميادين بحيث اصبح الاساتذة والطلبة يأتون اليه من مختلف الاقطار الاسلامية . وابرز مثال على كفاءته ذلك التنظيم الذي ابتكره لتعليم القرآن لاكبر عدد من الناس بأقصر وقت . قال ابو عبيد الله مسلم بن مشكم « قال لي ابو الدرداء : اعدد من يقرأ عندنا يعني في مجلسنا هذا. فعددت الفا وستمائة ونيفا . فكانوا يقراون ويتسابقون عشرة عشرة لكل عشرة منهم مقرىء . وكان ابو الدرداء قائما يستفتونه في حروف القران يعني المقرئين ، فاذا احكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى ابي الدرداء . وكان ابو الدرداء يبتدي في كل غداة اذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءا من القران واصحابه محدقون به يستمعون الفاظه ، فاذا فرغ من قراءته قام كل رجل منهم الى موضعه وجلس على العشرة الذين اضيفوا اليه . وكان ابن عامر (عبد الله بن عامر اليحصبي مقدما فيهم »(٢٣) . وقال يزيد بن ابي مالك « ان ابا الدرداء هو الذي سن هذا الحلق يقرأ فيها »(٢٤) وبعد الفراغ من الاقراء كان ابو الدرداء يجلس في احدى زوايا المسجد يحدث الناس ويفتيهم (٢٥)

ــ قال كثير بن قيس : كنت جالسا مع ابي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل من اهل المدينة لسماع حديث يحدث به ابو الدرداء عن الرسول (ص) فقال له ابو الدرداء : ماجئت لحاجة ؟ ولاجئت لتجارة ؟ وماجئت الا لسماع الحديث ؟ قال الرجل نعم فحدثه ابو الدرداء حديث (العلم) الذي اشتهر به(٢٦) . جاء في هذا الحديث: «من خرج يريد علما يتعلمه فتح له باب الى الجنة .. وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على اصغر كوكب في السماء . ان العلماء ورثة الانبياء ... ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر .. موت العالم مصيبة لاتجبر وثلمة لا تسد .. موت قبيلة ايسر من موت عالم »(٢٧) .

ــ دخل رجل مسجد دمشق فقال : اللهم آنس وحشتي وارحم غربتي وارزقني جليسا صالحا فسمعه ابو الدرداء فقال : لئن كنت صادقا لانا اسعد بما قلت منك وحدثـه .(٢٨)

ــ قدم علقمة بن قيس النخعي وهو كوفي من اصحاب عبد الله بن مسعود دمشق والتقى بأبي الدرداء في مسجدها وتذاكرا بقراءة القران(٢٩) .

اما فيما يتعلق بالقصص فقد كان ابو الدرداء يقف في المسجـد في اعلى الدرج الذي يقود الى مسجد المسلمين ومصلاهم ويقص . وقد اثر عنه في قصصه العديد من الحكم نذكر منها « من فقه الرجل رفقه في معيشته ومن فقه الرجل ان يعلم امزداد هو ام منتقص ، ومن فقه الرجل ان يتعاهد مابه وماتغير منه ، ومن فقه الرجل ان تسره حسنته وتسوءه سيئته» (٣٠) .

وقبل ان تاتي ابا الدرداء الوفاة (٣٢هـ/٦٥٣م) اوصى معاوية بن ابي سفيان بتعيين فضالة بن عبيد الانصاري (صحابي ت٥٩هـ/٦٧٩ م) في المنصبين اللذين يشغلهما بعد وفاته وهما الاقراء والقصص فعمل معاوية بذلك(٣١) .

وفي خلافة معاوية اقترن لقب (قارىء الجند) باسم عطية ابن قيس الكلابي (٧هـ/٦٢٩ م ــ ١١٠ هـ/٧٢٩م) أو (١٢١هـ/٧٣٩م) وكان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته وهو جالس على درج الكنيسة من مسجد دمشق قبل ان تهدم ، وكان يدخل مع مشيخة المسجد (وقيل الجند) على معاوية (٣٢) .

هذا ما كان من شأن التربية النظامية التي ندب لها اشخاص اكفياء يقومون بها. ولكن مسجد دمشق شهد منذ بداية انشائه بالاضافة الى ذلك الوانا من النشاط

التربوي قام بها افراد من الحكام والرعية من تلقاء انفسهم ، فقد قام معاوية بن ابي سفيان احيانا بدور المعلم فيما يتعلق بتعليم العبادات :

ـ يروي يونس بن ميسرة بن حلبس « ان معاوية توضأ للناس وضوء رسول الله ثلاثا ثلاثا »(٣٣).

ـ ويروى وراد ابو الدر كاتب المغيرة بن شعبة ومولاه ان معاوية كتب الى المغيرة ان اكتب الي بشيء سمعته من رسول الله . فكتب اليه المغيرة ان الرسول (ص) كان يقول بعد انصرافه من الصلاة (دعاء) ، وانه حين وفد على معاوية بعد ذلك سمعه على المنبر (منبر مسجد دمشق) يأمر الناس بذلك القول ويعلمهموه(٣٤) .

وهناك شواهد تبين استفادة طلبة العلم من شيوخ دمشق ومن الوافدين عليها في جامع دمشق نفسه :

ـ فقد كان يونس بن ميسرة بن حلبس يقرىء بجامع دمشق وهو تابعي ثقة قرا على واثلة بن الاسقع وابي الدرداء وام الدرداء (٣٥) . ومعنى ذلك ان واثلة وام الدرداء اقرآ بجامع دمشق ايضا .

ـ وسمع ابو عامر الرحبي واثلة بن الاسقع بجامع دمشق وكان واثلة في حلقة يحدث القوم (٣٦) .

ـ وراى معروف الخياط واثلة بن الاسقع يملي على الناس الاحاديث بدمشق وهم يكتبونها بين يديه (٣٧) .

ـ وقال شيخ يدعى ابو عمر : عهدت المسجد الجامع يعني بدمشق وان عند كل كل عمود شيخا وعليه الناس يكتبون العلم (٣٨) .

ـ وراى الحارث بن معاوية الكندي بلالا مؤذن الرسول في مسجد دمشق فسأله سؤالا عن الوضوء(٣٩) .

ـ والتقى معدان بن طلحة اليعمري بأبي الدرداء وثوبان في مسجد دمشق (فسمع منهما) وحدث عنهما(٤٠) . وقدم ابو كبشه السلولي الى دمشق ودخل مسجدها فقام اليه مكحول وابن ابي زكريا وابو مخرمة فحدثهم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص (٤١) .

ـ وكان بعضهم قعودا في مسجد دمشق فمر بهم بعض خدام الرسول (ابو سلمى

حريث) فقالوا : قوموا حتى نسأله عن حديث لم يتداوله الرجال بعد فسألوه فروى لهم حديثا (٤٢) .

ـ واقبل ابو هريرة الى دمشق ... فجلس في المسجد في غربيه فتذاكر جماعة من اهل المجلس الصلاة الوسطى فاختلفوا فذكر لهم ابو هريرة ان النقاش نفسه دار في عهد الرسول (ص) فدخل احد الرجال على الرسول وسأله فأجابه انها صلاة العصر (٤٣) .

ـ وقدم عبد الله بن مسعود الى دمشق فدخل مسجدها ووقف على درج الكنيسة وراح يحدث الناس (٤٤) .

ـ وكان سهل بن الخنظلية (صحابي سكن دمشق) متواحدا لايخالط الناس فكان تلاميذ ابي الدرداء يأتون اليه في مسجد دمشق ويلتمسه ابو الدرداء ليحدثهم قائلا : كلمة تنفعنا ولا تضرك فيحدثهم (٤٥) .

وهناك امثلة اخرى عن هذا النشاط يحفل بها تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر. ومما يلفت النظر ، اننا لانعثر خلال هذه الفترة واثناء القرون الاسلامية الاولى على اية اشارة لتعليم الصبيان في مسجد دمشق . ويرجع ذلك على الارجح لعدم رغبة اوائل علماء الشام في ادخال الاولاد الى المساجد . فقد روي عن ابي الدرداء وواثلة بن الاسقع وابي امامة الباهلي انهم سمعوا رسول الله يقول: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسل سيوفكم واقامة حدودكم ورفع اصواتكم وخصوماتكم ، واجمروها في الجمع واجعلو على ابوابها المطاهر»(٤٦) . الا اننا نعثر على شاهد لمساهمة احدى النساء في التعليم فقد كانت هجيمة بنت حيي الحميرية (ام الدرداء) وهي فتاة يتيمة نشأت في حجر ابي الدرداء تختلف معه في برنس تصلي في صفوف الرجال وتجلس في حلق القراء تعلم القرآن . وحين بلغت مبلغ النساء تزوجها ابو الدرداء وقال لها : الحقي بصفوف النساء (٤٧) .

وفي عهد عبد الملك بن مروان بدات دراسة القرآن التي تسمى (السبع) . احدث هذه الدراسة في دمشق هشام بن اسماعيل المخزومي (والي عبد الملك على المدينة) في قدمته على عبد الملك عام ٨٢ هـ/٧٠٢ م ، فقد حجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق والخليفة في الخضراء . فاخبر ان الخليفة يقرا القرآن فقرا هشام بن اسماعيل ، فسمعه عبد الملك فجعل يقرا بقراءته فقرا بقراءته مولى لهشام يسمى رافع فاستحسن ذلك من يليه من اهل المسجد فقراوا بقراءته (٤٨) .

وقد ساهم في هذه القراءة عدد كبير من اعلام ذلك العصر يذكر ابن عساكر منهم

ممن يوصف بالعلم والرئاسة اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر وابناه ، ومن القضاةعائذ الله بن عبد الله ابا ادريسالخولاني ونمير بن اوس الاشعري ويزيد بن ابي مالك الهمداني وسالم بن عبد الله المحاربي ومحمد بن عبد الله بن لبيد الاسدي ، ومن الفقهاء والمحدثين والقراء مكحول وسليمان بن موسى وعبد الله بن العلاء بن زبر الربعي ويحي بن الحارث الذماري وعبد الرحمن بن عامر اليحصبي وسواهم(٤٩). كما استمرت هذه الدراسة طوال قرون عدة في نفس الموضع من الجهة الشرقية من مقصورة الصحابة، وفي نفس الوقت كل يوم اثر صلاة الصبح ، وكانت ماتزال مستمرة اثناء زيارة ابن جبير (ت٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) وابن بطوطة (ت٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ — ١٣٦٩ م) لدمشق فقد ذكرها كل منهما في رحلته (٥٠) .

ان اطلاق كلمة الدراسة على هذه القراءة اوقع الباحثين الذين لم يطلعوا على مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر في الخطأ فيما يتعلق ببداية التعليم في مسجد دمشق ، واخص بالذكر الدكتور احمد رمضان احمد الذي أكد في مقالة (المسجد الاموي بدمشق بين الحقيقة والاسطورة) ان دراسة السبع تعد بداية التدريس في مسجد دمشق(٥١) . وقد راينا ان التربية النظامية وغير النظامية بدات في مسجد دمشق منذ انشائه وان دراسة السبع ليست الا لونا من الوان النشاط الديني والتربوي التي حفل بها هذا المسجد .

توزعت التربية النظامية في عهد عبد الملك بين عدد من المعلمين ، فقد قام بتعليم القرآن عطية بن قيس الكلابي واسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر ،(٥٢) وكلف ابو ادريس الخولاني القضاء والقصص في البداية ثم عزل عن القصص وابقي في القضاء فقال عزلتموني عن رغبتي ، وتركتموني في رهبتي(٥٣).

وقد توسع ابو ادريس الخولاني في مواد تدريسه فضم اليه الحديث والمغازي والفقه :

— عن يحي بن سعيد والوليد بن سليمان بن ابي السايب انهما رايا اباادريس الخولاني يجلس بالعشيات (بعد العصر بهنيهة) على درج مسجد دمشق الذي يطلع منه الناس الى مسجد المسلمين ومصلاهم مقبل بوجهه على القبلة والناس تحته جلوس يسألونه فيقص عليهم ويحدثهم بالاحاديث ويستفتونه فيفتيهم (٥٤) .

— وروى خالد بن ابي مالك عن ابيه قال « كنا نجلس الى ابي ادريس الخولاني فيحدثنا في شيء من العلم لايقطعه بغيره حتى يقوم او تقام الصلاة حفظا لما سمع . فحدثنا يوما عن بعض مغازي الرسول حتى استوعب الغزاة فقال له رجل من ناحية

المسجد : أحضرت هذه الفزاة ؟ فقال : لا . فقال الرجل انا حضرتها مع الرسول (ص) ولأنت احفظ لها مني» (٥٥) .

ويبدو ان ابا ادريس ربط ، على نحو ما بين القصص ودراسة القرآن المسماة بالسبع كما يتبين من النصوص الآتية :

ـ عن مكحول قال : كانت حلقة من اصحاب النبي يدرسون جميعا فاذا بلغوا آية سجدة ، بعثوا الى ابي ادريس الخولاني فيقرؤها ثم يسجد فيسجد أهل المدراس.

ـ وعن يزيد بن عبيدة انه راى ابا ادريس في زمان عبد الملك وان حلق المسجد بدمشق يقراون القرآن يدرسون جميعا وابو ادريس جالس الى بعض العمد . فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا اليه يقرأ حتى اذا فرغوا من قراءتهم قام ابو ادريس يقص ثم قدموا القصص بعد ذلك واخروا القراءة . (٥٦) .

وهناك عدد كبير من الاشخاص ساهموا في النشاط التربوي الدائر آنذاك في مسجد دمشق بالاضافة الى عطية بن قيس وابي ادريس الخولاني واسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر نذكر منهم الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه وهو من الفقهاء والمحدثين المتميزين . كان يحدث ويخطب على المنبر بجامع دمشق (٥٧) .

ـ بسر بن عبيد الله الحضرمي وهو تابعي من تلامذة واثلة بن الاسقع وابي ادريس الخولاني رحل وسمع الكثير وغدا من كبار اهل المسجد . حدث بجامع دمشق وسمع منه كثيرون (٥٨) .

ـ غضيف بن الحارث ابا اسماء السكوني . ويبدو ان عبد الملك كلفه القصص بعد اقصاء ابي ادريس عنه وسأله ان يقوم به بعد الصبح والظهر فرفض لانفي ذلك احداث بدعة واكتفى بالقصص يوم الجمعة . وكان اقصى المسجديسمع موعظته(٥٩).

ـ عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي الحميري سمع سبعة من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل . كان ثقة قليل الحديث (يحدث الواحد والاثنين فاذا نظر الى الثالث قال :« لا سبيل الى الحديث سائر اليوم » ومن تلاميذه مكحول (٦٠) .

ـ قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وهو صحابي من الفقهاء الوجوه وكان على الخاتم في ايام عبد الملك . يروي محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري انه عندما قدم دمشق وضع رحله ثم غدا الى المسجد واعتمد الى اعظم مجلس رآه في المسجد واكثر اهلا وكان هذا مجلس قبيصة بن ذؤيب فجاء رسول من عبد الملك الى المجلس يطلب

شخصا يعرف حديثا سمعه الخليفة من سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب في امهات الاولاد فذكر ابن شهاب للحاضرين انه يعرف الحديث فأخذه قبيصة معه وادخله على عبد الملك ليروي له الحديث . وكان هذا أول لقاء بين محدث الحجاز والخليفة (٦١) .

— المهاجر بن ابي المهاجر كان حافظا للقرآن وكان رأس المسجد الجامع بدمشق في زمن عبد الملك وبعده عبد الله بن عامر اليحصبي (٦٢) .

— مكحول بن كسرى فقيه اهل دمشق واحد اربعة فقهاء عصره وهم : سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبي بالكوفة والحسن بن ابي الحسن بالبصرة ومكحول بالشام . كان له مجلس في جامع دمشق يعلم فيه الفقه والحديث والقرآن ويفتي الناس . وقد تخرج على يديه العديد من فقهاء دمشق . ومن حضر مجلسه يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو فتى (٧١ هـ / ٦٩٠ م — ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) فلما رآه اصحاب مكحول هموا بالتوسعة له فقال لهم مكحول : مكانكم دعوه يجلس حيث ادرك يتعلم التواضع .

★ ★ ★

هذه هي المعلومات التي توافرت لي حاليا عن بداية مسجد دمشق والدور التربوي الذي اداه في تلك الفترة . وهي على قلتها ، تبين بوضوح ان هذا المسجد كان مسجدا جامعا بكل معنى الكلمة منذ بداية الفتح حتى اتخاذ الوليد بن عبد الملك قراره الحاسم باعادة بناء الجامع وتوسيعه لتلبية حاجات الجماعة المتزايدة ، وانه أدى دورا تربويا بارزا بالنسبة لاهل دمشق والشام والجماعة الاسلامية عامة .

أفلا يستحق ان يدرج ضمن المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ؟

المراجـــع :

١ ــ ابن عساكر (علي بن الحسن) ، **تاريخ مدينةدمشق،** كتبه بين ٥٢٨هـ/١١٣٤م و ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م . واستمر يعمل فيه اضافة وتصحيحا حتى نهاية حياته ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م . وهو في ١٩ مجلدة كبيرة . استعنت منه بما يلي :

ــ النسخة المخطوطة التي وقفها اسعد باشا العظم على مدرسة والده بالخياطين بدمشق وهي النسخة المقصودة في الحواشي حين لاترد اشارة الى ما يخالف ذلـــك .

ــ نسخة باريس بالنسبة للمجلدة الاخيرة من المخطوط . وهي تشكل في رأيي ذيلا له كتبه ابن المؤلف القاسم وفيها ترجمات اضافية اشرت اليهــا في الحواشي بكلمة (باريس) .

ــ القسم المطبوع الذي حققه الاستاذ صلاح الدين المنجد وصدر عن المجمـــع العلمي العربي بدمشق عامي (١٩٥١ ــ ١٩٥٤) اشرت اليهما في الحواشـــي بـ (منجد ١) و (منجد ٢) .

ــ القسم المطبوع الذي حققه الاستاذ محمد احمد دهمان وصدر عن المجمـــع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٦٣ اشرت اليه بـ (دهمان) .

٢ ــ ابو زرعة الدمشقي (عبد الرحمن بن عمرو النصري)، **تاريخ ابي زرعة،** تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشـــق ١٩٨٠ . جزءان .

٣ ــ ابيض. (ملكة) ، **الثقافة والتربية العربية الاسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة** ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ .

٤ ــ احمد (احمد رمضان) ، المسجد الاموي بدمشق بين الحقيقة والاسطورة كما جاء في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته . دمشـــق ٢٦ ــ ١٣٩٩/٥/٢٨ هـ / ٢٣ ــ ١٩٧٩/٤/٢٥ م ، وزارة التعليم العالي ج.ع.س .

٥ ــ خير (صفوح) ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ج.ع.س ١٩٦٩ .

٦ ـ الطبري (محمد بن جرير) ، **تاريخ الرسل والملوك** ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ـ ١٠ اجزاء .

٧ ـ المنجد (صلاح الدين) ،**مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين**، بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ .

٨ ـ مؤنس (حسين) ،**المساجد** ، الكويت ، ١٩٨١ ، سلسلة عالم المعرفة .

الحواشي :

(١) ابن عساكر ٥٥، ق ١٨٤ (١) ترجمة خالد بن اللجلاج .

(٢) المصدر نفسه ، منجد(ج٢) ص ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٦ (٢) ق ١٢١ (١) ترجمة معاوية بن أبي سفيان .

(٤) المصدر نفسه ، ج١٣ ، ق ٢٥٩ (١) ترجمة عوف بن مالك الاشجعي .

(٥) المصدر نفسه ، ج١٩ ، ق ٢٥٣ /٢/ ترجمة :ابو مشجعة بن ربعي الجهني .

(٦) المصدر نفسه ، منجد (ج٢) ص ٢١ .

(٧) المصدر نفسه ،ج ١٣ ق ٢٩٣ (٢) ترجمة :عياض بن غنم الفهري جاء فيها : صحابي بعثه ابو عبيدة بن الجراح لفتح الجزيرة .. ففتحها سنة ١٨هـ وكتب كتابا لاهلها وقسم المنازل والكنائس علىغرار ما تم في دمشق .

ـ المصدر نفسه ج ١٩ ق ٣٠٩ (٢) ترجمة : رجل غساني من دمشق جاء فيها : بعثه معاوية الى ملك الروم وطلب منه ان يؤذن بصوت مرتفعفي مجلس الملك احتجاجا على ارتفاع اصواتنواقيس الكنائس في الليل .. فاجاز الملك الشـاب الغساني واعاده الى بلـده .. ذلك انه يعرف ان النصارى بالشام لهم انصاف منازلالمسلمينوانصاف مساجدهم وقد عاهدهم على ذلك عمر بن الخطاب ، فلم يستطع معاوية نقضه وخشي ان هو قتل الشاب الغساني ان يتخذ معاوية من ذلك ذريعة للقضاء على النصارى ومكاسبهم .

(٨) المصدر نفسه ج ٧ ق ٢٢ (٢) ترجمة : سمرة بن فاتك الاسدي .

(٩) صفوح خير دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ج ع س ١٩٦٩ ، ص ١٥١.

(١٠) Nikita Elsséeff, Dimashk E I2 T II, pp. 286 - 299.

(١١) الدكتور حسين مؤنس ، المساجد ، الكويت١٩٨١ ، سلسلة عالم المعرفة ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٨٠ ـ ٨٤ ـ ٩٣ ـ ١٤٨ .

(١٢) صلاح الدين المنجد ، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ ـ ص ٤٤ ، ٢٦ .

(١٣) ابن عساكر ج ١٩ ق ١٩٠ (٢) ترجمة : ابو ثعلبة الخشني جاء فيها : قال حميد بن عبد الله المزني ان اول صلاة للمسلمين بحمص كانت في كنيسة (كنا) صلى بهم ابو ثعلبة الخشني .

(١٤ و ١٥) المصدر نفسه ١٩ ا(باريس ق٢٢٥) (٢)ترجمة ابو قنان .

(١٦) المصدر نفسه ج١٧ ق ٢١٧ (٢) ترجمة : المهاجر بن ابي مسلم .

(١٨) المصدر نفسه منجد ج١ ص ٣٥٣ . قردا : قرية فيالغوطة.جولان : جبل يبعد حوالي٥٠ كم جنوبي دمشق . زاكية : قرية في حوران . مرج الصفر : سهل شرقي دمشق يصب فيــه نهر بردى يبعد حوالي ٤٠ كم عن دمشق . البثنية : قرية بين دمشق واذرعات .

(١٩) المصدر نفسه ج٩ ق ١٤٦ (١) ترجمة عبد اللهبن عامر اليحصبي .

(٢٠) المصدر نفسه ج ١٩ (باريس) ق ٧١١ (٢) ترجمة ابو العيال بن ابي عنبر الهـــذلي جاءفيها: من شعر هذيل وفصحائها خرج الى غزو الروم مع يزيد بن معاوية وكتب الى معاوية قصيدة في المسلمين الذين استشهدوا في تلك الفترة قرات على الناس فبكى معاوية وبكى الناس جميعا .

(٢١) المصدر نفسه ج٨ ق ٧٨ (٢) ترجمة : صخربن حرب ـ الطبري ج٣ ، ٢٩٧ .

(٢٢) ابن عساكر منجد (ج١) ص ٥٢٩ .

(٢٣) المصدر نفسه منجد (ج١) ص ٣١٥ .

(٢٤) المصدر نفسه ج١٣ ق ٢٦٤ (١) ترجمة : خويمر بن يزأد ابو الدرداء .

(٢٥) المصدر نفسه ج١٠ ق ٥١١ (٢) ترجمة : عبدالواحد الدمشقي .

(٢٦) المصدر نفسه ج١٤ ق ٥١٦ (١) ترجمة : كثير بن قيس .

(٢٧) المصدر نفسه ج١١ ق ٢٤ (٢) ترجمة عثمان بن ايمن الدمشقي .

(٢٨) المصدر نفسه ج١٩ ق ٣٠٦ (١) ترجمة : رجلمن المدينة .

(٢٩) المصدر نفسهج١١ ق ٢٥١ (٢) ترجمة : علقمةبن قيس النخعي .

(٣٠) المصدر نفسه ج١٣ ق ٢٦٤ (١) ترجمة : عويمر بن زيد ابو الدرداء .

(٣١) المصدر نفسه ج١٤ ق٢٩٢ (١) ترجمة : فضالة بن عبيد الانصاري .

(٣٢) المصدر نفسه ج١١ ق ٢١٣ (٢) ترجمة : عطيةبن قيس الكلابي .

(٣٣) المصدر نفسه ج١٨ (باريس) ق ٧٠ (٢) ترجمة يونس بن ميسرة .

(٣٤ و ٣٦) المصدر نفسه ج١٨ (باريس) ق ٧٠ (٢)ترجمة يونس بن ميسرة .

(٣٥) المصدر نفسه ج١٧ ق ٤٢٢ (٢) ترجمة ورادابو الدر .

(٣٧) المصدر نفسه ج١٩ ق ٢٣٣ (٢) ترجمة ابو عامر الرحبي .

(٣٨) المصدر نفسه ج١٧ ق ٤٠٩ (١) ترجمة واثلة بن الاسقــع .

(٣٩) المصدر نفسه (منجد) ، ج١،ص١٥ ٣.

(٤٠) المصدر نفسه ج٤ ق ٤٨ (١) ترجمة : الحارث بن معاوية .

(٤١) المصدر نفسه ج١٧ ق ١٧٢ (٢) ترجمة : معدان بن طلحة .

(٤٢) المصدر نفسه ج١٩ (باريس) ق ٢٢٦ (١) ترجمة : ابو كبشة السلولي .

— المصدر نفسه ج١٩ ق٢١٢ (١) ترجمة ابو سلمى راعي النبي ويقال ان اسمه حريث .

(٤٣) المصدر نفسه ج١٤ ق ٥٦٠ (٢) ترجمة : كهيل بن حرملة النميري .

(٤٤) المصدر نفسه ج٨ ق ٢٧٨ (٢) ترجمة : العباس بن سالم اللخمي .

(٤٥) المصدر نفسه ج٧ (ابن منظور) دون ترقيم ترجمة : سهل بن الحنظلية .

(٤٦) المصدر نفسه ج١٢ ق ٢٨٦ (٢) ترجمة : العلاء بن كثير روى الحديث عن مكحول عن الصحابة الثلاثة .

(٤٧) المصدر نفسه ج١٩ ق ٤٠٨ (١) ترجمة : هجيمة بنت حيي ام الدرداء .

(٤٨) المصدر نفسه (منجد) (٢) ص ٤٩ .

(٤٩) المصدر نفسه منجد (٢) ص ٥٠ — ٥٢ .

(٥٠) صلاح الدين المنجد ، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ص ١٤٤ و ٢٥٧ .

(٥١) الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته (٧٩ — ٢٨/٥/ ١٣٩٩ هـ /٢٢ — ٢٥/٤/١٩٧٩ م) . ص ١٩١ .

(٥٢) ابن عساكر ج١١ ق ٢١٢ (٢) ترجمة عطية بن قيس الكلابي .

(٥٣) المصدر نفسه ج٨ ق ٢٦١ (١) ترجمة عائذ الله بن عبد الله ابو ادريس الخولاني .

(٥٤) المصدر نفسه ج١٨ ق ٦١ (١) ترجمة يحيى بن سعيد الدمشقي .

(٥٥) المصدر نفسه ج١٩ ق ٣٠٣ (١) ترجمة رجل له صحبة .

(٥٦) المصدر نفسه ترجمة عائذ الله بن عبد الله ابي ادريس الخولاني .

(٥٧) المصدر نفسه ج١ ق ٤٨٥ (٢) ترجمة عبد الملك بن مروان .

(٥٨) المصدر نفسه ج٣ (دهمان) ص ١٥ — ٢٢ ترجمة بسر بن عبيد الله .

(٥٩) المصدر نفسه ج١٤ ق ٣٥٣ (٢) ترجمة غضيف بن الحارث .

(٦٠) المصدر نفسه ج١٠ ق ٣٤٢ (١) ترجمة عبد الرحمن بن عسيلة .

(٦١) المصدر نفسه ج١٥ ق ٣٠٧ (٢) ترجمة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

(٦٢) المصدر نفسه ج١٧ ق ٢١٨ (٢) ترجمة المهاجر بن ابي المهاجر .

سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤

د . رؤوف عباس

كلية الاداب ـ جامعة القاهرة

بدأت الشواهد تشير الى قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية لصالح الحلفاء منذ عام ١٩٤٣ . ومع مطلع ذلك العام بدأ انسحاب الالمان من روسية بعد أن تقهقروا من لينينجراد وكيرسك وروستوف ، وتلاه انسحابهم من خاركوف وسمولنسك ثم كييف مع حلول خريف ذلك العام . وفي نفس الوقت انحسر المد الالماني من شمال افريقية ، وحقق الحلفاء عليهم نصرا حاسما في العلمين ، ونزلت جيوش الحلفاءالى ايطالية التي خرجت من المحور وأعلنت الحرب على المانية (١٢ أكتوبر) ، وبدأت طائرات الحلفاء تشن غارات جوية مكثفة على برلين (نوفمبر) .

وهكذا بدأ الحلفاء يبحثون موضوع التسوية التي ستعقب الحرب في سلسلة من المؤتمرات ، عقدت في القاهرة وطهران على التوالي (نوفمبر) ، حضرها الرئيس الامريكي ورئيس الوزراء البريطاني وشيانج كاي شيك (مؤتمر القاهرة) ، وستالين (مؤتمر طهران) ، بينما كانت قوات الحلفاء تحارب معركتها الاخيرة ضد اليابان ، احدى القوى الكبرى المشتركة في كتلة المحور ، فيما عرف بمعركة الباسيفيك(١).

ولما كانت تسويات ما بعد الحرب مطروحة على بساط البحث بين دول الحلفاء، فقد سارعت بريطانية ـ ممثلة في خبرائها بمنطقة الشرق الاوسط ورجال الخارجية البريطانية ـ الى وضع مخطط للسياسة البريطانية للشرق الاوسط في فترة ما بعد الحرب ، وضعوا فيه نصب أعينهم المصالح البريطانية في المنطقة ، واهميتها كجسر يربط مابين بريطانية ومستعمراتها في الشرق . ويركز هذا البحث على نصيب سورية من تلك المخططات .

* * *

عقد مجلس الحرب بالشرق الاوسط The Middle East War Council جلساته بالقاهرة (١٠ ــ١٢ مايو ١٩٤٣) برئاسة وزير الدولة للشرق الاوسط R.G. Casey ، ووكيله Lord Moyns ، وعضوية سفراء بريطانية في كل من مصر والعراق واليونان ، والمندوب السامي البريطاني بفلسطين وشرق الاردن ، وحكام مالطا وقبرص وعدن ، والوزراء المفوضون في سورية ولبنان (الميجور جنرال Spears) وايران واثيوبية ، والقائم بالاعمال بالسعودية ، والسكرتير المدني لحكومة السودان، وقائد القوات البريطانية بالليفانت ، وقائد عام قوات الشرق الاوسط ، وبعض كبار ضباط قيادته .وكان الموضوع الاساسي الذي بحثه المجلس هو وضع أسس السياسة البريطانية في الشرق الاوسط لفترة ما بعد الحرب(٢) .

وراى المجلس ان اقرار الامن في الشرق الاوسط وتأمين مصالح بريطانية في المنطقة يحول دونهما أمران : اولهما ، وجود عنصرين مثيرين للمتاعب في المنطقة هما ، اليهود في فلسطين ، والفرنسيون في سورية . وثانيهما ، احتمال تدهور المنطقة اقتصاديا بعد الحرب . وقد يترتب على احد هذين الامرين أو كليهما اثارة الاضطرابات في المنطقة بعد الحرب ، أو فتح الطريق امام الدول الاخرى المهتمة بالمنطقة ــ مثل روسية ــ لمزاحمة المصالح البريطانية فيها .

ولمواجهة تلك المخاطر المحتملة نظر مجلس الحرب بالشرق الاوسط الى المشكلات السائدة في المنطقة زمن الحرب ، والتي قد تستمر بعد نهايتها من زاوية المصالح البريطانية ، في محاولة لوضع حلول لهذه المشكلات تضمن الوجود البريطاني وتؤمن المصالح البريطانية ، في شكل سياسة بريطانية عامة شرق أوسطية تقوم على محاور أربعة :

ا ــ ابقاء الاوضاع الراهنة في فلسطين على ما هي عليه دون تغيير ، مع عدم السماح للعرب أو اليهود بالاخلال بالتوازن القائم في فلسطين ، واصدار اعلان سياسي لتأكيد المبادىء الاساسية التي وردت بالكتاب الابيض (١٩٣٩) ، مع الحصول على تأييد الولايات المتحدة الامريكية لهذه الخطوة .

ب ــ الزام فرنسة الحرة بتوقيع معاهدتين مع سورية ولبنان مماثلتين للمعاهدة الانجليزية ــ العراقية ، تتمتع بمقتضاها الدولتان العربيتان بالاستقلال ، تمهيدا للتخلص من الوجود الفرنسي بالمنطقة نهائيا.

جـ ــ استمرار مهمة مركز تموين الشرق الاوسط Middle East Supply Centre فيما بعد الحرب ، على أن يتحول الى مجلس اقتصادي للشرق الاوسط Middle East Economic Centre في صورة منظمة اقتصادية اقليمية تعاون دول الشرق الاوسط على حل المشكلات المتصلة بالنواحي الاقتصادية والسياسية النقدية التي تعجز عن حلها بمفردها ، وذلك بالتعاون مع امريكة .

د ــ اقامة نوع من الاتحاد العربي على ان يكون اتحادا ضعيفا غير وثيق العرى ، يمتص التيارات القومية التي تشكل خطرا على المصالح البريطانية، ويوفر قدرا من التنسيق السياسي بين حكومات المنطقة في فترة ما بعد الحرب ، على حين تتولى بريطانية الاشراف على الجوانب الاقتصادية والثقافية للبلاد العربية . واذا تعذر ذلك تعمل بريطانية على اقامة اتحاد سورية الكبرى من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن .

ويهمنا هنا نصيب سورية في هذه المخططات البريطانية العريضة المتشعبة ، من حيث السبل التي اقترحت لتحقيقها ، والعقبات التي اعترضت طريقها ، واثرها على الاوضاع في المنطقة في اعقاب الحرب .

* * *

كانت بريطانية تعتبر الوجود الفرنسي في سورية مرهون بتنفيذ الوعود التي قطعتها حكومة فرنسة الحرة على نفسها بعد استرداد سورية من حكومة فيشي . وهي وعود اعتبرها الانجليز ملزمة لفرنسة،بحكم ما توصل اليه الجانبان البريطاني والفرنسي قبيل غزو الحلفاء لسورية . وتتمثل هذه الوعود فيما يلي :

أ ــ الاعلان الذي اذاعه الجنرال Catroux ممثل حكومة فرنسة الحرة في٨ يونيو ١٩٤١ (وهو اليوم الذي عبرت فيه قوات الحلفاء الحدود السورية) ، والذي تضمن انهاء الانتداب على سورية ولبنان والاعتراف باستقلالهما وسيادتهما على اراضيهما ، وان للسكان مطلق الحرية في ان يعيشوا داخل دولتين مستقلتين ، او في دولة واحد مستقلة ذات سيادة ، وان قوات الحلفاء لاتستهدف سلب السكان حريتهم ،وانما جاءت لتأكيدها، وان الهدف من العمليات العسكرية طرد قوات هتلر من سورية حتى لا تصبح قاعدة يشن منها الالمان هجماتهم على الانجليز او على الفرنسيين انفسهم(٣).

ب ـ تصريح تشرشل رئيس الوزراء البريطاني امام مجلس العمـوم (٩ سبتمبر ١٩٤١) الذي اكد فيه انه ليس للانجليز مطامع في سورية ، وانهم لا يسعون للحلول محل الفرنسيين ، او اقامة مصالح بريطانية في أي جزء من سورية ، وان الوجود الانجليزي في سورية هدفه العمل على كسب الحرب واستطرد قائلا : « ولكن يجب ان أعلن بوضوح أن سياستنا التي تشاركنا فيها حليفتنا حكومة فرنسة الحرة ترمي الى اعادة سورية للسوريين الذين سينالون استقلالهم في اقرب فرصة ممكنة ، وكذلك كامل حقوق السيادة على اراضيهم . ولانرى ان يتاجل اقامة حكومة سوريـة مستقلة الى ما بعد الحرب.. ولكننا نرى ضرورة زيادة نصيب السوريين في الادارة ، ولا جدال في ان فرنسة سوف تحتفظ بنفس الوضع الذي كان لها في سورية قبل الحرب ، ولكن فرنسة ايقنت ان هذا الوضع لابد ان ينتهي . ومن ناحية اخرى نعترف لفرنسة بامتيازات خاصة في سورية تنفرد بها بين غيرها من كل دول اوربة ، فاذا احرزت اي مـن الدول الاوربية نفوذا في سورية ، فان نفوذ فرنسة يجب ان يكون له السبق »(٤).

جـ ـ المراسلات التي تبودلت بين ليتلتون yttelton' (وزير الدولة البريطاني بالشرق الاوسط) وديغول De Gaulle في ٢٥ ، ٢٧ يوليو ١٩٤١ والتي لا تخرج عما جاء في تصريح تشرشل سالف الذكر(٥) .

غير ان كلا الطرفين لم يلتزما بتعهداتهما، فلا الفرنسيين كانوا على استعداد لمنح سورية ولبنان الاستقلال التام ، ولا الانجليز كانوا عند وعدهم بعدم منافسة الفرنسيين في المنطقة ، اذ وضعت بريطانية الميجور جنرال سيرادوارد سبيرز Edward Spears على رأس بعثتها الدبلوماسية في سورية ولبنان ، ولـم يكن الاخير يخفـي عداءه للفرنسيين ، كما لم يتوان عن تقديم العون للعرب لاحباط جهود الجنرال كاتـرو الذي كان يتفاوض مع السوريين واللبنانيين حول اقامة نظام حكم ديمقراطي في اطار الانتداب وتحت مظلته . ورغم اعلان استقلال سورية في سبتمبر ١٩٤١ ، ولبنان في ديسمبر من نفس العام ، الا ان فرنسة الحرة كانت مترددة في تصفية وجودها في البلدين ، وفي اطار هذا التردد سمحت فرنسة بتشكيل حكومة وطنية في كل من سورية ولبنان في مارس ١٩٤٣ . ولكن الوجود الفرنسي ظل قائمـا .

وقد بلغ ضيق فرنسة بالانجليز ، حد قيام ديغول بابلاغ مجلس فرنسة الحرة ، ان متاعب فرنسة في سورية ترجع الى نشاط مجموعة من الانكليز المتعنتين المتعاطفين

مع العرب ، والذين يحظون بتأييد رئيس الوزراء البريطاني ووزارة المستعمرات ، والذين يريدون اغتنام فرصة المسألة السورية لازاحة فرنسة من المنطقة(٦).

* * *

وكانت قرارات مجلس الحرب للشرق الاوسط (١٠ـ١٣ مايو ١٩٤٣) سالفة الذكر التجسيد الحي للاهداف البريطانية ، ولمحاولة ابعاد الفرنسيين عن المنطقة في اطار مخطط يهدف الى تكريس المصالح البريطانية في المنطقة بعد ان تضع الحرب اوزارها .

فقد اعتبر المجلس ان الوجود الفرنسي في سورية ولبنان يلحق الضرر بمصالح بريطانية في منطقة الشرق الاوسط ، كما يؤدي الى اعاقة « التطور السلمي للبلاد العربية ويحرمها من الرخاء الاقتصادي » . كما ان وجود قوة اجنبية غير متعاونة مع بريطانية ولا يمكن الاعتماد عليها من الخطورة بمكان ، لان ثمة احتمال قيام ثورة ضد فرنسة الضعيفة الواهنة بعد الحرب ، وخاصة عندما يتناقص حجم القوات البريطانية في سورية ولبنان .

كذلك يصبح تنفيذ اي مشروع لاقامة « اتحاد عربي » من الصعوبة بمكان مع استمرار الوجود الفرنسي ، سواء كان ذلك الاتحاد يجمع الدول العربية كلها ، او يقتصر على « سورية الكبرى » فيشمل الاردن وفلسطين الى جانب سورية ولبنان ،

ورأى المجلس ان من الممكن اخراج فرنسة من المنطقة بطريق التفاوض ، كان تمنحها بريطانية اراضي اخرى في اي مكان آخر كتعويض عن نفوذها في سورية ولبنان، غير ان تحقيق ذلك خلال الحرب من الصعوبة بمكان ، ولذلك ليس امام بريطانية الا اتباع ما يلي :

آ ـ تقوية الاتجاه نحو الاستقلال الذي يسود البلدين ، حتى يصبحا ذا صبغة وطنية مستقلة في اطار ميثاق الاطلنطي . على ان تنظم مصالح فرنسة من خلال معاهدة تبرم مع كل من البلدين ، سواء مع فرنسة الحرة أو غيرها من الحكومات الفرنسية التي تقام عقب انتهاء الحرب.

ب ـ تدعيم مركز بريطانية عن طريق توسيع صلاحيات قائد عام قوات الشرق الاوسط في كل ما يتصل بالنواحي العسكرية وادارة دفة الحرب .

جـ ـ مقاومة اي محاولة ترمي الى اخراج سورية ولبنان من كتلة الاسترليني . ورأى المجلس ضرورة قبول الفرنسيين لهذه السياسة اذا شاؤوا استمرار التعاون مع بريطانية ، اما اذا تمسكوا بالانتداب وتابعوا سياستهم في المنطقة فان ذلك سيؤدي الى اعاقة المجهود الحربي للحلفاء(٧) .

وفي مذكرة ايضاحية الحقها مجلس الحرب بالشرق الاوسط بهذه القرارات، واختص بها الاوضاع في سورية ولبنان ، بين الدوافع التي حدت به الى التوصل لهذه القرارات ، ويمكن تلخيصها فيما يلي : (٨)

آ ـ السياسة الفرنسية في سورية تثير سخط العرب في المنطقة على فرنسة ، خاصة وان الفرنسيين نكصوا بوعدهم بمنح الاستقلال التام ، مما يجعل البلاد العربية الاخرى ترفض الدخول في اتحاد مع سورية ولبنان مابقي الوجود الفرنسي قائما .

ب ـ يجب الاحتفاظ بالشرق الاوسط كقاعدة للمصالح العسكرية البريطانية فيما بعد الحرب . ووجود الفرنسيين الذين ناصبوا الانجليز العداء ـ بدلا من التعاون معهم على تحرير فرنسة ـ لا يشجع على تسليم بريطانية ببقائهم في سورية لان ذلك يتعارض مع المصالح العسكرية البريطانية.

جـ ـ الاسس التي قامت عليها السياسة الانجلو ـ فرنسية الخاصة بسورية ولبنان خلال الحرب ، (تصريح رئيس الوزراء البريطاني امام مجلس العموم ، واتفاقية ليتلتون ـ ديجول) لا تخدم مصالح بريطانية في المنطقة لانها تنكر وجود مصلحة لها في الليفانت فيما عدا كسب الحرب، وتؤكد عدم رغبتها في مزاحمة فرنسة في المنطقة ، ولكن في مقابل ذلك يجب ان توافق فرنسة على استقلال سورية ولبنان استقلالا تاما ، على ان تتمتع بامتيازات خاصة في المنطقة تجعل لنفوذها القدح المعلى دون سائر دول اوربة ، وهذا ما يتعارض مع سياسة بريطانية ومصالحها عند انتهاء الحرب .

د ـ والبديل الوحيد الذي يمكن تقديمه لفرنسة عوضا عن هذه الامتيازات المعترف بها في التصريحات السابقة ، هو منحها طرابلس الغرب في مقابل الانسحاب نهائيا من سورية ولبنان ، ولكن ذلك امر مشكوك فيه لانهم سيعارضون هذه الفكرة او غيرها من الافكار لتشبثهم بالبقاء في المنطقة، وتمسكهم بما يسمونه « حقوقا تاريخية » فيها .

هـ ـ وفي مواجهة السياسة الفرنسية الحالية في سورية ولبنان يجب على بريطانية العمل على احباط محاولات فرنسة توقيع معاهدات مع البلدين ، مثل تلك التي حاولت ان توقعها معها في عام ١٩٣٦ . فمن الناحية القانونية لاتؤثر اي معاهدة توقع خلال الحرب على أوضاع الانتداب ، خاصة وان السلطة الفرنسية القائمة لا تتمتع باعتراف الامم المتحدة ، كما انه لايمكن ان تصبح مثل هذه المعاهدات ملزمة لاي حكومة سورية او لبنانية لم تات الى السلطة بانتخابات حرة،ولذلك يجب ان توجه بريطانية النصح الى حكومتي البلدين بعدم التفاوض على اي معاهدة مع فرنسة قبل ان تنتهي الحرب .

و ـ يجب ان تتمسك بريطانية بالمادة الاولى من اتفاقية ليتلتون ـ ديجول ، التي نصت على تخويل قائد عام قوات الشرق الاوسط كل الصلاحيات لمواجهة العدو المشترك تمسكا فعليا كما وردت في النص الرسمي ، والتاكيد على ان كل تصرفات القائد العام معترف بها في ضوء ماجاء بالفقرة الثانية من نفس المادة المشار اليها ، لان ذلك امر ضروري من الناحية العسكرية ، في حالة اضطرار بريطانية لتخفيض قواتها في سورية ولبنان ، وحتى لا تحاول فرنسة نقل قيادة المنطقة اليها .

ز ـ كما انه من الاهمية بمكان ان تتمسك حكومة بريطانية بانتماء البلدين الى كتلة الاسترليني وفق تصريح سير مايلز لامبسون (٩يونيو ١٩٤١) ، لان خروجهما من كتلة الاسترليني ستكون له عواقب سياسية واقتصادية خطيرة ليس في سورية ولبنان فحسب ، بل في البلاد العربية المجاورة ايضا ، فانسحاب البلدين من كتلة الاسترليني سوف يعوق الجهود التي تبذل لاقامة اتحاد نقدي أو جمركي بين بلاد « سورية الكبرى » والتي تعد ضرورية عند النظر في وضع نظام اقتصادي لهذه البلاد فيما بعد الحرب.

وكان الجانب الخاص بسورية في قرارات مجلس الحرب بالشرق الاوسط موضع انتقاد الخارجية البريطانية(٩)، التي اعتبرتها لا تتفق مع الخط الذي تسير عليه السياسية البريطانية في الشرق الاوسط ، وعللت دوائر الخارجية الخلاف بينها وبين السلطات المختصة بالشرق الاوسط الى تاثر الاخيرة باتجاه سكان المنطقة نحو الوحدة القومية ، ورات الخارجية ان الاخذ بمقترحات مجلس الحرب سوف يؤكد مخاوف الفرنسيين ، التي عبر عنها ديجول نفسه صراحة ، والتي تذهب الى ان بريطانية تحاول الاستفادة من هزيمة حليفتها فرنسة بالحلول محلها في الشرق الاوسط ، «ولابد

ان يؤثر ذلك على روح القتال عند الفرنسيين ، ونحن نأمل دائما ان يؤدي تعاونهم معنا الى نتائج ايجابية في شمال افريقية وفرنسة ذاتها ..» كما ان اتباع السياسة التي اقترحها مجلس الحرب يؤدي الى زيادة التوتر في شمال افريقية واماكن اخرى، ولذلك من مصلحة بريطانية كسب الفرنسيين الى جانبها لتحرير فرنسة ذاتها من المحور .

فاذا استمعت الخارجية الى نصيحة مجلس الحرب ووافقت على طرد الفرنسيين من سورية ، فان ذلك يضع بريطانية وجها لوجه امام العرب ، الذين يتطلعون الى اقامة وحدة قومية ، فاذا تقاعست عن مساعدتهم على تحقيق ذلك ، اثاروا المتاعب في وجهها ، وهددوا مصالحها « .. ولكننا لا نعلق املا حقيقيا على اقامة نوع من الاتحاد العربي ، فمن المؤكد ان مثل هذا الاتحاد لن يدعم مجهودنا الحربي » . واعتبرت الخارجية أن اقامة « سورية الكبرى » ، التي تشمل فلسطين لن يكون في صالح بريطانيه ، لان أي تغيير في السياسة البريطانية في فلسطين سوف يسبب المتاعب من جانب اليهود ، فاذا تدخلت بريطانية في فلسطين خلال الحرب كان ذلك يعني اثارة الاضطرابات في المنطقة الممتدة من عبدان الى حيفا ، ومن ثم يجب ابقاء فلسطين خارج مثل هذا الاتحاد والمحافظة على الاوضاع الراهنة فيها ، والبعد عن اتخاذ اي خطوة واسعة لتحقيق الوحدة العربية .

ولفتت الخارجية النظر الى احتمال ان يؤدي الاخذ بقرارات مجلس الحرب الى تحالف الفرنسيين مع الروس لمواجهة سيطرة الانجليز على الشرق الاوسط ، « فاذا اتيحت الفرصة امام الروس للتدخل في المنطقة ، فسيقفون الى جانب العرب ، وحتى اذا خرج الفرنسيون من سورية ، دون ان نستطيع مواجهتهم » .

ومن ناحية أخرى ، ابدت الخارجية البريطانية موافقتها على تشجيع الحركة العربية المطالبة بالاستقلال في سورية ولبنان ، لان ذلك سيؤدي الى اقامة حكومات محلية قوية ، كما انه يتسق مع الاسس التي قامت عليها السياسة الانجلو ـ فرنسية الخاصة بسورية . ولكن الخارجية حذرت من أن يؤدي فشل الانجليز في تدعيم اتجاه سورية ولبنان نحو الاستقلال الى « تسميم » علاقة بريطانية بسلطات فرنسة الحرة . ورفضت دوائر الخارجية البريطانية الموافقة على مقترحات قائد عام قوات الشرق الاوسط التي تبرر حقه في التدخل في كل صغيرة وكبيرة في سورية لان ذلك يؤدي الى توتر في العلاقات الانجلو فرنسية ، والدخول مع الفرنسيين في صراع مرير . ولكنها رات ان من الممكن اخراج الفرنسيين من سورية بعد الحرب ، عندماتكون ثمة حكومة في فرنسة يمكن التفاوض معها . وان مايجب التركيز عليه هو تحرير فرنسة

من قوات المحور ، لان السلطة الفرنسية القائمة (فرنسة الحرة) تعتبر الحفاظ على المصالح الفرنسية واجب مقدس ، وتشك في نوايا البريطانيين والامريكان ، ولذلك من المتوقع ان تؤدي اي محاولة لاخراجهم من المنطقة الى ازمة حادة بين لندن والجزائر، قد تقف حائلا دون تفاهم الطرفين عندما يحين الوقت للتشاور حول العمليات العسكرية في فرنسة ذاتها(١٠) .

وفيما يتعلق براي الخارجية في الجانب الاقتصادي من قرارات مجلس الحرب الخاص بابقاء سورية داخل كتلة الاسترليني ، فقد نال هذا القرار تأييد الخارجية البريطانية ،التي اكدت ان بريطانية على استعداد للدخول في صراع مع فرنسة الحرة من اجل بقاء المنطقة ضمن كتلة الاسترليني التي دخلتها في عام ١٩٤١، عقب طرد سلطات فيشي منها ، ولكن حكومة فرنسة الحرة بدات في اعادة تكوين كتلة الفرنك منذ ١٩٤٣، وكان من المتوقع ان يدخلوا سورية ولبنان فيها ، مما يترتب عليه ــ من وجهة النظر البريطانية ــ فقدان الثقة في العملة المحلية ، واقبال السكان على شراء الذهب والسلع لضمان قيمة اموالهم ، وما ينتج عن ذلك من ازدياد حجم التضخم الذي تسعى بريطانية للحد من غلوائه في المنطقة ، لانه كان من المتوقع ان تنخفض قيمة الفرنك بالنسبة للجنيه الاسترليني من ١٧٦ الى ٢٠٠ فرنك للجنيه الواحد ، وذلك بعد اعادة بناء كتلة الفرنك .

وكان كاسى Casey وزير الدولة البريطاني للشرق الاوسط يرى ضرورة بقاء سورية داخل كتلة الاسترليني ، حتى يصبح باستطاعة بريطانية وضع نظام اقتصادي شامل للمنطقة كلها بعد الحرب ، واشار بضرورة توجيه الدعاية الى الشعبين السوري واللبناني عند استقلالهما للبقاء داخل كتلة الاسترليني ، واكد ان السكان انفسهم يتوقعون ذلك .

وقد نوقشت مسألة بقاء سورية ولبنان داخل كتلة الاسترليني مع وزارة الخزانة البريطانية وبنك انجلترة ، ولكن ارجىء البت في هذا الموضوع حتى تستقر الحكومة البريطانية على راي بشأن مقترحات مجلس الحرب في الشرق الاوسط الخاصة بمستقبل الوجود الفرنسي في سورية ، وحتى يصبح الفرنسيون في وضع سياسي يمكنهم من مناقشة مسألة النقد بمختلف جوانبها . وقد شاركت وزارة الخزانة وبنك انكلترة في التاكيد على صعوبة ابقاء سورية داخل كتلة الاسترليني اذا رفض الفرنسيون التعاون مع الانجليز في تطبيق النظم النقدية المتبعة في منطقة الاسترليني ، ولفت النظر الى ان بنك سورية Banque De Syrie يعد جزءا لا يتجزا من النظام المصرفي

الفرنسي ، وانه لا يمكن احكام الرقابة على النقد في الاقليم اذا ظل هذا البنك تحت سيطرة سلطات فرنسة الحرة .

ولذلك رات الخارجية البريطانية ان تظل هذه المسألة معلقة ، حتى يحين الوقت لقيام مفاوضات بين وزارة الخزانة البريطانية والسلطات الفرنسية ، وعندئذ يمكن معالجة مسألة بقاء سورية في كتلة الاسترليني باعتبارها مسألة فنية « .. اما اذا اثير الموضوع في محادثات سياسية ، فان الفرنسيين سوف يتخذونه دليلا على حرصنا على ابعادهم عن سورية » ، فاذا اصر الفرنسيون على ادماج المنطقة في كتلة الاسترليني يصعب العثور على حل لهذه المشكلة(١١) .

وازاء هذا التباين في وجهات النظر بين وزارة الخارجية البريطانيـــة ومجلس الحرب في الشرق الاوسط حول المخططات السياسية الخاصة بسورية ، استدعى كاسي Caseyوزير الدولة بالشرق الاوسط والجنرال Spearsالوزير المفوض فيسورية ولبنان الىلندن لمناقشة هذا الجانب من قرارات مجلس الحرب معهما،باعتبارهما اكثر الخبراء البريطانيين تحمسا لفكرة انهاء الوجود الفرنسي في سورية ولبنان ، بهدف الوصول الى تقارب في وجهات النظر حول هذا الموضـوع حتى تستطيع الحكومـة البريطانية ان تصل الى تحديد استراتيجيتها في المنطقة .

وقد عقد اجتماع في لندن(١٢) لهذه الغاية برئاسة وزير الحرب البريطاني ،حضره بالاضافة الى كاسي والجنرال سبيرز ، عدد من رجال وزارة الخارجية المعنيين بشؤون الشرق الاوسط ، وعرض كاسي في ذلك الاجتماع وجهات نظر مجلس الحرب في الشرق الاوسط ، وطلب تعليمات صريحة بشأن سياسة بريطانية في المنطقة ، ومدى حرصها على البقاء فيها . واشار الى ان الشرق الاوسط يقف حاجزابين الد عدويين لبريطانية: المانية واليابان ، ويحتوى على المصالح البترولية البريطانية الحيويـة ، وخطوط المواصلات ذات الاهمية الاستراتيجية لبريطانية ، ومن ثم تبرز اهميته الحيوية من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية .

وقد اتفق الجميع على ضرورة المحافظة على النفوذ البريطاني في المنطقة ، كما وافقوا على اقتراح وزير الدولة للشرق الاوسط الخاص بضرورة قيـام نـوع مـن التنسيق بينبريطانية والولايات المتحدة الامريكية يحول دون تعرض الانجليز للمنافسة الامريكية التي تضر بالنفوذ البريطاني ، في مقابل تاييد بريطانية للمصالح الامريكية في منطقة الكاريبي ، فبريطانية تحتاج ـ في رايه ـ الى مساندة امريكة لها في الشرق

الاوسط ، وبدون ذلك لايمكن ضمان نجاح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة ، بما في ذلك الجانب الخاص بسورية .

وفيما يتعلق بالمسألة السورية طالب الجنرال سبيرز بالتمسك بقرارات مجلس الحرب ، فمن الضروري ـ عنده ـ ان يكون مركز الفرنسيين في سورية مماثل لوضع الانجليز في العراق ، وان الصعوبة تكمن في البحث عن طريق لتحقيق ذلك ، والاتفاق على ما يجب اتخاذه لمنع الفرنسيين من معاملة سورية ولبنان كما لو كانتا مستعمرتين فرنسيتين ، وذكر انه رغم التزام فرنسة الحرة بتوقيع معاهدتين مع البلدين ، الآن الشواهد تشير الى أن فرنسة تسعى لاملاء الشروط التي تخدم نفوذها وتعمل على استمراره دون ان تأخذ في الاعتبار حق سورية ولبنان في الاستقلال التام .

واكد كاسي ان ترك الحبل للفرنسيين على غاربه، وعدم تدخل بريطانية لتحقيق استقلال سورية ولبنان سوف يضر بالنفوذ البريطاني في المنطقة ، ويؤدي الى زعزعة مكانة بريطانية بين السكان العرب . وبذلك كسب وزير الدولة الحاضرين الى صفه حين اتفقوا على ضرورة معارضة تصرفات السلطات الفرنسية في سورية اذا كانت تلك التصرفات تتناقض مع التزاماتهم السياسية ، وتتعارض بذلك مع المجهود الحربي في المنطقة ، ورأوا ان امتناع الفرنسيين عن تحديد علاقاتهم بسورية ولبنان على اساس تعاهدي يعرض المجهود الحربي للخطر . وأوصوا بضرورة توجيه احتجاج الى السلطات الفرنسية في الجزائر حول هذا الموقف .

ولكن عند اعادة بحث موضوع الاحتجاج في الاجتماع التالي (١٣)، رؤى الاكتفاء بتوجيه مذكرة الى حكومة فرنسة الحرة من خلال سفيرها في لندن على ان يكون الاحتجاج ذا طابع عام حتى لا يثير مخاوف الفرنسيين ، ويفتح الباب امام الدخول معهم في صراع يضر بقضية الحلفاء . غير انهم اوصوا بضرورة بقاء سورية ولبنان داخل كتلة الاسترليني ، لما لذلك من اثار على المصالح البريطانية في المنطقة ، ولارتباطه بالسياسة الاقتصادية التي تعتزم بريطانية اتباعها في الشرق الاوسط بعد الحرب .

وفي ضوء الافكار التي طرحت على بساط البحث في تلك الاجتماعات تبلورت الخطوط العامة للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط ، التي قامت على ضرورة الزام الفرنسيين بتنفيذ تعهداتهم السابقة ، ومنح سورية ولبنان الاستقلال التام ، وفتح الطريق بذلك أمام اقامة منظمة اقتصادية للشرق الاوسط باسم « المجلس الاقتصادي للشرق الاوسط » « MEEC » بالتعاون مع الولايات المتحدة الامريكية ودول المنطقة ، على أن يكون عمل هذه المنظمة امتدادا لنشاط مركز تموين الشرق الاوسط MESC ،

وفتح باب المباحثات مع الامريكان حول هذا الموضوع . وبدأت هذه السياسة تعرف طريقها الى التنفيذ ، بمصادقة مجلس الوزراء البريطاني عليها (١٤) فأرسل ايدن وزير الخارجية ، مذكرة مطولة الى اللورد هاليفاكس – السفير البريطاني في واشنطن – حول السياسة البريطانية في الشرق الاوسط تضمنت مطالبته بمفاتحة الحكومة الامريكية لتأييد هذه السياسة مع التركيز على الجوانب الاقتصادية كميدان للتعاون بين الطرفين في المنطقة (١٥) .

ولكن المسؤولين الانجليز في الشرق الاوسط ظلوا يضغطون على حكومتهم من اجل الحصول على تأييد الحكومة الامريكية للسياسة البريطانية الخاصة بسورية ، وكذلك المشروع الخاص باقامة اتحاد عربي في اطار مشروع سورية الكبرى . فقد ابرق وزير الدولة في الشرق الاوسط الى وزارة الخارجية ملفتا النظر الى احتمال قيام فرنسة بتوقيع معاهدة منفصلة مع كل من سورية ولبنان كل على حدة ، مع ربطهما بعجلة النفوذ الفرنسي ، مما يجعل اقامة « سورية الكبرى » من الصعوبة بمكان ، ورأى ضرورة أن تأخذ الخارجية هذا الموضوع بعين الاعتبار عند التفاوض مع الحكومة الامريكية بشأن الشرق الاوسط ، لان اقامة « سورية الكبرى » التي تضم سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، يعد – من وجهة نظره – حجر الزاوية في بناء اي سياسة بريطانية للشرق الاوسط فيما بعد الحرب .

غير أن الخارجية البريطانية رأت أن الحكمة تقتضي عدم اثارة هذا الموضوع مع الحكومة الامريكية لاستحالة انضمام فلسطين الى « سورية الكبرى » بسبب وضعها الخاص ، وان مفاتحة الامريكان في هذا الموضوع قد ينسف الجهود التي تبذل لكسب تأييدهم للسياسة البريطانية في المنطقة (١٦) .

ومن ناحية أخرى قدم الكولونيل Colonel Glubb – قائد الفيلق العربي الاردني واحد الخبراء الذي كانت تستشيرهم الخارجية فيما يتصل بالشرق الاوسط – مذكرة مستفيضة الى الخارجية حول وجهة نظره فيما يجب أن تكون عليه الاوضاع في التسويات التي ستعقب الحرب ، فرأى ان مستقبل سورية وفلسطين سيمثل مشكلة كبرى بعد اعلان الهدنة ، وأن حل هذه المشكلة يجعل بريطانية في مأمن من مواجهة القلاقل والاضطرابات في العراق بسبب تحمس العراقيين وتعاطفهم مع سورية وفلسطين .

وفيما يتصل بسورية ذهب جلوب الى معارضة استقلال سورية استقلالا تاما ، بدعوى أن السوريين لا يستطيعون تحمل أعباء الحكم وحدهم لان الفرنسيين لم

يدربونهم على ذلك . ويقتضي ذلك أن تضع احدى الدول الاوربية يدها على سورية والا حلت الفوضى بالبلاد . كما أن فرنسة قد تنتهز فرصة انشغال العالم بازالة اثار الحرب، فتقوم بعمليات عسكرية فيسورية ولبنان وتضمهما في وحدةسياسية واحدة تديرها بصورة مباشرة على نحو ما فعلت في شمال افريقية . ويرى أن مصلحة بريطانية تقتضي اخراج الفرنسيين من سورية على أن تحل محلهم دولة أخرى تعمل على تهيئة السوريين للاستقلال ، ومثل هذه الدولة قد تكون الولايات المتحدة الامريكية او بريطانية .

واقترح جلوب أن تشمل المفاوضات مع الحكومة الامريكية اقتراح بريطانية أن تتولى الولايات المتحدة الامريكية مسؤولية سورية كلها بما فيها لبنان أو بدونه . ومثل هذا العرض يبرىء ساحة الانجليز من تهمة السعي لاخراج الفرنسيين من سورية ليحلوا محلهم ، كما انها قد تزود سورية بادارة « مستنيرة غنية متعاطفة تعاونها على الاستعداد لمرحلة الاستقلال ، كما قد تعطي امريكة خبرة ببعض الاعباء التي تقع على عاتق بريطانية » .

فاذا رفضت امريكة الانتداب على سورية كان من السهل على بريطانية قبوله ، وبذلك يصبح بالامكان تحقيق مشروع « سورية الكبرى » الذي يجب أن يكون تحت رعاية بريطانية . واقترح جلوب اخراج الفرنسيين من المنطقة عن طريق التفاوض وتعويضهم عن ذلك بمناطق أخرى خارج الشرق الاوسط ، أو أن يتم تحقيق ذلك عن طريق استفتاء عام للسكان (١٧) .

ولكن فكرة قبول بريطانية الانتداب على المنطقة من قبل الامم المتحدة كانت مرفوضة تماما فيدوائر الخارجية البريطانية . ولم تكن هذه الفكرة تعيش الا في اذهان بعض الخبراء البريطانيين الاستعماريين العاملين بالمنطقة من طراز جلوب وسبيرز ، الذين ربطوا بين المصالح الاستراتيجية البريطانية في الشرق الاوسط ، وبين ضرورة سيطرة بريطانية سياسيا على اتحاد عربي يضم بلاد الشام كلها - بالمفهوم الجغرافي للكلمة - تحت اسم « سورية الكبرى » أو اتحاد عربي اوسع يضم جميع البلاد العربية يكون بمثابة هيئة للتنسيق السياسي بين البلاد العربية وبين السلطات البريطانية ، مع احتفاظ البلاد العربية بمظاهر الاستقلال وبحكومات وطنية من العناصر المعتدلة التي تقبل بالتنسيق مع بريطانية (١٨) .

* * *

ومهما كان الامر فقد بدأت المباحثات الانجليزية - الامريكية حول الشرق الاوسط

في ابريل ١٩٤٤ ، حيث تطرق البحث الى مصالح الدولتين في المنطقة كلها ، وفي حين ركز الامريكيون على مصالحهم البترولية في الخليج والمملكة العربية السعودية وحصلوا على تأيد الانجليز لتلك المصالح في اتفاق تم بين الجانبين وتناول تفاصيل هذا الجانب الذي يهم الولايات المتحدة بالدرجة الاولى ، ركز البريطانيون على انتزاع اعتراف أمريكة بالشرق الاوسط منطقة نفوذ بريطانية . غير أن الامريكان فضلوا أن تكون المنطقة مجالا للتعايش Modus vivendi بين الدولتين بعد الحرب ، مؤكدين على أن اهتماماتهم بالمنطقة اقتصادية وثقافية بالدرجة الاولى .

وفي الجلسة الثانية للمباحثات (١٢ ابريل) عرض الجانب البريطاني المسألة السورية ، بما في ذلك المفاوضات التي دارت على المستوى المحلي ، والاتفاقية الخاصة بنقل السلطة الى فرنسة الحرة ، والمفاوضات التي أجريت مع الجنرال كاترو . واكد الجانب الامريكي أن الولايات المتحدة الامريكية تستعد للاعتراف باستقلال سورية ولبنان وتعيين وزير أمريكي مفوض فيهما بمجرد اعلان الاستقلال . واعترض على فكرة اخراج الفرنسيين من المنطقة التي عرضها الجانب البريطاني لسبرغور الامريكان، وذكر الجانب الامريكي خلال المباحثات أنه من الضروري أن يحتفظ الفرنسيون بصلاحيات ادارية في البلدين حتى تضع الحرب أوزارها ، على أن يتحول القائد العام الفرنسي في بيروت الى سفير فوق العادة . ولكن الجانب البريطاني راى ضرورة ان ينظم الفرنسيون علاقتهم بالبلدين في شكل معاهدة على نسق مافعلته بريطانية مع مصر والعراق ، وأن يتخذ الفرنسيون موقفا محددا من مطالب الاستقلال في البلدين حرصا على مصالح الحلفاء في المنطقة ، وأنه يجب عقد اتفاقية تسوية اذا فشلت تجربة تعايش المصالح الانجلو ـ فرنسية .

ولم يعترض الجانب الامريكي على المقترحات البريطانية ، غير انه أعلن اعتراضه على ما تعهدت به بريطانية لفرنسة الحرة في اتفاقية ليتلتون ـ ديجول ، من أن يكون لفرنسة امتيازات خاصة في سورية ولبنان دون سائر الدول الكبرى الاخرى ، لان ذلك يتعارض في رأيهم مع « مبدأ التعايش » الذي طالبت به امريكة (١٩) .

وتناولت المباحثات البريطانية ـ الامريكية موضوع التعاون بين البلدين لدعم اقتصاديات المنطقة في اطار « المجلس الاقتصادي للشرق الاوسط MEEC » ، باعتباره امتدادا لنشاط مركز تموين الشرق الاوسط MESC الذي نجح في تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي لبلاد الشرق الاوسط خلال انقطاع الخطوط الملاحية في البحر المتوسط بسبب ظروف الحرب . على أن يكون المجلس المقترح بمثابة مؤسسة

انجلو ـ أمريكية تقوم بتقديم المشورة الفنية لدول المنطقة في النواحي الاقتصادية ، ويشمل نشاطه سورية ولبنان أيضا . وقد وافق الجانب الامريكي على الاقتراح البريطاني بهذا الصدد ، على ان يكون المجلس « منظمة اقليمية »،وليس مجرد جهاز انجلو ـ امريكي ، بحيث تساهم فيه جميع دول المنطقة . وكانت حجتهم في ذلك ان حكومات المنطقة لن تهتم بهذا المجلس اذا لم تساهم فيه مساهمتها في الامم المتحدة . وأصر المفاوضون الامريكان على أن يكون المجلس منظمة محلية تعتمد على جهود الكفايات المحلية ، وتموله دول المنطقة ، على أن يقتصر دور البريطانيين والامريكان على تقديم المشورة الفنية (٢٠) .

ولم يكن من المتوقع ان تعترف الولايات المتحدة الامريكية بالشرق العربي منطقة نفوذ بريطانية ، في الوقت الذي كان فيه الامريكان قد مهدوا الطريق لتوطيد نفوذهم في المنطقة ، مستفيدين في ذلك من ظروف الحرب . وكانت استراتيجية الامريكان تقوم على توسيع مصالحهم الاقتصادية عامة والبترولية خاصة (٢١) ، ومن ثم كان تركيزهم في تلك المباحثات على الجانب الاقتصادي ، وطرحهم لمبدأ « التعايش » بين الدول الكبرى بدلا من التسليم باعتبار المنطقة مرتعا للنفوذ البريطاني وحده . ولذلك لم يتحمسوا للاقتراح الخاص بتصفية الوجود الفرنسي في الشرق العربي على يد الانجليز، وان كانوا لم يقبلوا الاعتراف لفرنسة بامتيازات خاصة في سورية ولبنان .

وفي ضوء تلك المباحثات بدأ الانجليز يخففون من ضغطهم على فرنسة الحرة من اجل المسألة السورية ، ولكن ذلك لم يتم طفرة ، فقد حرص الانجليز على اقامة سد منيع بين الفرنسيين والعرب . وعندما زار تشرشل فرنسة المحررة في نوفمبر ١٩٤٤، كان ديجول رئيسا لفرنسة، وفتح ملف سورية في الاجتماع الذي عقد بين الرجلين بحضور ايدن وزير الخارجية البريطانية وبيدو Bidault وزير الخارجية الفرنسي. ذكر ديجول انه منح سورية ولبنان استقلالهما بنفس الشروط التي منحت بها بريطانية الاستقلال لمصر والعراق . وأبدى تشرشل تفهمه لذلك وأكد مرة أخرى لديجول أن الحكومة البريطانية لا تفكر في أن تحل محل فرنسة في المنطقة .

وهنا استطرد ديجول قائلا : « ان ما نهدف اليه ان يكون لنا وجود في المنطقة على ان يتخذ ذلك شكل معاهدة تضمن امتيازاتنا » . فأجابه تشرشل بقوله : « ان هذين البلدين مستقلان ، واذا حاولتم ذلك فستعرضون أنفسكم للمتاعب » . فرد بيدو على الفور بحدة : « ان وجودنا في سورية ولبنان حيث سقط رجال فرنسيون صرعى ، يضع على عاتقنا ارث مقدس » .

ولم يملك رئيس الوزراء البريطاني سوى ان يعد بنقل وجهة نظر فرنسة الى مؤتمر السلام ، وابدى استعداده للدفاع عن وجهة النظر الفرنسية مابقى الفرنسيون بعيدين عن اثارة الاضطرابات في سورية ولبنان (٢٢) .

وكانت اخر مهمة كلف بها الجنرال سبيرز الوزير البريطاني المفوض في سورية ولبنان ، قبل اقصائه من منصبه في ديسمبر ١٩٤٤ ، هي ابلاغ الحكومتين السورية واللبنانية نصيحة الحكومة البريطانية للتفاوض مع فرنسة حول عقد معاهدة منظمة للعلاقات السورية ـ الفرنسية ـ اللبنانية ، غير ان هذه النصيحة البريطانية قوبلت بالرفض التام من جانب البلدين (٢٣) .

وفي طريق عودتهما من يالتا توقف تشرشل وايدن بالقاهرة في ١٧ فبراير ١٩٤٥ حيث اجتمعا بالرئيس السوري شكري القوتلي . وأوضح تشرشل للقوتلي ان بريطانية بذلت كل الجهد لاقناع الفرنسيين بالاعتراف باستقلال سورية ولبنان ، ولكن يجب على السكان بدورهم الا يقذفوا بالفرنسيين خارجا (٢٤) .

وعاد تشرشل الى تناول نفس المسألة في تصريح أدلى به أمام مجلس العموم في ٢٧ فبراير ١٩٤٥ ذكر فيه أن بريطانية قررت « احترام استقلال سورية ولبنان، وان تبذل أقصى الجهد للمحافظة على الوضع الخاص لفرنسة في ضوء الروابط التاريخية والثقافية التي ربطتها بالمنطقة منذ زمن بعيد .. ونأمل أن يستطيع الفرنسيون الاحتفاظ بوضعهم الخاص » . وأكد تشرشل على عدم استطاعة بريطانية الوصول الى حل لهذه المشكلة وحدها عندما قال : « يجب ان نلاحظ حقيقة أن روسية والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان ، ولا تميلان الى تأييد أي وضع خاص لاي دولة اجنبية أخرى » (٢٥) .

وقد يبدو غريبا ان يتحول الموقف البريطاني من الوجود الفرنسي في سورية ولبنان من الرفض التام لذلك الوجود ، الى التمسك بضرورة المحافظة على ماسماه تشرشل « بالوضع الخاص » لفرنسة في المنطقة . ولكن هذا الموقف البريطاني كان موجها ـ في رأينا ـ ضد سياسة الرئيس روزفلت الذي تبنى مبدأ تصفية الوجود الاستعماري الصارخ في الشرق الاوسط ، على أن يستبدل به سياسة « التعايش » او « الباب المفتوح » التي تتيح للمصالح الاقتصادية الامريكية فرصة النمو ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام النفوذ الامريكي الذي كان يعد العدة للتغلغل في المنطقة فيما بعد الحرب . ولذلك كان الانجليز يرمون من وراء تمسكهم باقامة علاقة تعاهدية بين فرنسة وسورية ولبنان ، الدفاع عن الاساس الذي قامت عليه سياسة بريطانية في مصر والعراق في مواجهة الضغوط الامريكية ، والمحاولات الامريكية لتحقيق كسب سياسي في المنطقة على حساب بريطانية .

فقد حاول الانجليز حمل الامريكان على تغيير موقفهم ، عندما دارت مباحثات بين الجانبين (في ٢٨ سبتمبر ١٩٤٤) ذكر فيها الجانب البريطاني ان بريطانية لاتنوي البقاء في سورية وان فرنسة تسترد قواها يوما بعد يوم ، فاذا لم تنتهز سورية ولبنان الفرصة الان وتوقع معاهدة مع فرنسة ، فقد لاتستطيع الحصول على الشروط المناسبة التي يمكن أن تحصل عليها الان ، ومن ثم كان على البيت الابيض أن يؤيد احتفاظ فرنسة بعلاقات مع البلدين على نسق العلاقات البريطانية ــ العراقية (٢٦).

ولكن الجانب الامريكي لم يستجب لوجهة النظر البريطانية ، فرفضت الخارجية الامريكية في مذكرة وجهتها الى السفارة البريطانية بواشنطن (٥ أكتوبر ١٩٤٤) فكرة التزام سورية ولبنان بتوقيع معاهدة مع فرنسة على النمط البريطاني . وفي لقاء تم بين رئيس قسم الشرق الادنى بالخارجية الامريكية Foy Kohler والممثل السياسي الفرنسي في واشنطن ، حذر الاول من ان حكومتي سورية ولبنان قد تلجآن الى طلب المساعدة من الاتحاد السوفيتي ، اذا تعرضتا لضغط شديد من جانب فرنسة ، وأصر كوهلر على ضرورة اقلاع الفرنسيين عن فرض شروط معاهدة ١٩٣٦ ، أو شروط شبيهة بتلك التي وردت في المعاهدة العراقية ــ البريطانية ، على اي من البلدين . وفي برقية ارسلها Hull وزير الخارجية الامريكي الى جورج وودزورث George Wadswarth الوزير الامريكي في بيروت (٤ أكتوبر) ، أشار الى أن الولايات المتحدة لا تعارض في ابرام اي معاهدة بين سورية ولبنان وفرنسة اذا قبلها الجانب العربي بمحض ارادته ، « ولكننا لا نعتزم حث الحكومتين على توقيع أو ابرام أي معاهدة كانت مع الفرنسيين ، كما اننا لن نوافق على اية معاهدة تعطي للفرنسيين امتيازات خاصة في البلدين » (٢٧) .

لقد كانت أمريكة ترمي بكل ثقلها في الشرق العربي ، متخذة من السعودية منطلقا لمصالحها الاقتصادية في المنطقة . وكانت تريد ــ على مايبدو ــ بالتضييق على الوجود الفرنسي في سورية ولبنان ، تنبيه الانجليز الى حقيقة أن انفرادهم بالمنطقة امر لايمكن ان تقبل به الولايات المتحدة ، كما أنها لا تعترف بالامتيازات التي خلعتها فرنسة ، وبالتالي بريطانية ، على نفسها في المنطقة . فهي من باب أولى لا تعترف بالشرق الاوسط منطقة نفوذ بريطانية ، وهو مالم يدخله الانجليز في حسابهم عندما وضعوا مخططاتهم السياسية للمنطقة فيما بعد الحرب ، وظنوا ان باستطاعتهم احتواء الاطماع الامريكية بعد طرد الفرنسيين من المنطقة في اطار من التعاون الاقتصادي . وغاب عن اذهانهم أن الحرب العالمية الثانية نقلت لواء قيادة المعسكر الغربي الى امريكة التي كانت لها مخططاتها الخاصة بها ، والتي لايمكن أن تتوافق مع ما رسمه الانجليز .

مصـــادر البحــث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

Foreign Office, Political Correspondence, F O 371/34975, 39985.

ثانيا ـ وثائق منشــورة :

House of Commons Debates, 5 th series, vol 374.

ثالثا ـ الكتــب :

Anton W . De Porte, **De Gaulle's Foreign Policy 1944 - 1946,** Cambridge, Mass. 1968.

Basil Liddell Hart, **History of the Second World War,** London 1970.

Davet, Michel - Christian, **La Double Affaire de Syrie,** Paris 1967.

De Gaulle, **Memoires de Guerre,** vol 1, Paris 1954.

Mark Arnold - Foster, **The World at War,** London 1973.

Sachar, Howard M. ,**Europe Leaves the Middle East 1936-1954,** London 1974.

Woodward, Sir E. Liewellyn, **British Foreign Policy in the Second World War, 2** vols, London 1970 .

الحواشي :

(1) Basil Lidell Hart, **History of the Second World War**, London 1970
Mark Arnold-Foster, **The World at War,** London 1973.
Woodward, Sir E. Liewellyn, **British Foreign Policy in the Second World War**, 2 vols, London 1970.

(2) F. O. 371/34975/E3234 Casey to Eden, 20 May 1943.

(3) Woodward, **OP. cit.,** vol I, pp 584 - 85.

(4) House of Commons Debates, 5 th series, vol 374, col. 76.

(5) Woodward, **Op. cit.**, vol I pp 586 - 92. see also; Anton W. De Porte, **De Gaulle's Foreign Policy,** 1944 - 1946, Cambridge, Mass., 1968,p. 131.

(6) De Gaulle, **Memoires de Guerre,** vol I, Paris 1954, P 213.

(7) F. O. 371/34975/E 3234, Middle East War Council Resolutions on the British Post-War Policy.

(8) F. O. 371/34975/E 3234 ME WC, Aide Memoire on Syria.

(9) F. O. 371/34975/E 3234, Minute by R.M.A. Hankey, 24 May 1943.

(10) Ibid.

(11) F.O. 371/34975/E 4081 Casey to Cadogan, 25 June 1943.

(12) F.O. 371/34975/E 3896 War Cabinet, Note of a Meeting Held in Sir Alexander Cadogan's Room at the Foreign Office on 28 June 1943.

(13) F.O. 371/34975/ E 3896, W. C. O., Note of a Meeting held in Sir Alexander Cadogan's room at the Foreign Office on 29 June 1943.

(14) F.O. 371/34975/ E 4265, Secret, Note by the Foreign Secretary Submitting Recommendations as Regards to British Policy in the Middle East, 15 July 1943.

(15) F.O. 371/34975/E 4462, Minute by Baxter, 31 July 1943.

(16) F.O. 371/34975/E 4833, Secret, Casey to Eden, 14 August 1943.

(17) F.O. 371/34975/E 5925, Secret, Further Note on Peace Terms in the Middle East, Memo by Colonel Glubb, 1 October 1543.

(18) Ibid.

(19) F.O. 371/39985/E 2319, Memorandum on Anglo-American Conversations Regarding Middle East, Second meeting, 12 April 1943.

(20) F.O. 371/39985/E 2455, Anglo-American Conversations Regarding Middle East, 4th meeting, 18 April 1944.

(21) F.O. 371/34975/E 4462, Eden to Lord Halifax, 31 July 1943.

(22) Davet, Michel - Christian, **La Double Affaire de Syrie**, Paris 1967, pp. 244 - 46.

(23) Sachard, Howard M., **Europe Leaves the Middle East 1936 - 1954**, London 1974, pp. 311 - 12.

(24) Woodward : **OP. Cit.**, P 275.

(25) Sachar : **OP, cit.**, P. 313 .

(26) Ibid, P 313 .

(27) **Ibid**, P. 314.

صفحات من تاريخ الجمعيات
في بلاد الشام ١٨٥٠-١٩٠٨
من الجمعيات العلمية ، إلى الجمعيات السياسية

د. سهيلة الريماوي

كلية الاداب ـ الجامعة الاردنيــة

ظهرت ((الصيغ التنظيمية)) في الامبراطورية العثمانية على شكل جمعيات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد كان نشوء هذه ((الجمعيات))(١) وليد حركة تطور طويلة المدى تمتد خلال القرن كلــه ، اذ يعتبر مرحلة تاريخية واحــدة بأحداثه السياسية والاقتصاديــة والعسكرية والفكرية ، تكون مرحلة خاصة ومتميزة من مراحل التاريخ العربي . يمكننا أن نسميها مرحلة ((التفتح)) الفكري ومرحلة النهضة في مجالاتها المختلفة .
ان القرن التاسع عشر بالنسبة للوطن العربي هو ـ بصورة عامة ـ مرحلة تفاعل ثلاث حركات تاريخية ضخمة هي : حركة اليقظة العربية الناشئة ، وحركة الرأسمالية الاوربية الصاعدة ، وحركة اصلاح شؤون الدولة العثمانية وسيطرتها على البــلاد العربيــة .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية ، بدأت تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير في انحاء الوطن العربي ، كما بدأت تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، فكثرت المدارس ، وانتشرت المطابع والصحف فانتشر التعليم وازدهر ، كما نما وتطور بعد عودة طلاب البعثات العلمية التي توجهت الى اوربا ، وبعد تخرج طلاب مدارس الارساليات الاجنبية التي افتتحت في البلاد ، ولقد اسهم كل ذلك في نقل الافكار التحررية ـ التي سادت اوربا في القرن التاسع عشر ـ الى بـلاد الامبراطورية العثمانية ، فولد تيارات علمية وسياسية جديدة ، لعلماء ومفكرين سياسيين ، مجددين ومصلحين وثوار ، ظهروا في ارجاء الامبراطورية ـ ومنها الوطن العربي ـ بصورة متجددة ومتطورة .

ولقد تبلور هذا كله في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في ظهور ((صيغ تنظيمية)) كانت في بادىء الامر جمعيات علمية أو ثقافية ، ثم تطورت الى حلقات علمية

ذات مضمون سياسي ، ولم تلبث بعدها ان ظهرت الجمعيات السياسية مع مطلع القرن العشرين .

الجمعيات العلمية : بدات تظهر الجمعيات العلمية في سورية الى جانب الجمعيات الادبية والخيرية ، وهي جمعيات اخذت زمام المبادرة في انشائها بعض الشخصيات والمؤسسات المحلية او الاجنبية .

فقد تأسست « الجمعية السورية » في بيروت مثلا اواخر سنة ١٨٤٧ ، وهي جمعية علمية كان من مؤسسيها « بطرس البستاني » و « فان ديك » الامركي . وهما اللذان عملا معا على تأسيس «مدرسة عبيه » في لبنان ، وكانا يتركان مدرستهما في وقت الفراغ ، ويتوجهان الى الجمعية لالقاء الابحاث والمحاضرات والخطب . .

لقد بقيت هذه الجمعية تعمل بنشاط حتى سنة ١٨٥١ ، وبقيت رائدة في نظمها « جرى عليها كثير من الجمعيات التي قامت بعدها » وكانت مكتبتها العظيمة قبلة طلاب العلم ، وتحتوي العديد من امهات الكتب ، والكتب الحديثة .

وفي سنة ١٨٥٢ طبع المعلم « بطرس البستاني » قوانينها وبعض اعمالها ووزعها على اعضائها الخمسين ، ولكن هذه الجمعية فقدت مكانتها بعد هذا العام وتبعثرت كتب مكتبتها ، كما تبعثر اعضاؤها(٢) وقد تلت هذه الجمعية في لبنان عدة جمعيات منها : الجمعية العلمية والجمعية الادبية ، ثم عدد من الجمعيات الطائفية ، كما تأسست جمعية زهرة الآداب سنة ١٨٧٣ برخصة من الدولة العلية . .

أما في دمشق فقد ازدهرت الجمعيات العلمية في عهد ولاية مدحت باشا على سورية (١٨٧٨ — ١٨٨٠) الذي أسس جمعية المقاصد الخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية(٣) بعد ان حول اموال الاوقاف الى المجال العلمي ، فافتتح الفروع لمدارس وجمعية المقاصد الخيرية في الولاية ، وعندما صدرت الارادة السنية سنة ١٨٨٢ بتحويل المقاصد الخيرية الاسلامية الى مجلس معارف(٤) كان عدد الجمعيات قد ازداد في دمشق ازديادا ملموسا .

أما في القدس . فقد كان هناك جمعيتان وطنيتان طائفيتان الاولى جمعية « سوسنة صهيون » . وهي فرع جمعية اتحاد الشبان المسيحية بلندن انشئت سنة ١٨٧٧ ، والثانية جمعية الغيره المسيحية لطائفة الروم الارثوذكس(٥) هذا عدا عن الجمعيات التي كانت قائمة في طرابلس وغيرها من المدن السورية (٦) .

الجمعيات والحلقات العلمية ـ السياسية : ومنذ عام ١٨٧٥ اسس طلاب الجامعة الاميركية في بيروت جمعية اطلقوا عليها اسم « الجمعية السورية » وكان معظم اعضائها من الطلبة المسيحيين ، وبالرغم من انها علمية الطابع ، الا انها كانت ذات مضمون سياسي ، « اذ كان اعضاؤها يقاومون الدولة العثمانية من خلال مقاومتهم للنعرة العنصرية والنعرة الدينية »(٧) ثم انتسب الى هذه الجمعية عدد من الطلبة المسلمين وتغلب الهدف السياسي عند اعضائها على النعرات الطائفية، ووضع اعضاؤها برنامجا يوضح اهدافها السياسية ومنها :

« منح الاستقلال لسوريا مع لبنان ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد ،والغاء الرقابة والقيود الاخرى التي تحول دون حرية الرأي وانتشار العلم ، واستخدام وحدات الجند المحلية في الخدمة العسكرية المحلية دون سواها »(٨).

اتهم مدحت باشا والي سورية ، بأنه سكت عن الجمعية ونشاطها بل وساعد على تشجيعها ، خصوصا بعد ان الصقت عدة مناشير ولافتات في دمشق وبيروت تحدت فيها الدولة العثمانية ، واتهمت الاتراك بالقضاء على اللغة العربية ، ولم توقف الجمعية نشاطها بعد ابعاد مدحت باشا عن سورية ، بل تابعت نشاطها في الصاق اللافتات والمناشير ، وعندما ازداد بطش عبد الحميد واستبداده ، كفت الجمعية عن العمل وهاجر اكثر اعضائها الى مصر (٩) .

اما في دمشق : فقد اسس السوريون حلقتين علميتين سياسيتين هما : حلقة دمشق الكبرى ، وحلقة دمشق الصغرى .

وتعرف حلقة دمشق الكبرى ، باسم حلقة الشيخ طاهر الجزائري (١٠) ايضا ، حيث اسسها وهو يشغل منصب « مفتش معارف » في عهد ولاية مدحت باشا على سورية ، كما ساهم في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية التي انشأها مدحت باشا ، وعمل الشيخ طاهر على اصلاح نظم التعليم في سورية بشكل عام .

ومن هذا المنطلق العلمي الاصلاحي ،تمكن الشيخ طاهر من جمع رجال العلم والمعرفة في دمشق حوله في حلقة دمشق الكبرى داعيا الى تعليم العلوم العصرية بالاضافة الى العناية بتاريخ العرب وتراثهم العلمي ، وتضم هذه الحلقة بين اعضائها ، عددا كبيرا من مصلحي دمشق : الشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري ، ثم التحق بالحلقة عدد كبير ممن كان دونهم في السن ، منهم رفيق العظم ومحمد كرد علي ، وفارس الخوري وعبد الحميد الزهراوي

وشكري العسلي وعبد الوهاب المويلحي « المعروف بالانكليزي » وعبد الرحمن الشهبندر والضابط سليم الجزائري وغيرهم (١١) .

لقد شملت احاديث اعضاء هذه الحلقة ، الاوضاع الادارية والسياسية القائمة في الامبراطورية العثمانية ، فشملت سوءالادارة ،واستبدا دالحكام الاتراك . كما بدؤوا يناقشون في جلساتهم مفاهيم الحرية والعدل والنظام ، مما دعا بعض المغرضين الى اتهام الشيخ طاهر بالخيانة الوطنية والعمل على فصل البلاد السورية عن غيرها من اقطار الامبراطورية ، فالغت الحكومة منصبه الحكومي وعرقلت اعمال الجمعية الخيرية ، وبعد بضع سنوات عين الشيخ طاهر مفتشا لدور الكتب في ولاية سورية ، فالتف حوله عدد كبير من محبي العلم ، ولم ترق هذه النهضة العلمية في دمشق لاعضاء حكومة عبد الحميد . مما ادى الى عزل حسن رفيق باشا والي سورية لغفلته عما يجري فيها (١٢) وسلمت قيادة الجيش الخامس الى الميستر عبد الله باشا الشركسي الذي اخذ يضطهد احرار العرب ويفتش منازلهم ، وكان في مقدمة هؤلاء اعضاء حلقة دمشق الكبرى ، وقد زاد الامر سوءا عندما وقع بايدي السلطة نشرات جمعية« تركيا الفتاة » المناوئة للسلطان ، اذ اتهمت الحكومة العثمانية الشيخ طاهر الجزائري بالاشتراك في تشجيع وتوزيع هذه النشرات ، فاقتحموا منزله وهو غائب في جولة خارج دمشق ، وعندها بادر بالرحيل الى مصر (١٣) .

ويشير مصطفى الشهابي الى انه تولد من هذه الحلقة العلمية ، جمعية سرية سياسية في دمشق . تضم بين اعضائها العرب عددا من الاتراك أما هدفها فهو السعي للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق ، كما كان يطالب اعضاؤها بتطبيق الشورى وعودة الدستور ، وقد اشترك في هذه الحلقة ضابطان عربيان هما سليم الجزائري واسعد درويش الطرابلسي ، وفيها من العرب المدنيين فارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب المويلحي وغيرهم ، ومن الاترك أمير اللواء بدري بك ومدير المعارف حسين عوني ، ويضيف الشهابي الى انه استقى هذه المعلومات من احد اعضاء هذه الحلقة السياسية وهو فارس الخوري الذي كان النصراني الوحيد في هذه الحلقة(١٤) .

حلقة دمشق الصغرى : ربما كان مصطفى الشهابي ، يعني بهذه الجمعية السرية، حلقة دمشق الصغرى السرية ، اذ كان من بين اعضائها فارس الخوري وكان النصراني الوحيد فيها كما يقول صديقه لطفي الحفار (١٥) .

لقد بدأ التفكير بتأسيس هذه الحلقة بين بعض طلاب الفصول النهائية في المدرسة

الثانوية بدمشق المعروفة بـ « مكتب عنبر » وكان هؤلاء الطلاب يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري لحضور الاجتماعات والندوات فيها ، ورائد فكرة التأسيس هذه هو « محب الدين الخطيب » الذي كان يلازم الاجتماع في الحلقتين « ليكون الصلة بينهما (١٦) وعندما انتهت حلقة دمشق الكبرى ، اتفق هؤلاء الطلبة فيما بينهم على الانتظام في حلقتهم السياسية السرية سنة ١٩٠٣ ، واطلقوا عليها اسم حلقة دمشق الصغرى « اسوة بحلقة دمشق الكبرى » ونشير وثائق محب الدين الخطيب الى اسماء اعضاء هذه الحلقة وهم « زملاء المدرسة » صلاح الدين القاسمي وعارف الشهابي وصالح قنباز ؛ اما خارج المدرسة فكان من اعضائها لطفي الحفار ورشدي الحكيم ، وتضيف مذكرات محب الدين الخطيب اسماء ، زكي الخطيب ، وعثمان مردم وسيف الدين الخطيب (١٧) .

يشير مؤسس الحلقة « محب الدين الخطيب » الى الهدف الاول لتأسيس الحلقة بقوله : « كنا نتعلم في مكتب عنبر كل العلوم باللغة التركية ، حتى نحوالعربية وصرفها ، من كتاب باللغة التركية اسمه « المشذب » كان مفروضا على مدارس الحكومة في الولايات العربية ، وكان معلم اللغة العربية شيخا تركيا مسنا لايكاد يعرف النطق باللغة العربية » (١٨) في هذا الجو نشأ مؤسسو حلقة دمشق الصغرى ، ومن هذا المنطلق تحدد هدف الحلقة وهو:« تعريف شباب العرب المثقف بعروبتهم ودعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربي من جبال طوروس الى باب المندب (١٩) .

وقد انتقل هؤلاء الطلبة بسرعة مذهلة من الكلام النظري الى التطبيق العملي ، فأسسوا غرفا للمطالعة ، وساهموا في التعليم في المدارس الاهلية بالمجان ، وتوسع انتشار هذه الحلقة عندما سافر عدد من اعضائها الى بيروت لتكملة الدراسة هناك واتصلوا بزملائهم في الكلية الاميريكية ، وكلية الشيخ عباس الازهري ، حيث انضم الى عضويتها عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان وغيرهم (٢٠) .

وعندما انتقل عدد من اعضاء الحلقة المؤسسين الى استامبول للدراسة العالية ، وكان منهم محب الدين الخطيب ، وعارف الشهابي ، تحولت حلقة دمشق الصغرى الى جمعية سياسية هي جمعية النهضة العربية .

ـ من الجمعيات العلمية ـ الى الجمعيات السياسية : مما لا شك فيه ، ان

هذه الجمعيات ، العلمية والعلمية ـ السياسية ، ومنجزاتها ، اثرت تأثيرا فعالا في نشوء الجمعيات السياسية ، وذلك انها :

اثرت في تكوين الوعي العام العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، من خلال الابحاث التي كانت تعرضها للمناقشة ، وما كان يترتب على هذا النقاش من تفاعل يساعد على انتشار الوعي بصورة عامة .

ومن ناحية اخرى ، فان الجمعيات الخيرية منها ، بصورة خاصة ، ساهمت في تكوين « المسؤولية الاجتماعية » تجاه المواطن الذي يحتاج الى الرعاية والعناية ولا يخفى الاثر الفعال الذي يتركه غرس ونمو معاني مسؤولية الافراد تجاه المجتمع بصورة عامة من خلق المسؤولية السياسية تجاهه ، وما تتبلور في هذه المسؤولية من تطلع لتأسيس الجمعيات السياسية كأداة لها .

ثم ان ممارسة عملية الانتساب والانتظام في الجمعيات ـ بقطع النظر عن اهدافها ـ وما تنطوي عليه هذه الممارسة من اعمال تنظيمية وتنفيذية ومن ممارسة حقوق العضوية واداء واجباتها ،كل ذلك ساعد على خلق الادراك لاهمية وفائدة « العمل الجماعي المنظم » كما ساعد على توفير الخبرة اللازمة لبناء « المنظمات » التي تؤدي هذا العمل الجماعي ، فساعدت بذلك على توفير الادراك والخبرة اللازمين لتكوين « الصيغ التنظيمية » في مجال العمل السياسي والجماعي .

لقد أسس السوريون المهاجرون الى مصر أول جمعية عثمانية سياسية هي جمعية « الشورى العثمانية » برئاسة الشيخ رشيد رضا .

كما أسس الطلبة السوريون الذين سافروا الى استامبول لتلقي التعليم العالي هناك ، جمعية النهضة العربية .

اما جمعية الشورى العثمانية : فقد تأسست في مدينة القاهرة مع مطلع القرن العشرين . فكانت بذلك من اوائل التنظيمات السياسية التي ظهرت في الدولة العثمانية من جهة ، ومن اوائل التنظيمات السياسية التي اسسها العرب السوريون من جهة اخرى (٢١) .

ولم تقتصر جمعية الشورى العثمانية على العرب فقط بل ضمت بين اعضائها عددا كبيرا من ابناء القوميات العثمانية الاخرى المقيمين في مصر ، ويقول الشيخ

رشيد رضا : « كان يصل الينا القليل من اخبار الاستبداد ووقائع الافساد ، وبعد وفاة الاستاذ الامام ـ يعني الامام محمد عبده ـ صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالسه فيه الى مجالسة اخواننا العثمانيين المقيمين في القاهرة ، فازددنا علما بسوء الحال وخطر المآل ، فأسسنا جمعية الشورى العثمانية لاجل جمع كلمة العثمانيين ، فتألفت الجمعية من المسلمين : عربهم وتركهم والبانهم ..»(٢٢).

اما هيئتها الادارية الاولى فكانت على النحو التالي :

الشيخ رشيد رضا رئيس مجلس الادارة .
رفيق العظم امين الصندوق .
حقي العظم ـ السكرتير العربي .
الضابط صائب بك ـ مندوب جمعية الاتحاد والترقي بمصر .
عبد الله جودت بك ـ أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي(٢٣) .

لقد تأسس عدة فروع لهذه الجمعية في الاقطار المختلفة ، وكانت تطبع منشوراتها باللغتين العربية والتركية ، وترسلها الى فروعها في البلاد الاجنبية فيوزعونها في الولايات التي يقيمون فيها وفيما جاورها ، بل « كان يرسل بعض هذه المنشورات في البواخر الروسية مع بعض المسافرين والمستخدمين فيها الى ثغور البحر الاسود فيأخذها هناك منهم من يتولون ارسالها الى جميع بلاد الاناضول » .

وفي شهر شباط فبراير سنة ١٩٠٧ أصدرت جمعية الشورى العثمانية جريدة تحمل اسم الجمعية ، كان رفيق العظم يحرر القسم العربي منها وحقي العظم يحرر القسم التركي أما انشاء واما ترجمة لما يكتبه اعضاء الجمعية باللغة العربية ، كما كانت تنشر المجلة بعض المقالات باللغة الفرنسية(٢٤) .

ويمكننا ان نصل الى عدة نتائج ايجابية ، من أقوال رئيس الجمعية التي نشرها في عدة مناسبات ، وأهم هذه النتائج :

ان هذه الجمعية تأسست بعد وفاة الشيخ الامام محمد عبده : « وبعد تأسيس جمعية تركيا الفتاة وتكوين حزب الاتحاد والترقي »(٢٥) أي بعد سنة ١٩٠٤ وأنها اصبحت قبل سنة ١٩٠٧ جمعية قائمة ناشطة ذات فروع في مناطق مختلفة وانها امتلكت في مطلع هذه السنة صحيفة تحمل اسمها .

وان هذه الجمعية تأسست بتأثير عاملين اساسيين يلقيان لنا اضواء ساطعة على ادراك مبادئها واهدافها وهذان العاملان هما :

اولا : اوضاع الدولة العثمانية التي تتسم « بسوء الحال وخطر المآل » والتي تنذر بالخطر ، حتى كان نفور المتحدين معها في الدين واللغة والجنس ـ أي الترك ـ اشد من نفور المتحدين معها في الدين فقط ، كالعرب والاكراد ، فلم يكن يجدي في مواجهة تلك الاوضاع الا العمل المنظم الذي يستهدف سوء الحال وتلافي خطر المآل بمكافحة الاستبداد والظلم المتمثلين في نظام تلك الدولة ليحل محلها نظام قائم على الشورى والعدل ، وهذه هي الطريقة المثلى لصيانة الدولة من التمزيق بالاختلاف الذي هو ظهير الاستبداد والتفرق الذي هو نصير الاستعباد »(٢٦) . وفي رأينا أن هذا العامل العام كانعاملا اساسيا في ظهور جميع الجمعيات في تلك المرحلة من حياة الدولة العثمانية .

ثانيا : قصور جمعية تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقي ؛ عن تمثيل ارادة جميع الشعوب التي تتكون منها الدولة العثمانية ، اذ « لو أن مؤسسي جمعية تركيا الفتاة اهتدوا الى هذا التأليف بين الشعوب والملل في ابتداء العمل لما نزل ببلاد الارمن وكريت ومكدونيا ما نزل ولما تفاقم أمر الاستبداد واستفحل . »(٢٧) فقد اقتصرت جمعية تركيا الفتاة ـ نظريا ـ على المسلمين من هذه الشعوب ؛ وركزت ـ عمليا ـ على سيادة وكيان العنصر التركي من بين المسلمين انفسهم .

مباديء جمعية الشورى واهدافها : لئن كانت ظروف تأسيس جمعية الشورى العثمانية ـ كما أوضحها رشيد رضا ـ تكشف لنا عن مبادئها وأهدافها ؛ فاننا نجد هذه المباديء والاهداف محددة مصاغة في وثيقتين :

الوثيقة الاولى : وهي نص اللائحة الاساسية للجمعية التي اعلنها رشيد رضا على صفحات المنار ودعا العثمانيين على اساسها المسارعة بدخول الجمعية أفواجا . ولتعضيدها بآرائهم وأموالهم،وتقع هذه اللائحة في عشر مواد تضم المباديء والاهداف. ومعالم النظام الداخلي كذلك على الشكل التالي :

القصد من تأسيس هذه الجمعية « هو جعل الحكومة العثمانية دستورية شورية بالفعل»(م١) وان الجمعية ستبذل مافي وسعها للوصول الى غرضها هذا « بكل الوسائل المشروعة(م٢) أما من حيث التكوين العضوي للجمعية ؛ فتشير اللائحة الى أن جمعية الشورى العثمانية « تؤلف من العثمانيين من غير التفات الى الدين والجنسية »(م٣)

أما بالنسبة لوضع قوانين الجمعية فهناك : « لجنة مركزية اصلية تقوم بوضع نظامات الجمعية وقوانينها »(م٤) وان سير أعمال الجمعية يعين من قبل اللجنة المركزية(م٧) اذ ان « اللجنة المركزية تقوم بوضع القوانين وطبعها وتسمية الاشخاص اللازمين للوظائف التي ترد بالقوانين وتعيين وظائف كل فرد من الجمعية ومراقبة أعمال الموظفين »(م٩) كما تبين لنا اللائحة أن مركز الجمعية الان « هي مدينة القاهرة بمصر »(م٥) وان فروع الجمعية تكون كلها تابعة في أعمالها للجنة الكبرى المعروفة باسم اللجنة المركزية الاصلية(م٦) كما تشير اللائحة الى أن جمعية الشورى العثمانية هي جمعية علنية لان :، « مقصد الجمعية الساعية للحصول عليه ليس خفيا لذلك يجوز من الان اعلان وجودها »(م٨) على ان « تطبع هذه اللائحة الاساسية باللغات التركية والعربية والارمنية والفرنسية »(م١٠)(٢٨) .

أما الوثيقة الثانية : فهي نص القانون الاساسي للجمعية الذي يظهر انه وضع وأعلن بعد وضع اللائحة الاساسية الموجزة التي ذكرتها سابقا .

ويتألف هذا القانون من ست عشرة مادة مبوبة في خمسة فصول ، يحدد الفصل الاول منها مباديء الجمعية واهدافها وهويتها بينما تنصرف الفصول الاخرى الى تنظيم ادارتها الداخلية(٢٩) .

فاذا ما قمنا بدراسة مقارنة لمواد اللائحة الاساسية ــ الوثيقة الاولى ــ ومواد القانون الاساسي ــ الوثيقة الثانية ــ نرى انه ليس بينهما اية فروق ذات بال ، سوى ان القانون الاساسي أكثر تفصيلا من اللائحة .

ويشير القانون الاساسي الى ان الهدف الاساسي لجمعية الشورى العثمانية هو : التوسل لاقامة قاعدة الشورى على وجهها القطعي في دولة آل عثمان(م٢) واضافت هذه الجمعية الى مطلب الشورى الذي كان مطلبا ينادي به المصلحون كعلاج لاوضاع الاستبداد ، مطلبا جوهريا اخر هو : « نشر العدل والترقي في المملكة على مايقتضيه العصر »(تتمةم٢) .

ان هاتين الفقرتين اللتين تتكون منهما المادة الثانية ، تدلان دلالة واضحة على أن العرب العثمانيين كانوا يشعرون بالاستبداد الذي يقوم عليه الحكم في الدولة العثمانية ، ويدركون مقدار تخلف هذه الدولة عن ركب الحضارة ، ومدى الهوة السحيقة القائمة بين تقدم اوروبا وتأخر الامبراطورية العثمانية ، شعورا وادراكا

أخذا يدفعان الى تكوين الجمعيات السياسية بدلا من الاكتفاء بدعوات المصلحين الفردية ، او تكوين الجمعيات العلمية والخيرية فقط .

وفوق ذلك فان استعمال عبارة « على وجهها القطعي » في وصف اقامة قاعدة الشورى التي اعتبرتها الجمعية هدفها الاساسي تقدم – في رأينا – دليلا صارخا على الحالة العقلية والنفسية التي كان يعيشها مؤسسو هذه الجمعية – كغيرهم من قادة الرأي العرب في الدولة العثمانية – وهي الحالة العقلية المؤمنة ايمانا حاسما بضرورة حلول قاعدة الشورى محل قاعدة الحكم الاستبدادي الفردي، والحالة النفسية المتشككة في اخلاص السلطان العثماني وحاشيته لجوهر مبدأ الشورى ، والمتوجسة خيفة من احتمالات قبول هذا المبدأ قبولا لفظيا وشكليا يفرغه من محتواه ويحطم جوهره فجاءت الجمعية بتلك الحالة العقلية – النفسية لتؤكد أن هدفها هو اقامة قاعدة الشورى ولكن على **وجهها القطعي** .

واذا كان القانون الاساسي لجمعية الشورى العثمانية لم يحاول تحديد المباديء النظرية العامة التي يقوم عليها تكوينها واهدافها ، فمما لا شك فيه ان اهدافها المذكورة وطبيعة تكوينها تشير اشارة واضحة الى مبادئها النظرية العامة على الشكل التالي :

١ – ان هدف الشورى هو في الوقت ذاته مبدأ نظري عام ، هو مبدأ الديموقراطية بالمضمون الذي حدده ومارسه الاسلام .

٢ – ان طبيعة الجمعية وتكوينها ، كجمعية عثمانية تضم العثمانيين من مسلمين وغير مسلمين ، تسعى لكي تقيم لها فروعا في البلاد العثمانية وفي غيرها من البلاد التي يقيم فيها العثمانيون ، يدل دلالة واضحة على انها كانت – بالمبدأ – جمعية غير طائفية وغير عنصرية ، كذلك فهي مفتوحة العضوية للعثماني المسلم والمسيحي ، العربي وغير العربي كذلك .

٣ – انها كانت تؤمن باتباع الاساليب المشروعة في الوصول الى هدفها ، وكانت لذلك جمعية علنية .

النظام الداخلي لجمعية الشورى العثمانية : فاذا ما انتقلنا الى دراسة « البعد التنظيمي » لجمعية الشورى ، نرى أن قانون الجمعية ينظم في فصوله الثاني والثالث والرابع والخامس شروط العضوية وواجباتها وحقوقها ، ويحدد الهيئات المسؤولة وطريقة تكوين شؤونها الداخلية ، فيحدد مدتها وسلطاتها ، كما ينظم الشؤون المالية للجمعية .

لقد فتحت جمعية الشورى باب العضوية أمام « كل عثماني عاقل محب لوطنه ، على ان يكون حميد السيرة » ، واشترطت ان تحل الارقام بدلا من الاسماء في تعريف الاعضاء ومخاطبتهم والكتابة اليهم .

وكان لهذه الجمعية تشكيل حزبي متكامل . يتكون من هيئات مركزية . وهيئات فرعية توزع فيما بينها الصلاحيات الحزبية الادارية ، كما كان لها مالية منظمة . وأقام قانون الجمعية سلطة مركزية تتكون من مجلس ادارة يتالف من اثني عشر عضوا يسمى الهيئة المركزية ، وسلطات محلية تتكون من مجالس ادارات الفروع(م٥وم٦) وحدد مدة تلك الهيئة وهذا المجلس بسنتين كحد أعلى(م٩) .

وقد وزع هذا القانون السلطات بين الهيئة المركزية ومجالس ادارات الفروع توزيعا عاما ، غير مفصل او معقد . بحيث تتولى الهيئة المركزية ادارة اعمالها والبحث عن طرق الدعوة لها ، وجمع المال وتنفيذ مقاصدها ، وتدبير شؤون فروعها ، وسن اللوائح والقوانين لها(م٥،م٧) والاشراف المباشر على ماليتها .

واخذ القانون بمبدأ الانتخاب في تكوين الهيئة المركزية والمجالس المحلية وفي توزيع وظائف هذه الهيئات كذلك (٣٠) .

كما أسست الجمعية عدة فروع لها في الاقطار المختلفة ، وكانت تطبع منشوراتها بالعربية والتركيةوترسلها الى فروعها في البلاد الاجنبية فتوزع في الولايات ، ثم اصدرت جريدة ناطقة باسمها سنة ١٩٠٧ كما اشرت سابقا(٣١) .

وعندما علم السلطان عبد الحميد بتأسيس هذه الجمعية ولمس نشاطها اخذ في مقاومتها « وهجر النوم مضجعه ثلاث ليال »(٣٢) . « ولم يقر له قرار » حتى عرف مؤسسيها من بعض جواسيسه بمصر . واخذ في مقاومتها واطلق عليها اسم « الجمعية الافسادية »(٣٣) وعلى الرغم من موقف السلطان منها ومقاومته لها ، فقد استطاعت الشورى العثمانية ان تصمد للضغط الحميدي وتبقى قائمة حتى حدوث انقلاب سنة ١٩٠٨ الدستوري .

جمعية الشورى العثمانية بعد الدستور : لقد حاول اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، التقرب من أعضاء جمعية الشورى العثمانية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨، ونجحوا في ذلك الى حد ما ، دليلنا على ذلك ما كتبه احد اعضائها الدكتور « شبلي الشميل » مجاملا الاتحاديين بأن عليهم ان يفرضوا لغة مشتركة في البلاد ، وفضل

اللغة التركية على اللغة العربية «بالرغم من انها اغنى ماضيا وأوسع أدبا من اللغة التركية وادبها،(٣٤)لانها ــ في رأيه ــ اكثر ملاءمة لشكل الحكومة الحرة الجديدة .

ثم حاول الاتحاديون استقطاب اعضاء الجمعية والسيطرة عليها ككل ، وعندما فشلوا في ذلك ، لجأوا الى اسلوب **التفتيت** ، ذلك انهم استطاعوا أن يؤثروا على رفيق العظم وحقي العظم ، فآثرا الدخول في جمعية الاتحاد والترقي ، عند زيارتهما للاستانة بعد الدستور ، وتفرق سائر الاعضاء الذين لم يجمعهم في مصر الا الاضطهاد ، فلم يبق لجمعية الشورى عمل(٣٥) ، وحلها حزب الاتحاد والترقي الحاكم .

اما جمعية النهضة العربية : فقد فكر في تأسيسها طلاب حلقة دمشق الصغرى منذ تاريخ ٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ هـ ، اي بعد سفرهم الى استانبول ، على أن تكون « جمعية سياسية عربية سرية » وبقيت « الفكرة » تراودهم حتى استقر رأيهم على تأسيسها رسميا في : « صباح الثلاثاء الموافق ٥ جمادى الآخر سنة ١٣٢٥ / ١٣ تموز يوليو سنة ١٩٠٧ ، حيث دعا اعضاؤها الى حفلة عامة اقيمت في الحديقة البصرية في جزيرة « بيوك » وهي مصيف شهير لاستانبول .

وقد قدم الدعاة لتأسيس الجمعية بخطب سياسية منها : خطبة محب الدين الخطيب وكانت بعنوان ــ واجباتنا ــ ثم قصيدة عارف الشهابي بعنوان ــ نحن والاعياد ــ وبعد الحفل استقر رأي المؤسسين على أن تكون الجمعية في هذه المرحلة سرية(٣٦) .

لقد تشكلت أول هيئة ادارية لهذه الجمعية من الاعضاء المؤسسين ، وهم : محب الدين الخطيب ، عارف الشهابي ، عبد الكريم الخليل ، وشكري الجندي، (٣٧) . وفي يوم الجمعة الموافق ٧ رجب سنة ١٣٢٥ / ٦ اغسطس آب سنة ١٩٠٧ . تأسس فرع الجمعية في دمشق باشراف صلاح الدين القاسمي ولطفي الحفار .

كان مركز الجمعية عند تأسيسها مدينة استانبول كما أشرنا ، ولكن بعد ثلاثة أشهر ، عاد أعضاء المركز الى مدينة دمشق بمناسبة العطلة المدرسية ، واجتمعوا باعضاء الفرع ،وقر رأيهم على ان تكون دمشق هي المركز العام للجمعية (٣٨) .

مبادىء جمعية النهضة العربية وأهدافها : لم يكن للجمعية عند تأسيسها قانون اساسي او قانون داخلي او برنامج مكتوب « بل كانت تمشي في عامة اعمالها على قرارات شتى تقررها هي لنفسها ومن ثم تشرع في تنفيذ ما يعهد اليها والى البعض من

اعضائها من مها م الاعمال(٣٩) . وعلى الرغم من ذلك ، ففي وسعنا أن نستخلص مبادىء هذه الجمعية واهدافها من محاضرات مؤسسيها واعضائها أو من آثارهم ، ونوجزها على الشكل التالي :

اهم مبادىء الجمعية : ان العروبة اكرم عناصر الجامعة الاسلامية .

ان العروبة هي المسؤولة عن حمل رسالة الاسلام وتجديد شبابه وذلك بازالة الاسباب التي فرضتها الدولة العثمانية وهي : استعجام اللغة العربية ، وتجاهل ماكان يقع في الغرب من نهضة في الصناعة والعلم والتنظيم .

أما أهم أهداف الجمعية فهي : تعريف شباب العرب المثقفين بعروبتهم ،ودعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربي ، من جبال طوروس الى باب المندب .

واما من حيث النظام الداخلي : فانه لم يكن للجمعية عند تأسيسها نظام داخلي مكتوب ينظم شؤون عضويتها وادارتها ، وكانت مواردها المالية عبارة عن قطرات قليلة من المال يضعها كل فرد من اعضائها في صندوق يقتصدونها من مواردهم الخاصة حسب قانون عرفي سنوه فيما بينهم سرا .

تطور جمعية النهضة العربية بعد عام ١٩٠٨ : لقد طرات تطورات هامة على هذه الجمعية بعد عام ١٩٠٨ كانت وليدة طبيعية لما عقد على اعلان الدستور من آمال في حرية العمل التنظيمي . فقد شارك العرب وجمعياتهم ، جمعية الاتحاد والترقي أفراح الاحتفال بالانقلاب الذي أعاد الدستور سنة ١٩٠٨ ، أملا منهم وتطلعا الى عهد جديد من الحرية الفردية والعربية .

ففي اليوم الاول لاعلان الدستور ، احتفلت جمعية الاتحاد والترقي باعلانه احتفالا عاما في استانبول ، وشارك الطلاب العرب هناك في الاحتفال ، وخرج أعضاء جمعية النهضة العربية « فرع استانبول » يساهمون في تمجيد هذه المناسبة ، ولم يكتف فرع جمعية النهضة العربية في دمشق بالاحتفال فقط ، بل توافد اعضاؤه في اليوم الثاني لاعلان الدستور الى مقهى القوتلي في دمشق واعلنوا عن انفسهم كجمعية قومية عربية ، واصبحت جمعية النهضة العربية جمعية علنية بعد ان كانت جمعية سرية .

وقام الخطباء من اعضاء الجمعية يلقون بكلماتهم الوطنية المعبرة عن اتجاهات

جمعيتهم وآمالها ، فالقى رشدي الحكيم خطابا عنوانه « امنية ولا كالاماني » وزكي الخطيب القى كلمة بعنوان « على سلم الارتقاء » ولطفي الحفار « في الماضي والحاضر » وصلاح الدين القاسمي « سماء تركيا » .

ولكن هذا التعبير العربي الايجابي لم يكن ليغير من سياسة حزب الاتحادوالترقي المرسومة والمدروسة :

لقد لمس الاتحاديون منذ اليوم الاول لاعلان الدستور حقيقة مطالب القوميات وامانيها ، وشهدوا كذلك مدى التأييد الهائل الذي اكتسبوه بعد الانقلاب الدستوري، فقد عبرت عن تلك المطالب وعن هذا التأييد جميع الجمعيات التي اقامتها قوميات الامبراطورية باشتراكها في افراح اعياد انقلاب ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ . فكانت المحافظة على هذه الشعبية ، مع التنكر لتلك المطالب هي أول مهمة واجهتها جمعية الاتحاد والترقي لدى تطبيق برنامجها في التتريك والمركزية ، تجاه جمعيات القوميات الاخرى وباشرت جمعية الاتحاد والترقي تنفيذ خطتها الهادفة الى تصفية الجمعيات التي وجدتها قائمة عند اعلان الدستور .

تطور جمعية النهضة العربية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ : ومن هذا المنطلق **طرا تطور كبير على جمعية النهضة العربية ، اذ حاول اعضاؤها الحصول على ترخيص** للعمل العلني « كجمعية عربية » بكل الوسائل ، ولكن حكومة الاتحاد والترقي بدات تماطل دون الوصول الى نتيجة حتمية ، وكان الهدف من هذه المماطلة تحويل الجمعية من جمعية عربية سياسية الى جمعية ثقافية فقط .

ورغم هذه المماطلة فقد اجتمع اعضاء جمعية النهضة العربية في دمشق اوائل سنة ١٩٠٩ ووضعوا لجمعيتهم قانونا خاصا صادق عليه الاعضاء في جلسة علنية عامة وانتخبوا هيئة ادارية جديدة ، برئاسة محب الدين الخطيب ، وعضوية رشدي الحكيم ، وجمال الحفار وزكي الخطيب ، وعندما عاد رئيس الجمعية وبعض اعضائها للدراسة في استانبول ، انتخبت الجمعية هيئة ادارية جديدة برئاسة رضا مردم ، وعضوية حكمت المرادي (نائب الرئيس) ، ورشدي الحكيم (المحاسب) ، وجمال الحفار (امين الصندوق)، وزكي الخطيب (كاتب)، ولطفي الحفار وصلاح القاسمي، (من اعضاء مجلس الادارة) ..

وبقي هذا الوضع قائما حتى فشل الثورة المضادة سنة ١٩٠٩ ، اذ عادالاتحاديون الى الحكم أشد قوة وتصلبا تجاه ابناء القوميات الاخرى وجمعياتهم ، وكانت أول

خطوة على طريق هذا التحدي ان تقدم النواب الاتحاديون بطرح المادة الرابعة من نظام الاجتماعات في مجلس المبعوثان ، وطلبوا مناقشتها في الجلسة المنعقدة بتاريخ ٧-٧-١٩٠٩ ، وتنص على انه : « يمنع قيام الجمعيات ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية »(٤٠) .

وبالرغم من مقاومة اعضاء القوميات غير التركية لهذه المادة . الا انها فازت عندما عرضت على الاقتراع فنالت اكثرية ٩٠ — ٦٩ صوتا(٤١) .

اخذ الاتحاديون في ملاحقة اعضاء جمعية النهضة العربية في الاستانة ولم تكن مرخصة بعد ، فهاجر رئيس فرع استامبول ، محب الدين الخطيب الى مصر ، وتقلصت الجمعية في استامبول الا انها توسعت في دمشق ، وعقدت اجتماعا ليلة السبت في ١٣ ربيع اول سنة ١٣٢٧ لبحث قضية تغيير اسمها الى جمعية « النهضة السورية » بناء على طلب من حكومة الاتحاد والترقي ، وبعد المداولة قررت اللجنة الادارية ادخال تعديل على طلب الاتحاديين « رعاية لما كان يقتضيه الحال وناموس بقاء الانسب » وطلبت اللجنة تغيير اسم الجمعية من جمعية « النهضة السورية » الى اسم « جمعية النهضة » فقط ذلك ان الاسم الاول الذي اقترحه الاتحاديون لايعم الاعضاء من غير سورية ولايشمل الفروع التي في الاقطار الاخرى (٤٢).

وقد ارفقت الجمعية هذا القرار بنظامها الاساسي الداخلي وطلبت الترخيص لها على اساس ذلك . اخذ الاتحاديون كعادتهم في مماطلة اعضاء جمعية النهضة العربية ومقاومتهم حتى « عدلت الجمعية في قانونها المقترح ونقحته وجعلته منطبقا على قانون الجمعيات الحديث ، بعد ان كانت تمازجه روح السياسة » .

وتبدو لنا هذه التطورات والتعديلات من تحليل قانون جمعية النهضة الذي اجيز في الجلسة العامة المنعقدة ليلة ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ ، والذي قدم لحكومة الاتحاديين من اجل الحصول على الترخيص القانوني للجمعية ، ثم من تحليل هذا القانون بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات قبل أن يتخذ الصيغة النهائية التي اجازته بها الحكومة بتصريح مؤرخ في ١١ تشرين الاول ، شرقي عام ١٣٢٧ ، وفي ضوء المحاضرات الهامة التي القاها صلاح الدين القاسمي أول أمين عام للجمعية في وضعها النهائي ، وكانت هذه المحاضرات بعنوان « عقبات في طريق الجمعية »(٤٣) .

مباديء الجمعية واهدافها : يوجز قانون الجمعية الذي اجازته الحكومة مبادئها بصورة محددة في المادة الثانية من هذا القانون ، وهي المادة التي تبتدىء بتحديد

هوية الجمعية في أنها « علمية محضة » وبالرغم من وضوح مقدار ما فرضته الحكومة على الجمعية من ابتعاد عن الاشتغال بالسياسة باية صورة من الصور ، فان الامريبدو بصورة أوضح عندما تقارن هذه المادة في القانون المصرح به مع مثيلتها في قانــــون الجمعية المقترح .

لقد راعت جمعية النهضة ما تدركه من عزم الحكومة على حرمانها من اي نشاط سياسي ، وصاغت نظامها الاساسي المقترح على اساس هذا الوعي ، ولكن بصـــــورة تتيح بعض النشاط السياسي غير المباشر ، فجاء التعديل الذي فرضته الحكومة على الدستور حاسما وقاسيا في اقفال ماقد تتيحه تلك الصياغة من أوجه هذا النشاط السياسي غير المباشر اقفالا محكما على الشكل التالي :

١ ــ تنص المادة الثانية من القانون المقترح على أن « الجمعية علمية » بينما يؤكد القانون المصرح به في نفس المادة على أن الجمعية علمية « محضة » وواضح ما تنطوي عليه كلمة محضة من معاني التحريم المطلق لكل نشاط ذي صبغة سياسية - مباشرة كانت أو غير مباشرة .

٢ ــ تنص المادة الثانية من القانون المقترح على ان مبادىء الجمعية هي :
المبدأ الاول : نشر اللغة العربية وادابها وترقية العثمانيين عموما والعــرب خصوصا باشاعة العلم بين ابنائها .

المبدأ الثاني : اقامة اوضاع علمية وخيرية خدمة للمبادىء المصرح بها في هذا القانــون .

المبدأ الثالث : تنشيط كل ما من شأنه عمران الوطن اذا كان في وسعها ذلك .

المبدأ الرابع : التعاون بين الاعضاء في المصالح الادبية والمادية .

المبدأ الخامس : اغاثة العضو أو اسرته اذا دعت الحال الحيوية وكان ذلك في امكان الجمعية(٤٤) .

بينما تنص المادة الثانية من القانون المصرح به على ان مبادىء الجمعية هي :

أ ــ العناية باللغة العربية وآدابها .

ب ــ اقامة أوضاع علميــة .

جـ ـ التعاون بين الاعضاء في المصالح المادية والادبية(٤٥) .

وهكذا فان القانون المصرح به عدل هذه المادة تعديلا جذريا يبدو بالمقارنة فيمايلي:

ـ حذفت المبدأ الثالث والخامس بأكملهما .

ـ حذفت عبارة ترقية العثمانيين عموما والعرب خصوصا باشاعة العلم بين ابنائها من المبدأ الاول ، واستعيض عن عبارة : نشر اللغة العربية وآدابها ، بعبارة : العناية باللغة العربية وآدابها .

ـ ابدلت عبارة اقامة اوضاع علمية وخيرية خدمة للمبادىء المصرح بها في هذا القانون ، التي تكون المبدأ الثاني من القانون المقترح ، بعبارة « اقامة أوضاع علمية » الواردة في المبدأ الثاني من القانون المصرح به .

ـ بقي المبدأ الرابع من القانون المقترح على حاله في القانون المصرح به واصبح المبدأ الثالث والاخير .

واضح من النصين المقترح ثم المصرح به أن ماسمي مبادىء الجمعية انما ينحصر في اهدافها التي ضيق القانون المصرح به افاقها تضييقا بالغا .

العضوية : اخذت جمعية النهضة بنوعين من العضوية هما : في القانون المقترح اعضاء شرف واعضاء عاملون ، في القانون المصرح به : أعضاء عاملون واعضاء مساعدون .

اما بصدد شروط العضوية ، فقد كان القانون المقترح ، يتضمن اربعة شروط تجعل من الجمعية ، جمعية عربية ، وتؤكد التزام العضو بمباديء الجمعية ،وبالمناداة بمبدأ لشورى ، وبان يكون العضو حسن السيرة يعرف القراءة والكتابة(م٦) ولكن القانون المصرح به الغى هذه المادة الغاء كليا.

اما بالنسبة لحقوق الاعضاء ، وواجباتهم والهيئات المسؤولة في الجمعية وتنظيم عملها وعلاقاتها : فقد تحددت هذه النواحي في النظام الداخلي لجمعية النهضة ، في الفصول الثالث والرابع والخامس من نظامها المصرح به ، وهي الفصول التي تشتمل على المواد من ٧ حتى ٣٣ .

لقد اختصرت صيغة القانون المصرح به مواد القانون المقترح في هذه المسائل

اختصارا كبيرا ، قلل من وضوحها وانضباطها ـ تمشيا مع سياسة ضمان ان تكون الجمعية مجرد جمعية علمية ـ وبدا ذلك بصورة خاصة في نقطتين بارزتين هما :

١ ـ حذف الفصل السابع من القانون المقترح الذي ينظم مالية الجمعية .

٢ ـ حذف الفصل الثامن من القانون المقترح الذيينظم مالية الجمعية بصورة استهدفت خنق الجمعية ماليا ، وذلك من حيث قصر القانون المصرح به ماليتها على اشتراكات الاعضاء الشهرية التي جعل حدها الادنى ربع مجيدي ، ووضع لها حدا اعلى لايتعدى ٢٤ ليرة في السنة ، ومنع عنها الموارد الاخرى التي كان ينص عليها القانون المقترح في المادة (٣٤) وهي المواد الاتية :

ـ من واردات المشروعات والاعمال التي تقوم بها (م٢) .

ـ من التبرعات والهداياالتي ترد اليها (م٣).

ـ من الاعانات التي تقررها على اعضائها اذا مست الحاجة ، او تستجلبها من صناديق الفروع (م٤) .

أما الاسس الاخرى التي يقوم عليها تنظيم تلك الشؤون الحزبية الداخلية فلم يصبها تغير جذري ، فبقيت قابلة للايجاز على الشكل التالي :

١ ـ يكون طلب الانتساب الى الجمعية : « بان يقدم الراغب في ذلك طلبه الى اللجنة الادارية بكتاب خاص ، أما بواسطة احد اعضائها او بوضعه في صندوق المراسلات ، واذا قررت اللجنة قبوله تبلغه ذلك في مدة معينة » .

٢ ـ للجمعية لجنة ادارية تتألف من سبعة اعضاء (كانوا في القانون المقترح اربعة عشر عضوا) ينتخب اعضاؤها من بين الاعضاء العاملين وينتخب اعضاء اللجنة من بينهم رئيسا ونائب رئيس وكاتبا وامين صندوق ومحاسبا .

٣ ـ يدفع العضو الى صندوق الجمعية اشتراكا شهريا حده الادنى ربع مجيدي وحده الاعلى ٢٤ ليرة في السنة (الحد الادنى في القانون المقترح نصف مجيدي ولايوجد تعيين للحد الاعلى).

٤ ـ اماواجبات وصلاحيات لجنة الادارة وموظفيها (حسب تعبير قانون الجمعية) فهي ان اللجنة مسؤولة مسؤوليه مشتركة عن سير اعمال الجمعية ، بينما تكون واجبات الموظفين كما يلي :

ـ واجبات الرئيس هي :

رئاسة لجنة الادارة والجلسات العامة والمحافظة على النظام فيها ، والاشراف على اعمال الجمعية (م ١٠) .

ـ واجبات نائب الرئيس هي :

القيام بواجبات الرئيس عند غيابه (م ١١) .

ـ واجبات الكاتب هي :

ان يحفظ جدولا فيه اسماء الاعضاء وتاريخ دخولهم ومقدار المرتب الذي يستوفى منهم مشاهرة وان يقوم بالشؤون الكتابية في الجمعية (م١٢) .

ـ واجبات المحاسب هي :

تنظيم الدفاتر وتسجيل حسابات الجمعية وعرضها على لجنة الادارة اخر كل شهر وتوقيع الوصولات (م ١٣) .

ـ واجبات امين الصندوق هي :

حفظ اموال الجمعية وجباية المرتبات وصرف ماتقرره اللجنة والجمعيةوتدوين ذلك فيدفتر خاص (م ١٤) .

٥ ـ امابصدد نظام جلسات لجنة الادارة فقد اخذت الجمعية بالاسس التالية:

ـ تجتمع لجنة الادارة ليلة الجمعة من كل اسبوع (م ١٥) .

ـ اذا اجتمع خمسة من اعضاء اللجنة ، يباشرون العمل (م١٧) .

٦ ـ اما بصدد نظام اجتماعات الجمعية العامة فقد اخذت الجمعية بالاسس التـــاليـــة :

ـ اعضاء الجمعية يجتمعون في جلسة عامة مرة كل شهر يتلي فيها خطاب عن اعمال اللجنة خلال ذلك الشهر (م ١٦) .

ـ الجلسة العامة تعقد اذا وجدت الاكثرية المطلقة (م ١٧) .

٧ ـ وقد وردت بعض اسس تنظيمية اخرى في ذيل القانون الاساسي اهمها :

ـ لايجرد العضو من العضوية الا بثلثي الاراء في جلسة عامة (م١٩).

ـ لايجوز نقض قرار الجمعية او اللجنة الا بأكثرية ثلثي الاراء (م ٢٣) .

ـ اذا طلب عشرة على الاقل من اعضاء اللجنة احداث تغيير في القانون أو قررت اللجنة الادارية ذلك يعرض الطلب او القرار على الجمعية في جلسة عامة ويكون التغير بأغلبية ثلثي اراء الاعضاء (م ٢١) .

ـ تغيير مواد هذا القانون من حقوق اللجنة الادارية (م ٢٠) .

ـ لا تسأل الجمعية الا عما تقرر عمله بقرار اللجنة الادارية او الجلسة العامة وليس عليها تبعة عمل يأتي به احد اعضائها بدون قرار منها (م ٢٢) ،

ويبدو واضحا من نص هذه المادة جو الارهاب الذي كان مفروضا على جمعية النهضة ونشاطها .

ويبرز من هذا التحليل ان من اهم سمات التنظيم الداخلي الوارد في قانون جمعية النهضة سمة الديموقراطية التي تتجسم في العناصر التاليـــة :

١ ـ الانتخـــاب : سواء اكان ذلك في ان الهيئة العامة تنتخب اللجنة الادارية او في ان اللجنة الادارية تنتخب موظفيها .

٢ ـ رأي الاكثرية : هو الذي يسري في جميع قرارات الجمعية ولجنتها مع تحفظ يتطلب ان تكون هذه الاكثرية في مستوى الثلثين حينما يتعلق الامر بحرمان عضو من عضويته ، او تعديل قانون الجمعية او تغيير قرارات اللجنة الادارية .

لقد اقر الاتحاديون دستور الجمعية بصيغته الجديدة سنة ١٩١٠ وبذلك اصبحت الجمعية شرعية بعد مماطلة دامت اكثر من سنتين. وقدبقيت جمعية النهضة قائمة حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . ويعود الفضل في بقائها طيلة هذه المدة ، الى الخط الثقافي ذي المضمون السياسي الذي سارت عليه حتى الحرب ، فكانت قلعة ثقافية متحررة في مدينة دمشق (٤٦) تعلم ابناء الشعب من التجار والصناع واعضاء الجمعية الذين لم تمكنهم ظروفهم من تلقي الدروس العربية ، وذلك بأن افتتحت «مكاتب الشعب» أو «بيوت الشعب». وقام الاعضاء بتمثيل الروايات الوطنية مثل «فتاة الدستور» وغيرها ، وخصص ربع هذه التمثيليات الى غرف القـراءة التابعة للجمعية(٤٧) . وكان اشهرها قاعة القراءة في الدرويشية ، وقاعة القراءة التي اقامها اعضاء الجمعية في الطابق الاعلى من خان الجمرك ، وكان ممن يلقي الدروس

في هذه الدور (او الغرف) فارس الخوري ، وعبد الرحمن الشهبندر وشكري العسلي ، وكرد علي وغيرهم (٤٨) .

امابرنامج الجمعية الثقافي بشكل عام ، فكان يتناول الابحاث العربية ويكفي ان نستشهد بعناوين المحاضرات ،فهي التي تدل على اتجاه جمعية النهضة القومي، رغم الضغط الشديد عليها لتحويلها الى جمعية علمية فقط ، فقد كانت المحاضرات تحمل هذه العناوين «المسألة العربية ونشأتها» و «الخطران الاصفران » ويعني المحاضر بهما الصهيونية ووباء الكوليرا)،و « الامة والموظفون »،ثم« القومية فيالامم ».

ويشير المحاضر في هذه المحاضرة الاخيرة الى تأليف الاتراك عدة جمعيات تركية محضة مثل: « ترك درنكي »و« ترك اوجاغي »و« ترك يوردي»...الخ،الى ان يقول : فعسى ان يكون لنا نحن العرب من ذلك درس نافع يحملنا على الاخذ بالجديد المفيد وطرح النظريات الرثة البالية في عصر ليس الحكم فيه الا للقوة والمصلحة القومية (٤٩) .

واذا كانت جمعية النهضة قد انتهت مع بداية الحرب العالمية الاولى الا انها امدت الحركة الوطنية في سورية برجال كان لهم الاثر الفعال في كل التشكيلات الحزبية التي ظهرت في النصف الاول من القرن العشرين ، وخصوصا ـحزب الكتلة الوطنيةـ كما امدت الحركة السياسية بعدد من الرجال الذين كان لهم اثرهم الفعال في تاريخ الدولة السورية من امثال فارس الخوري ، وزكي الخطيب ، وعبد الرحمن الشهبندر ولطفي الحفار وغيرهم كثير .

* * *

(١) وهي الجمعيات التي اسسها السوريون داخل سوريا وخارجها .

(٢) راجع مجلة المقتطف م٧ ج٣ ص ٣٨٧ .

(٣) مذكرات مدحت باشا ، تعريب يوسف كمال حتاته ، ص ٣٦ ــ ٣٧ .

(٤) احمد امين ، زعماء الاصلاح ، ص ٥٤ .

(٥) مجلة المقتطف ، المرجع السابق .

(٦) لا بد من الاشارة الى أن جمعيات علمية كبرى كانت قائمة في مصر ايضا مثل المجمع العلمي المصري، ومجلس المعارف المصري ، والجمعية الجغرافية الخديوية ، وجمعية الاداب التي تاسست سنة ١٨٧١ والجمعية العلمية الشرقية سنة ١٨٧٧ ، وهذا بالاضافة الى جمعية العروة الوثقى التي ساهمت في تمويل مجلة العروة الوثقى التي اصدرها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في باريس .

(٧) J. leine, Arab - Turkish. P. 57

(٨) مصطفى الشهابي ، محاضرات في القومية العربية ، ص ٤٨ .

(٩) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق .

(١٠) الشيخ طاهر الجزائري علامة من علماء دمشق ، كان المفتش الاول من جانب الدولة العثمانية على جميع دور الكتب في الولايات السورية من اقصى حلب شمالا الى جنوب فلسطين . ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٩٢٠ (من أوراق محب الدين الخطيب) .

(١١) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل ، مخطوط لم يطبع بعد .

(١٢) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ــ ١٩١٤ .

(١٣) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ص٥٠ . ومذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(١٤) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(١٥) محمد الفرحاني ، فارس الخوري وايام لا تنسى ، ص ٢٣٦ .

(١٦) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل ، مخطوط لم يطبع بعد .

(١٧) راجع كتاب بحوث في التاريخ الحديث مهداة الى الدكتور احمد عزت عبد الكريم صادر عن جامعة عين شمس ١٩٧٦ ، ص ١١٠ ، بحث للسيدة سهيلة الريماوي بعنوان « أوراق محب الدين الخطيب » .

(١٨) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(١٩) د. صلاح الدين القاسمي ، آثاره ، من المقدمة بقلم محب الدين الخطيب .

(٢٠) مصطفى الشهابي ، محاضرات من القومية العربية ، ص ٤٠ .

(٢١) يشير السيد توفيق برو في كتابه ، العرب والترك في العهد العثماني ، ص ٢٤ الى ان بعض السوريين اشتركوا في تاسيس جمعية سرية سنة ١٨٦٥ مع الاتراك ، وتعرف باسم « يكي عثمانليلر » اي جمعية العثمانيين المحدثين ولكنه لم يذكر اي اسم عربي .

(٢٢) المنار م ١٢ ، ج١ ، ص ١٢ ــ ١٣ .

٢٣ ـ رفيق لعظم ، اثاره ، من المقدمة بقلم رشيدرضا ، ط ٢ ، ١٣٤٢ هـ .

٢٤ـ رفيق العظم ، المصدر السابق .

٢٥ ـ المنار ، م٩ ، ج١٢ ، ص٩١٥ .

٢٦ ـ المنـار ، المصدر السابق .

٢٧ ـ المنار ، المصدر السابق .

٢٨ ـ المنار ، م٩ ، ج١٢ ، ص ٩٥٢ ، تاريخ ١٣ شباط ـ فبراير ١٩٠٧ .

٢٩ ـ وثيقةمن مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٣٠ ـ وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

٣١ ـ رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة .

٣٢ ـ المنار ، ١٢٣ ، ج١ ، ص ١٣ ، فاتحة السنة الثانية عشرة .

٣٣ ـ رفيق العظم ، المصدر السابق .

٣٤ ـ جريدة الاهرام ، بتاريخ ١٩٠٩/٣/٨ .

٣٥ ـ رفيق العظم ، مجموعة آثاره ، من المقدمة بقلم رشيد رضا .

٣٦ ـ مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل، مخطوط لم يطبع بعد .

٣٧ ـ مصطفى الشهابي ، القومية العربية، ص٥٥ .

ومذكرات الخطيب ، المصدر السابق .

٣٨ ـ صلاح الدين القاسمي ، آثاره ، ص ٦ .

٣٩ ـ صلاح الدين القاسمي ، المصدر السابق ، ص ٩ .

٤٠ ـ Corresp. d'orient, 20e année, 15-2-1909.

٤١ ـ جريدة المؤيد بتاريخ ٢ـ٨ـ١٩٠٩ .

٤٢ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، المقدمـــة في القـانون المقترح .

٤٣ ـ من وثائق محب الديـن الخطيـب مؤسس الجمعية ، قانون جمعية النهضة المعدل .

٤٤ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، القانون المقتـرح .

٤٥ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، القانون المصرح به .

٤٦ ـ مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

٤٧ صلاح الدين القاسمي ، اثاره ، ص ٨ مـن محاضرة القاها بعنوان كلمة في تاريخ الجمعية .

٤٨ ـ محمد الفرحاني ، فارس الخوري وايام لا تنسى ، ط بيروت سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٣٧ .

٤٩ ـ صلاح الدين القاسمي، اثاره ، ص ٤٣ .